عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

السِّلْسِلَة الفكريَّة – الجزء السادس

المسائل في شُبُهات المستشرقين

سبتمبر 2019
النسخة السادسة - مايو 2023

"هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" (7-آل عمران).

والآية تُحَذِّرُ من الذين يتبعون المتشابهات على المحكمات من أجل التَّضليل (ابتغاء الفتنة) وتحريف المعاني (ابتغاء تأويله) ...

جميع الحقوق محفوظة
نسخة إلكترونية دون فواصل
omr-mhmd.yolasite.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المقدمة 5

الفصل الأول – المبادي الرئيسية..... 6

الفصل الثاني – المسائل 10

#2.1 إثبات وجود الخالق 10

#2.2 إثبات الرسالة المحمدية..... 12

#2.3 صفات الخالق 14

#2.4 سيناريو المختبر..... 15

#2.5 هل يستطيع 16

#2.6 لماذا صادق..... 18

#2.7 أزلية الكون..... 18

#2.8 لماذا الشقاء في العالم..... 19

#2.9 لماذا أنتم في ضعف 19

#2.10 هل نُقِلَ الإسلام مشافهة..... 20

#2.11 كيف تم جمع القرآن..... 22

#2.12 القراءات والأحرف والرسم في القرآن..... 23

#2.13 نسخ قديمة من القرآن..... 25

#2.14 ادعاء بوجود نسخة من القرآن أقدم من الإسلام..... 27

#2.15 الآيات المنسية..... 27

#2.16 سورتا الفلق والناس..... 28

#2.17 التحديات القرآنية الأربعة هي خاصة لقريش والخزرج 29

2.18# عالم الغيب والشهادة 34
2.19# القضاء والقدر 37
2.20# تعارض الغيب مع النظريات العلمية 40
2.21# لماذا آيات الغيب ليست واضحة 41
2.22# لماذا لا أبناء 44
2.23# محمد أم أحمد 46
2.24# عيسى أم يسوع 47
2.25# النصاري أم المسيحيون 49
2.26# ستة أم ثمانية أيام 52
2.27# موضوع العزير 53
2.28# التنوع في الوصف والسرد 55
2.29# فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ 59
2.30# فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ 60
2.31# وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ 61
2.32# وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ 61
2.33# أين هو الإنجيل؟ 62
2.34# أسباب التحريف في التوراة والإنجيل 68
2.35# الإسلام والوثنية 74
2.36# شهادة المرأة والرجل 75
2.37# الإسلام والعبودية 77
2.38# أين يقع العقل، في الدماغ أم القلب 80
2.39# لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ 82
2.40# هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ 83

2.41# وَلَا يَتَسَاءَلُونَ 83
2.42# إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ 84
2.43# وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ 84
الفصل الثالث – معالجة الضيق 85
الفصل الرابع – الأعاجيب في القرآن 88
الفصل الخامس – آيات ننتظر تتابع المعلومات لها 100
الفصل السادس – أعاجيب الأعداد بين الاعتماد والتأجيل 122
الخاتمة 124
الملحق الأول – الطرق المستخدمة في إثبات وجود الخالق 125
الملحق الثاني – أصل الحياة دليل على وجود الخالق 128
الملحق الثالث – الشُّبهات في الفيزياء الكمية 132
الملحق الرابع – القراءات المختلفة في القرآن ومصحف صنعاء 134
الملحق الخامس – منهجية التحليل للأحاديث النبوية 143
الملحق السادس – شبهات المشككين في القرآن والقواعد اللغوية 155
الملحق السابع – البلاغة عند العرب 167
الملحق الثامن – النَّبي في التوراة والإنجيل 181
الملحق التاسع – تشابه الألفاظ واختلاف المعاني بين القرآن وبين التوراة والإنجيل 194
المراجع 198
مؤلفات سابقة للمؤلف 201

المقدمة

هذا الكتاب يتعلق ببعض الشُّبهات الرئيسية للملحدين والمستشرقين فيما يتعلق بالإسلام. ولم نضع جميع الشُّبهات وإنما قمنا بعرض المبادئ الرئيسية التي يُمكن استخدامها في الرد على الكثير منها، ووضعنا كذلك بعض المسائل فيها.

عمر محمد.

النسخة الأولى سبتمبر 2019

النسخة السادسة مايو 2023

omr-mhmd.yolasite.com

omar.robb@yahoo.com

الفصل الأول – المبادي الرئيسية

توجد ستة مبادئ رئيسية تُساعد في مواجهة الكثير من شُبهات الملحدين والمستشرقين، وهي التالية:

1.1- مسؤوليتنا تكون ضمن حدود قُدُراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا، وأما خارج هذه الحدود فنحن غير مسؤولين ولا محاسبين عنها.

وقد استطاعت البشرية الحصول على القدرات العالية والمعلومات الوفيرة وذلك من خلال عمليات الاستنباط والاستقراء عبر الأجيال. وبالطبع فإن هناك معلومات كنا نظنها صحيحة وتبين لاحقا أنها خاطئة، وهذه يتم تصحيحها عبر الأجيال. ولكننا نبقى في كل زمان مسؤولين حسب حدود قدراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا.

وهذا المبدأ هو المعتمد في جميع الأنظمة البشرية (الإدارية والقضائية إلخ). وقد شرحنا هذا المبدأ بتفصيل في الباب 2.1.

1.2- ليس من الضروري لنظام ما وراء الكون (البعث والحساب والآخرة وصفات الخالق إلخ) أن يكون متوافقا مع نظام الكون، وبالتالي فإن البديهيات والقوانين التي نعرفها في نظام الكون لا تنطبق بالضرورة على نظام ما وراء الكون.

وهذا الموضوع قد شرحناه بتفصيل في الفصل الثاني من كتاب "تحليل الأدلة والقرائن"، وسنضعه هنا باختصار:

فالنظام الذي يسود في القبيلة ليس من الضروري أن يكون سائدا في الدولة، والنظام الذي يسود في الدولة ليس من الضروري أن يسود في الدولة المجاورة.

وبالنسبة لنظام ما وراء الكون: فإننا نظرنا إلى الكون ووجدنا أنه لا يمكن أن يتم تنظيمه بالصدفة (راجع الباب 2.1)، فكان الاستنتاج أن هناك جهة قد قامت بتنظيمه، وهذه الجهة سميناها "الخالق". ولا يُمكن للخالق أن يكون له بداية؛ لأنه إذا كان كذلك فهناك من نَظَّمه، وهنا ندخل في سلسلة لا متناهية من خالق ومخلوق. ولهذا السبب فإن الخالق ليس له بداية. وهذا الاستنتاج سميناه (في الكتاب السابق) استنتاج منطقي مُتَطَرِّف: فهو استنتاج غير منطقي (لأنه يتعارض مع بديهيات الكون: فكل شيء في الكون له بداية) ولكنه استنتاج ضروري جدا لمنع السلسلة اللَّانهائية.

وهنا نأتي لأول استنتاج فيما يتعلق بما وراء الكون وهو أن الخالق لا يُمكن أن يكون له بداية. وهذا دليل أنَّ نظام ما وراء الكون لا يتوافق بالضرورة مع نظام الكون.

1.3- عدم معرفة الجواب لا يعني بالضرورة أن رأينا خاطئ ولا يعني بالضرورة أن رأينا صحيح، وإنما قد يعني أنه لا توجد لدينا المعلومات الكافية للإجابة. وأما صحة الرأي فتعتمد على الأدلة المتوفرة له: فإذا كانت الأدلة يقينية فالرأي يقيني، وإذا كانت الأدلة ظنية فالرأي ظني، وإذا كانت الأدلة تخمينية فالرأي تخميني، وإذا كانت الأدلة ضعيفة فالرأي ضعيف، إلخ.

بالإضافة لذلك فإن هناك أسئلة لا يمكن الإجابة عليها بشكل مباشر، فمثلا إذا سألك صديقك: هل اشتريت الطبلة كي تزعج جارك الذي يُزعجك؟ فإن الجواب لهذا السؤال لا يُمكن أن يكون مباشرا (أي بنعم أو لا) إذا كان جارك لا يُزعجك وأنت لم تشتري طبلة وأنه لا يوجد عندك جيران.

والنقطة هنا أن بعض الأسئلة لا يمكن الإجابة عليها بشكل مباشر، وخصوصا إذا كان فيها تناقضات غير واضحة.

1.4- الفلسفة الألفية. وهو موضوع قد شرحناه بتفصيل في كتاب "الفلسفة الألفية ومنهج المقاربة". وسنشرحه هنا باختصار:

فالقرآن ليس كتاب فيزياء ولا كتاب تاريخ، ولكن يوجد فيه الكثير من الأخبار. وهذه الأخبار لم تأتنا بالتفصيل: فلا يوجد في هذه الأخبار الأجوبة لـ: كيف وماذا ومتى وأين ومن ولماذا إلخ. وفي المقابل فإن القانون الأساسي في المنهج العلمي هو أن "العلم يجب أن يخطو إلى الخطأ كي يصل إلى الصحيح". ولهذا السبب فإن الكثير من النظريات العلمية قد بدأت خاطئة (أو غير دقيقة)، ثم صَحَّحَتْها الأجيال اللاحقة.

وهنا تأتي الفلسفة الألفية وهو ضرورة وجود خطين في النظر إلى المواضيع العلمية:
الخط الأول: وهو أن نؤمن بالنصوص الغيبية الصريحة الثابتة.
والخط الثاني: وهو أن نمشي ونتماشى مع المنهج العلمي حتى يفرجها الله تعالى.

1.5- عندما تتعارض الأدلة الثابتة فإننا نحاول التوفيق بينها. وإذا لم نستطع فإننا نستخدم الأدلة الأوضح في تفسير الأدلة الأقل وضوحا. وإذا لم نستطع فإننا نتعامل مع هذه الأدلة بالتوازي حتى تأتي معلومات إضافية تسمح لنا بالتوفيق بينهم.

وما سبق هو المبدأ المعتمد في جميع الأنظمة البشرية: فإذا جاءت أدلة ثابتة متعارضة في الطب (مثلا) فإننا نحاول البحث عن تفسير يجمعهما معا، ونحاول بعدها التحقق من صحة التفسير.

وإذا لم نستطع فإننا نستخدم الأدلة الأكثر وضوحا لتفسير الأدلة الأقل وضوحا، ومن ثم نحاول التحقق من هذا التفسير.

وفي بعض الحالات فإنا لا نستطيع التوفيق بين الأدلة: فمثلا قوانين الفيزياء الكمية تتعارض تماما مع قوانين النظرية النسبية، ولا نستطيع حتى اللحظة التوفيق بينهما. والذي يفعله العلماء هو التعامل مع هذه القوانين بالتوازي: فيتم استخدام النظرية النسبية في دراسة الأجسام التي تتحرك بسرعات

العالية، ويتم استخدام الفيزياء الكمية في دراسة الأجسام الدقيقة جدا. والعلماء ينتظرون تتابع المعلومات لمحاولة التوفيق بين النظريتين.

ويوجد موضوع قد اتخذه المسلمون قديما ضمن مبدأ التوازي؛ فقد قال تعالى: "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ" (النمل–88)، وقد قام العلماء الأقدمون بتفسير الآية كما هي، ولكن لم يَقُم الناس بالرحيل عن الجبال بسبب هذه الآية وإنما كان هناك موقفان متوازيان: الموقف الأول وهو الموقف الواقعي وهي أن الجبال ثابتة، والموقف الثاني وهو أن الجبال تمر مر السحاب دون أن نشعر بذلك. وهذا كما سنشرح لاحقا هي المناعة الأولى التي حصلنا عليها عندما ننظر إلى الأدلة المتعارضة التي لا نستطيع التوفيق بينهما.

1.6- الاختلاف في النصوص له نوعان:

- تناقض النصوص (Textual Contradiction). وعندما نذكر كلمة التناقض في الكتاب فإننا نقصد تناقض النصوص إلا إذا دل السياق على غير ذلك.
- تعارض الأفهام (Interpretation Difference). وعندما نذكر كلمة التعارض في الكتاب فإننا نقصد تعارض الأفهام إلا إذا دل السياق على غير ذلك.

وتناقض النصوص هو وجود خلاف صريح بين نَصَّين (عبارتين) واضحين لا يمكن التوفيق بينهما.

فمثلا: لنفترض وجود تقرير عن مشروع، وفي التقرير يوجد النَّص: استغرق بناء المشروع 6 أيام. وفي صفحة أخرى من التقرير نجد نصا آخر يقول عن المشروع نفسه: استغرق بناء المشروع 8 أيام. فإننا هنا نجد خلافا صريحا بين نَصَّيْن واضحين، ولا يُمكننا التوفيق بينهما. وهذا الخلاف هنا نسميه "تناقض النصوص".

وأما تعارض الأفهام فهو أنَّ فهمنا للنص الأول يتعارض مع فهمنا للنص الثاني، ولكن لا يوجد خلاف صريح بين النصين.

فمثلا: لنفترض وجود النص الأول في التقرير وهو: استغرق بناء المشروع 6 أيام. وأما النص الثاني فكان: {احتوى المشروع ثلاث مراحل. المرحلة الأولى استغرقت يومين، والمرحلة الثانية استغرقت أربعة أيام، والمرحلة الثالثة استغرقت يومين}. وهنا ربما يكون فهمنا للنص الثاني أنَّ بناء المشروع استغرق 8 أيام، وبالتالي فإن فهمنا للنص الثاني يتعارض مع فهمنا للنص الأول. ولكن لا يوجد خلاف صريح بين النصين. ويُمكن حل هذا التعارض بالقول إن المرحلة الثانية والثالثة كانت بالتوازي، وبالتالي فإن المشروع استغرق 6 أيام فقط.

وهنا النقطة .... الخلاف في "تناقض النصوص" أكثر وضوحا وثباتا من الخلاف في "تعارض الأفهام".

وبالطبع قد يكون الادعاء بوجود "تناقض نصوص" بين النَّصين خاطئا وذلك للخطأ في فهم النصوص؛ ففي المثال الأول: إذا كان النص الأول لمشروع والنص الثاني لمشروع آخر، فإن الادعاء بوجود التناقض يكون خاطئا وذلك للفهم الخاطئ للنَّصين.

وكذلك قد يصل "تعارض الأفهام" إلى مستوى التناقض؛ ففي المثال الثاني هنا، إذا كان النص الثاني يقول: {احتوى المشروع ثلاث مراحل. المرحلة الأولى استغرقت يومين وبعدها بدأت المرحلة الثانية واستغرقت أربعة أيام، وبعدها بدأت المرحلة الثالثة واستغرقت يومين}. فإن التحليل المنطقي يدل أنه لا يمكن لهذا المشروع إلا أن يكون 8 أيام أو أكثر. وبالتالي فإن تعارض الأفهام هنا قد وصل إلى مستوى التناقض.

ولكن لنرجع إلى النص الأصلي: {المشروع احتوى ثلاثة مراحل. المرحلة الأولى استغرقت يومين، والمرحلة الثانية استغرقت أربعة أيام، والمرحلة الثالثة استغرقت يومين}. وهنا فإنه من الممكن للقارئ أن يستعجل الاستنتاج ويظن أن هذه العبارة لا يمكنها إلا أن تكون 8 أيام.

وهذا هو السبب الذي فَرَّقنا فيه بين تناقض النصوص وتعارض الأفهام؛ حيث إن الخلاف في التناقض أكثر وضوحا وثباتا من الخلاف في التعارض.

ونستطيع القول وبثقة أنه لا يوجد "تناقض نصوص" بين آيتين في القرآن. فمثلا يوجد الكثير من التناقضات الصريحة في النصوص في الكتب المقدسة لليهود والمسيحيين، ولكن لا يوجد تناقض صريح في القرآن بين آيتين فيه، وإنما قد توجد بعض التعارضات، وهي متعلقة في فهمنا للنصوص: فربما يكون فهمنا للنص الأول متعارض مع فهمنا للنص الثاني. وربما يكون فهمنا للنَّص متعارض مع فهمنا للنظرية العلمية، وربما يكون فهمنا لنص متعارض مع فهمنا للنصوص التاريخية.

وهذه هي النقطة هنا ... توجد "تناقضات نصوص" في الكتب اليهودية والمسيحية (كما توجد كذلك التعارضات فيها)، ولكن لا يوجد "تناقض نصوص" في آيات القرآن، وإنما قد يوجد فيها التعارضات في الأفهام. وقد تم معالجة الكثير من هذه التعارضات كما سنشرح لاحقا في هذا الكتاب.

ومن الممكن تسمية "تعارض الأفهام" بـ "تناقض الأفهام" (Understanding Contradiction)، وذلك مُشاكَلَة لـ "تناقض النصوص"، ولكنَّنا نرى الاسم الأول أكثر دقة وأقل ارتباكا.

وما سبق هي المبادئ الستة الرئيسية والتي يمكننا استخدامها في الرد على الكثير من الشُّبهات للملحدين والمستشرقين كما سنوضح ذلك في الفصل التالي.

الفصل الثاني – المسائل

وهنا سنضع بعض المسائل الرئيسية لشبهات الملحدين والمستشرقين، وسيكون الرد لمعظمها من خلال مبادئ الفصل الأول، وهناك بعض المسائل التي تحتاج إلى ردود خاصة.

2.1# إثبات وجود الخالق:

هناك أمور قليلة في هذه الحياة التي يُمكن إثباتها بشكل قطعي. وأما باقي الأمور (مثل مجالات الإدارة والإستراتيجية والتخطيط والعمل والتنفيذ) فإنه يتم التعامل معها ضمن غلبة الظن وغلبة التخمين.

ويكون الإنسان في هذه المجالات مسؤولًا بحدود علمه وإمكانياته، وأما خارج هذه الحدود فهو غير مسؤول. وهذا الأمر واضح في مجالات الإدارة والأعمال والمجتمع والدولة؛ فالموظف الذي تتم معاقبته بسبب الإهمال فإن هذه العقوبة جاءت بسبب قيام الموظف باختيار تصرف مخالف لحدود علمه وإمكانياته.

ولتوضيح الفكرة السابقة فلنفترض أن هناك مادة غلب الظن أنها سامة وقام الرجل بتناولها. الآن... إذا تسببت هذه المادة بالضرر على الرجل فلا يلومن إلا نفسه، وإذا لم يتضرر فهو محظوظ ولكنه بالتأكيد غير ممدوح، وفي المقابل فإننا نقوم بشراء الفواكه والخضار والسمك ونتناولها، وضمن غلبة الظن فإن هذه المواد لا تَضُرنا، ولكن في حقيقة الأمر فإننا لا نعرف بالضبط كيف تم صيد السمك وكيف تم رش الفواكه والخضار، ولهذا السبب فإن نحن تضررنا منها فنحن غير ملومين ولا يقوم أحد بانتقادنا، وهذا هو المقصود أن الإنسان مسؤول بحدود علمه وإمكانياته.

وبالنسبة الى الإثباتات القطعية فإن أكثر مجالاته هو الرياضيات، ولكن هذا المجال يعتمد على البديهيات التي لا إثبات لها. وإذا تم الاتفاق على البديهيات فمن الممكن إثبات أي شيء، وأما إذا كان الخلاف في البديهيات فإن الإثبات نفسه لا يتحقق.

وكذلك في موضوع الخالق: فإذا تم الاتفاق على البديهيات فإن الإثبات القطعي لوجود الخالق موجود، ولكن إذا كان هناك نقاش وخلاف في البديهيات فإن هذا يُؤثر في الإثباتات القطعية.

ولهذا السبب فإن المؤلف يُفضل الإثباتات العلمية؛ لأنها لا تعتمد على البديهيات وإنما على الاختبارات، ولكن انتبه هنا أن الإثباتات العلمية لا تضع إفحامًا وإنما تضع غلبة الظن.

والاختبارات العلمية متعددة: فمنها التجارب المخبرية ومنها الاختبارات الإحصائية. وهذه الأخيرة هي التي سيتم استخدامها في هذه المقالة.

ولكن من الضروري قبل استخدام الاختبارات الإحصائية الإلمام بنظرية الاحتمالات ومفهوم الاحتمالية:

عندما يكون عندك عملة وتقوم بِفَنِّها (أي رميها عشوائيًا) وتَسقط الى الأرض فإن الاحتمالات هي أن تكون ظاهر العملة صورة أو كتابة، وهذا معناه أن احتمالية ظهور الصورة هو نِصْف (0.5).

في المقابل إذا كانت العملة مغشوشة وكان وجهاها هو صورة فإن احتمالية ظهور الصورة هو واحد (1)، أي أن ظهور الصورة هو أمر قطعي.

الآن ما المعنى العملي أن احتمالية ظهور الصورة في العملة هي 0.5؟

المعنى هو أنك إذا قمت بِفَنِّ العملة 1000 مرة فستجد أن هناك عدد قريب من 500 من المرات والتي كان ظاهر العملة صورة.

دعونا الآن نشرح المقصود بغلبة الظن:

عندما يقول لك شخص إن فلانا قد قام بفن العملة 20 مرة وفي كل مرة ظهرت صورة، وأنه قد قام بهذا الأمر دون غش وإنما هو الحظ، فما هو موقف القارئ من هذه القصة؟

بالنسبة الى المؤلف فإنه على يقين أن الأمر كان غشًّا وأنه لا يمكن أن يكون للحظ أية علاقة بالموضوع.

لماذا؟

لأن احتمالية قيام شخص بفن العملة 20 مرة دون أي غش وأن تكون في كل مرة صورة هو: 0.5 للقوة (20) وتساوي 0.00000095، وهذا معناه أن الشخص إذا قام بالتجربة مليون مرة فإنه يمكن أن ينجح في مرة واحدة فقط.

وإذا انتبه القارئ فإنه ليس مستحيلًا (ضمن النظرة الرياضية) قيام شخص بالعملية السابقة دون غش، ولكن من النظرة العَمَلِيَّةِ للأمور فإن هذا مستحيل، وهذا هو المقصود بغلبة الظن العالية.

والاقتراح في إثبات وجود الخالق يتضمن النظر الى الفرضيات التالية:

1. الفرضية الأساسية: وهو أن هذا الكون قد تم تنظيمه عن طريق الصدفة.
2. الفرضية البديلة: وهو أن هذا الكون قد تم تنظيمه بقوة خارجية.

والهدف الآن هو معرفة احتمالية الصدفة في تنظيم هذا الكون. ولمعرفة هذه الاحتمالية فإن علينا أن ندرسه:

والكون عبارة عن أنظمة مستقلة ولكنها متضافرة، فالحياة كي تتحقق في الأرض كان لا بد للأرض والنظام الشمسي من أن يتصف بمقادير معينة، فالأرض لو كانت أقرب إلى الشمس لما كان هناك حياة، ولو كانت أبعد لما كان هناك حياة، ولو لم يكن هناك كوكب كبير كالمشتري يحرف المذنبات والنيازك عن الأرض لتعرضت الأرض لضربات كبيرة قاضية من النيازك، كما أن الحياة تعتمد على الأوكسوجين والماء، ولو لم يكن هناك نظام

لتواجدهما باستمرار على الأرض لما كان هناك حياة، وكذلك الإنسان فقد اقترن وجوده بتضافر أنظمة مستقلة فيه كالنظام الهضمي والعضلي والعصبي وغيرها.

وبالطبع ليس من السهل القيام بحساب الصدفة في تكوين هذا الكون ولكن من الممكن عمل اختبار مُؤشر: لنفترض أن هناك عشرة أشخاص يقومون بفن العملة كل خمس دقائق ولمدة ساعة، وفي كل مرة يكون ظاهر العملات هو صورة، والسؤال هنا: ما هي احتمالية أن تكون الصدفة هي السبب في نجاح هذا النظام؟

والنظام السابق يتكون من عشرة أنظمة مستقلة تتشارك فيما بينها لتحقيق نتيجة وهي ظهور العملة صورة في كل مرة، وبالطبع فإن تشابك الكون هو أضخم بكثير من هذا النظام، فالكون يتكون من ملايين الأنظمة المستقلة والتي تتشارك منذ بلايين السنين في تنظيم هذا الكون، ولهذا السبب فإن احتمالية الصدفة في نظام العملة يبقى أكبر بكثير جدًا من احتمالية الصدفة في نظام الكون، وهذا هو السبب في تسمية الاختبار بـ "الاختبار المُؤشر".

واحتمالية الصدفة في نظام العملة هو 7 ضرب (10 للقوة −37). أي فاصلة ويمينها 36 صفرًا ثم سبعة، واحتمالية الصدفة في نظام الكون هو أقل من ذلك بكثير.

الآن... بالنسبة الى المؤلف فإن الفرضية السابقة هي غير معقولة ولهذا السبب فإن المؤلف لا يقبل أن تكون الصدفة هي السبب في نظام الكون مما يَجعله يُؤمن بالفرضية البديلة. على أية حال فإن الرجل الذي يقبل احتمالية الصدفة لنظام الكون هو شخص له كامل الحرية، وهنا نظرة المؤلف أن الإنسان في النهاية مسؤول بحدود علمه وإمكانياته.

وقد وضعنا في الملحق الأول الطرق المنطقية الأخرى التي يتم استخدامها في إثبات وجود الخالق، كما تَعَرَّضنا في الملحق الثالث للشُّبهات في الفيزياء الكمية والتي يستخدمها البعض في رفض وجود الخالق.

2.2# إثبات الرسالة المحمدية:

وهنا سنستخدم الأسلوب الإحصائي السابق في إثبات صحة الرسالة المحمدية، وسنبدأ بالفرضيات:

1. الفرضية الأساسية: إنجازات محمد (عليه السلام) هي إنجازات متفوقة ولكنها ضمن قدرة وطبيعة الإنسان.
2. الفرضية البديلة: إنجازات محمد هي إنجازات خارجة عن قدرة الإنسان وطبيعته، وبالتالي فهذه الإنجازات قد تحققت بمساعدة وتدبير من خارج الكون.

الملاحظات:

هناك آلاف السنين من التاريخ المسجل، وخلال هذه المدة عاش في الأرض الملايين والملايين من البشر، وضمن ملاحظات التاريخ، فإنه ما من أحد تفوق في مهارة إلا وكان له شبيه في تفوقه ومهارته، وما من أحد عمل عملًا إلَّا واستطاع أحد آخر أن يعمل شيئًا شبيهًا له أو يتفوق عليه.

مثال ذلك إذا نظرنا الى الإنجازات العسكرية، فيمكن أن نقول إن الإسكندر هو أكثر القادة العسكريين إنجازًا ومهارة، ولكن هناك من يشبهونه في إنجازاته ومهاراته: فكورش، وجنكيزخان، وأتيلا، ويوليوس قيصر، وغيرهم يشبهون الإسكندر في مهاراته وإنجازاته، ويمكن القول إن الإسكندر يتفوق عليهم ولكن الآخرين قريبون منه. ومن الممكن كذلك أن نقول إن آنشتاين هو أكثر العلماء الفيزيائيين إنجازًا ومهارة، ولكن إذا نظرنا لوجدنا أن هناك الكثير من يشبهه في إنجازاته ومهاراته: فأرخميدس، وفيثاغوروس، وجاليليو، ونيوتن، وغيرهم إن لم يتفوقوا عليه فإنهم قريبون من درجة إنجازاته ومهاراته. وهذا ينطبق على كل الإنجازات الإنسانية كالموسيقى والأدب والرسم والإنشاء والهندسة وغيرها.

والملاحظة هنا أن أي إنسان له مهارات ووصل الى إنجازات فإن المجتمع الإنساني لا يُمكنه إلا أن يأتي بإنسان آخر تكون مهاراته وإنجازاته قريبة أو متفوقة من إنجازات ومهارات الأول.

ويمكن إثبات هذه الملاحظة باستعراض التاريخ وبأسلوب إحصائي.

وبالتالي فإن القول الفصل في الاستدلال هنا هو إذا كان هناك شبيه لإنجازات محمد فعندها تكون إنجازاته ضمن قدرة وطبيعة الإنسان. وأما إذا ثبت أنه ليس له شبيه في إنجازاته فغلبة الظن عندها أن إنجازاته ليست ضمن قدرة وطبيعة الإنسان، وأن إنجازاته هي حالة فريدة في التاريخ المكتوب من البشرية.

الآن ..... ما هي إنجازات محمد:

1. لقد أقام ديانة، وهذه الديانة ما زالت قائمة وتنمو باضطراد.
2. لقد أقام مبدأً تتبني عليه الأنظمة والقوانين والأفكار، وفي العالم الآن ثلاثة مبادئ واضحة: الرأسمالية، والشيوعية، والإسلام.
3. لقد وضع الأنظمة والقوانين التي تعالج مشاكل الفرد والمجتمع والدولة.
4. لقد أقام دولة والتي استطاعت خلال 15 سنة (10 سنوات في حياة محمد، وخمس سنوات بعدها) أن تُسيطر على المنطقة الرئيسية في الشرق الأوسط. وهذا التمدد كان سريعا وغير مسبوق وخصوصا من أمة (العرب) لم يكن لديهم أي خبرة سابقة في إدارة الإمبراطوريات. وهذه نقطة مهمة: فالعرب عموما وأهل الحجاز خصوصا لم يكن لديهم وحدة ولا دولة مركزية ولا خبرة في إدارة الإمبراطوريات ومنذ 6000 سنة (على الأقل) قبل الإسلام، واستطاع المسلمون في هذه المنطقة السيطرة على الجزيرة العربية ومن ثم السيطرة على المنطقة الرئيسية في الشرق الأوسط (العراق والشام ومصر) وخلال 15 سنة من بدء الدولة، وهذا عمل غير مسبوق على الإطلاق.
5. لقد أقام أمة وما زالت بكيانها ووجودها.
6. لقد تحققت هذه الإنجازات في حياته.
7. ولقد مات عزيزًا في قومه.

أما مهارات محمد فقد مات محمد وعنده مهارات عديدة قوية، ولكن هذه المهارات قد ظهرت فجأة ودون إنذار؛ فقد عاش حياة هادئة مدة أربعين سنة، ولم يذهب الى الجامعات ليدرس مهارات الإدارة والقيادة، ولم يقرأ عن تاريخ القادة ومهاراتهم وأخطائهم، بل كان أُميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يأخذ أية مسؤولية قيادية أو إدارية كي يأخذ منها الخبرة، وإنما كانت حياته هادئة ولم يشتهر عنه إلا أنه صادق وأمين، ولو أنه مات قبل البعثة لما ذكره أحد في التاريخ، ثُمَّ جاءت البعثة وظهرت عليه المهارات فجأة ودون إنذار ولم تمر ثلاث وعشرون سنة إلا والعالم غير العالم والناس غير الناس.

الاختبار:

من في التاريخ يُشبه محمدًا في إنجازاته والتي تحددت بالديانة، والمبدأ، والأنظمة والقوانين، والدولة، والأمة، وتحقيق الإنجازات في حياته، والموت عزيزًا في قومه؟

وإذا نظرنا بعمق شديد في التاريخ فسنجد النتيجة هي صفر، وإنما أقرب رجل لإنجازات النبي محمد هو النبي موسى: فلقد أنشأ ديانة، وضع أنظمة وقوانين، وأنشأ أمة، ولكنه لم يتمكن من إقامة الدولة ومات وحيدًا مفارقًا لقومه.

وهنا نأتي لنتيجة الاختبار: وهي أنه ما من أحد في التاريخ المنظور قد أنشأ ديانة وأقام مبدأً ووضع الأنظمة والقوانين وأقام دولة وأقام أمة وتحققت إنجازاته في حياته ومات عزيزًا وما زالت إنجازاته قائمة إلَّا مُحمدًا.

الآن ... هل هذا الإثبات قطعي؟؟

بالتأكيد لا، فهذا الإثبات هو غلبة ظن حيث إنه يعتمد على الاستدلال الإحصائي، والاستدلالات الإحصائية هي دائمًا ظنية.

ولكن الاستدلال السابق كافٍ ومريح للمؤلف، بمعنى آخر فإنه فيما يَخُصُّ المؤلف فإذا سأله شخص عن السبب الذي يجعله مُقتنعًا بالرسالة المحمدية فإن جواب المؤلف يكون الاستدلال السابق.

وهنا النقطة ... نحن لسنا بحاجة أن نقوم بإفحام الناس، ولسنا بحاجة للبحث عن الإثباتات المفحمة الخارقة المُبهتة، وإنما نحن بحاجة فقط (ولأنفسنا بالدرجة الأولى) إلى إثبات كافٍ ومريح مبني على قواعد عقلية مُعتمدة وسليمة.

2.3# صفات الخالق:

وهذا الموضوع قد أخذ جهدا ووقتا ضخما جدا من الفلاسفة اليونانيين والفلاسفة المسلمين، وقد أخطئوا فيه خطئا كبيرا؛ وذلك لأنهم حاولوا أن يُطبقوا بديهيات وقوانين الكون لمعرفة الصفات الذاتية لله. وكما ذكرنا سابقا فإن نظام ما وراء الكون (مثل صفات الخالق والبعث والآخرة والنار إلخ) لا يتوافق بالضرورة مع نظام الكون، بل إن

هناك أمورا في الكون ما زالت غامضة جدا ولا نستطيع حتى اللحظة تَخَيُّلها (مثل النظرية النسبية والفيزياء الكمية والثقوب السوداء والمادة المظلمة والبعد الرابع ونظرية الأوتار إلخ)، فما بالكم فيما يتعلق بما وراء الكون!

ولهذا السبب فإننا لا نستطيع أن نستنتج الأنظمة التي تتعلق بما وراء الكون ولا نستطيع أن نستنتج الصفات الذاتية للخالق إلا من جهة خارجة عن الكون. وبالتالي فإن كل الذي نستطيع أن نعرفه عن صفات الخالق هو ما ذكره الخالق في كتابه. وأما الاستنتاجات الفلسفية لهذه الصفات فهي ليست بالضرورة صحيحة لأنها تعتمد على منهجية خاطئة: وهي تطبيق قواعد وبديهيات الكون على ما هو خارج الكون.

وسنعتمد في هذا الكتاب على بعض الأدلة الفلسفية ولكن هذه الأدلة تكون تأييدا للنَّقل (أي تأييدا للآيات القرآنية) وليس بديلا عنه، والهدف منها توضيح الفكرة الموجودة في النقل. والسبب في ذلك هو ما ذكرناه أن الأدلة الفلسفية المتعلقة بالكون لا تتفق بالضرورة مع قواعد ما وراء الكون، وبالتالي فإن الأساس في الإستدلال هو ما ثَبَتَ لدينا من معلومات جاءت من "خارج هذا الكون" (أي المعلومات الغيبية الصريحة في القرآن).

2.4# سيناريو المختبر:

لنفترض أن شخصا ملحدا أخذ يتساءل كما في السيناريو التالي:

إنَّ علماء الأحياء يقومون بالتجارب على الكثير من الحيوانات ولعدة أجيال متلاحقة، فلماذا لا يكون الكون مختبرا لـ "رب إبراهيم" وأنه يُجَرِّبُ علينا. وأن الخالق الأكبر ليس هو "رب إبراهيم" وإنما الإله الذي خلق "رب إبراهيم". أليس هذا السيناريو ممكنا؟

هذا التساؤل يُمَثِّل الكثير من السيناريوهات المشابهة والتي زادت مع الأفلام الخيالية لهوليوود. وهذه السيناريوهات لا تنتهي. والذي يَضعها لا يحاول المناقشة وإنما يهدف إلى "تحطيم الفكرة من خلال الفكرة نفسها"، أي أنه يحاول تحطيم الديانات السماوية من خلال تلك الديانات وعن طريق التشكيك فيها.

كذلك فإن كلمة ممكن خادعة؛ إذ إننا نستطيع أن نقول عن الحدث الضئيل الاحتمال أنه ممكن، والسؤال الأصح هو: ما احتمالية حدوث ذلك؟

فمثلا لنفترض شخصا سأل عن السيناريو التالي: لماذا لا يكون موسى (نبي بني إسرائيل) قد شعر بالاكتئاب في آخر حياته وإذا به يُقْدِم على الانتحار. أليس هذا ممكنا؟

وسيناريو آخر: لماذا لا يكون جون كيندي (رئيس أمريكا) عميلا لـ "جمال عبد الناصر"، وأن عبد الناصر كان يتحكم بأمريكا من خلاله، وأنَّ هذا هو السبب الذي أدى لقيام المخابرات الأمريكية باغتيال كينيدي. أليس هذا ممكنا؟

فكيف نُجيب على مثل هذه السيناريوهات؟

وهذه السيناريوهات لا يتم الإجابة عليها بما يضع القيمة لها (لأنها تدعو للتشكيك دون وجود القرائن لذلك)، وإنما الإجابة عليها تكون بالعموم: لا يوجد لدينا أية معلومات تُفيد بأن موسى عليه السلام قد تعرض للاكتئاب. ولا توجد لدينا معلومات تفيد أن جون كينيدي كان عميلا لعبد الناصر.

وعلى مثل ذلك يتم الإجابة لسيناريو المختبر. وإذا أردنا الاستفاضة فإن الإجابة تعتمد على المبدأ الأول والثالث في الفصل الأول كما في الشرح التالي:

نحن مسؤولون ضمن حدود قُدراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا، وخارج هذه الحدود فنحن غير مسؤولين ولا محاسبين. وضمن قدراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا فقد تبين لنا (نحن المسلمين) أن الكون لا يمكنه أن يكون قد تَنَظَّم بالصدفة، فاستنتجنا أن هناك خالقا لهذا الكون (راجع 2.1). ثم ثبت لدينا أن إنجازات محمد لا يمكنها أن تكون ضمن القدرات الطبيعية للإنسان (راجع 2.2)، وأن القرآن لا يمكنه أن يكون من نتاج البشر (راجع الفصل الرابع) فثبت لدينا أنَّ محمدا هو رسول الخالق، وأنَّ القرآن هو كتاب الخالق.

ولهذا فإن إيماننا بأن خالق الكون هو "رب إبراهيم" قد جاء بناء على معطيات واضحة. وأي تعديل على ذلك بحاجة إلى معطيات أخرى بنفس الوضوح. والسيناريو السابق لا يُمَثِّل معطيات واضحة وإنما يمثل تشكيكا بلا قرائن.

الآن ... هل هذا الجواب مفحم للملحدين والمستشرقين؟

ربما لا. ولكن ليس الهدف هنا تقديم الجواب المفحم، وإنما الهدف هنا هو تقديم الجواب الواضح المريح (لأنفسنا على الأقل) والمبني على منهجية ثابتة.

2.5# هل يستطيع:

لنفترض أحد الملحدين قد سأل: أنتم تقولون إن الخالق قادر على كل شيء، فهل الخالق قادر أن يخلق كائنا أقوى منه؟

وهذا السؤال كان يضعه الكثير من الملحدين قديما، وهو لا يُقدم أية قرائن للمناقشة وإنما يُحاول تحطيم الفكرة من داخلها. والطريقة المنطقية التي يستخدمونها هو تقديم السيناريو بحيث يظهر التناقض في أي جواب له: فإذا أجبنا "نعم"، فهذا يعني أن الخالق محدود القوة (لأنه خلق كائنا أقوى منه)، وإذا أجبنا "لا"، فهذا يعني أن الخالق ليس "على كل شيء قدير".

وربما لا نستطيع الإجابة على هذا السؤال، وقد ذكرنا في الفصل الأول أن هناك بعض الأسئلة التي تكون متناقضة ولا يمكن الإجابة عليها بشكل مباشر، وعلى أية حال فإن عدم قُدرتنا على الإجابة لا تعني بالضرورة أن رأينا خاطئ ولا تعني بالضرورة أن رأينا صحيح، وإنما قد تعني أنه لا توجد لدينا المعلومات الكافية للإجابة أو أن السؤال نفسه فيه تناقض. وأما صحة الرأي فتعتمد على الأدلة المتوفرة له: فإذا كانت الأدلة يقينية فالرأي يقيني، وإذا كانت الأدلة ظنية فالرأي ظني، وإذا كانت الأدلة تخمينية فالرأي تخميني، وإذا كانت الأدلة ضعيفة فالرأي ضعيف.

وهنا نرجع إلى المبدأ الأول والذي استخدمناه في سيناريو المختبر: فضمن قدراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا فقد ثبت لدينا (نحن المسلمين) أن هناك خالقا لهذا الكون، وأنَّ محمدا هو رسول الخالق، وأن القرآن هو كتاب الخالق. وقد ذكر الخالق في كتابه أنه "على كل شيء قدير" وبالتالي فإن مسؤوليتنا تقتضي تصديق ذلك.

وهذا يتوافق مع الأدلة الفلسفية في هذا الخصوص (مع التنبيه أن الأدلة الفلسفية تكون في الدرجة الثانية للأدلة النقلية كما شرحنا في الباب 2.3): فقد ثبت أنه لا يُمكن للخالق أن يكون له بداية وإلا دخلنا في سلسلة لا نهائية من خالق ومخلوق (راجع المبدأ الثاني في الفصل الأول). وكذلك لا يمكن للخالق أن يكون محدودا وإلا فإن هناك من وَضَعَ هذه الحدود وهنا كذلك ندخل في سلسلة لا نهائية من خالق ومخلوق.

ولكن الدليل الرئيسي لنا هو النص الذي جاء من خارج الكون (أي من الخالق) أنه "على كل شيء قدير".

وهنا نسأل مرة أخرى ... هل هذا الجواب مفحم للملحدين؟

ربما لا. ولكن كما قلنا فنحن هنا لا نهدف لتقديم الجواب المفحم، وإنما لتقديم الجواب الواضح المريح (لأنفسنا على الأقل) والمبني على منهجية ثابتة.

وما سبق هو الجواب العام لمثل هذه الأسئلة، ولكننا سندخل هنا إلى بعض التفاصيل:

ذكرنا في الفصل الأول (1.3) أنَّ هناك بعض الأسئلة التي قد تحوي التناقضات الخفية في ثناياها، والكثير من أسئلة الملحدين (المتعلقة بـ هل يستطيع) فيها هذه التناقضات، ومثال ذلك السؤال: "هل يستطيع الخالق أن يخلق كائنا أقوى منه" فإنَّ السائل يفترض ابتداءً أن الخالق محدود القوة. وكذلك السؤال: "هل يستطيع الخالق أن يُخرج الأشياء خارجا عن سلطانه" فإنَّ السائل يفترض ابتداءً وجود مكان خارج عن سلطان الخالق. وكذلك السؤال: "الخالق ليس له بداية، فهل يستطيع الخالق أن يخلق شيئا آخر ليس له بداية" فإن السائل يفترض ابتداء أنه يُمكن للمخلوق أن يكون بلا بداية. وكل ما سبق هي أسئلة تحوي التناقضات في ثناياها.

وكذلك السؤال: "هل عند الخالق القدرة أن يكون أحمقا غبيا منافقا كاذبا" وهو سؤال فيه التناقض؛ إذ إن السؤال يتفترض (بطريقة صياغته) أن الحماقة هي قوة ومقدرة واعجاز. وهذا غير صحيح، إذ إن الحماقة والغباء والنفاق والكذب هي صفات ضعف وليست صفات قوة. وصياغة هذا السؤال هي مجازية، وإذا أردنا الدقة في الصياغة فإن السؤال يكون: هل يُمكن للخالق أن يكون أحمقا؟ والجواب هو بالتأكيد "لا". ومن الواضح أن هذا الجواب لا يضع القيد في قدرة الخالق وإنما يُؤكد أن الخالق لا يُمكن أن يكون ضعيفا.

وما سبق يتوافق مع قوله تعالى: "مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ" (مريم – 35). وقوله تعالى: "وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا" (مريم – 92). والآيتان لا تضعان قيودا على قدرة الخالق، وإنما هي تنزيه للخالق من صفات الضعف والحاجات والغرائز البشرية.

وما سبق قد صاغه "أحمد ديدات" (المرجع: Deedat-1, 1:33:30) بالقول (تصرفا) إن الخالق لا يُمكنه أن يتصف بالصفات غير الإلهية، وهذا ليس قيدا للقدرة وإنما تنزيه عن الضعف.

ولكنَّ غلبة الظن أن أفضل الأجوبة هو الجواب الأول: عدم قُدرتنا على الإجابة لا تعني بالضرورة أن رأينا خاطئ ولا تعني بالضرورة أن رأينا صحيح، وإنما قد تعني أنه لا توجد لدينا المعلومات الكافية للإجابة أو أن السؤال يحوي التناقضات في ثناياه.

2.6# لماذا صادق:

لنفترض أن أحد الملحدين قد سأل: لنفترض وجود "رب إبراهيم" وأنه خالق الكون وأن القرآن هو كتابه. فما الدليل أنه صادق، ولماذا لا تفترضون أنه لم يكن صادقا في بعض الأمور؟

وهذه أسئلة تشكيك دون وجود أية قرينة، وإنما هناك شبهة ربط بين "رب إبراهيم" وبين زعماء الدول في عدم الصدق.

ونستطيع وضع أمثلة توضيحية لفساد المنطقية في مثل هذه الأسئلة: لماذا لا تصدقون أن جون كينيدي ما زال حيا يُرزق في أحد السجون الأمريكية؟

ولماذا لا تصدقون أن دونالد ترامب الحقيقي قد مات قبل سنة وأن الذي نراه هو شبيه له قد تم هندسته في المختبرات الروسية ومن ثم تم زرعه في أمريكا؟

ونستطيع وضع الكثير من الأمثلة على هذا المنوال. والنقطة هنا أن مثل هذه الأسئلة ليس لها قيمة وإنما يتم استخدامها من أجل المجادلة البحتة.

وللإجابة المباشرة على الشبهة السابقة فإننا نستخدم المبدأ الأول (في الفصل الأول):

مسؤوليتنا تكون ضمن حدود قدراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا، وأما خارج هذه الحدود فنحن غير مسؤولين ولا محاسبين عنها. وضمن قدراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا فقد ثبت لدينا (نحن المسلمين) أن هناك خالقا لهذا الكون، وأنَّ محمدا هو رسول الخالق، وأن القرآن هو كتاب الخالق،، وبالتالي فإن مسؤوليتنا تتطلب التسليم بما جاء في القرآن.

ونستطيع أن نضع دليلا فلسفيا يُساند ما سبق وهو أن القويَّ لا يكذب لأنه ليس بحاجة للكذب، وإنما الذي يكذب هو الضعيف.

ولكن يبقى الجواب الأساس أنَّ مسؤوليتنا (ضمن قدراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا) تتطلب التسليم أن القرآن هو كتاب الخالق لهذا الكون، وبالتالي فإن علينا اعتماده واتباعه والتصديق به.

2.7# أزلية الكون:

هناك بعض الفلاسفة اليونان والمسلمين قد اقترحوا فكرة أن الخالق أزلي وأن الكون كذلك أزلي. وأن الخالق كان هو المهندس الذي رتب الكون بالطريقة التي أرادها من المواد الأزلية الموجودة في الكون.

والرد على ما سبق يكون باستخدام المبدأ الأول والثاني في الفصل الأول: لا يمكن استخدام قواعد وبديهيات الكون في استنتاج القواعد لما وراء الكون، وأي قواعد تتعلق بما وراء الكون فإنها يجب أن تأتينا من جهة خارجة عن الكون، وضمن قدراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا فقد ثبت لدينا (نحن المسلمين) أن هناك خالقا لهذا الكون، وأنَّ محمدا هو رسول الخالق، وأن القرآن هو كتاب الخالق. وضمن ما قاله تعالى في كتابه: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" (82–يس)، فإننا نستطيع أن نعمم المعنى في هذه الآية ونقول إن الله قادر أن يَفْني المادة إلى العدم وأن يوجِدَها من العدم.

وأي أمر خلاف ذلك التعميم فإنه يحتاج إلى دليل من جهة خارجة عن الكون، وهذا لا يُمكننا أن نحصل عليه إلا إذا سألنا الله عن ذلك يوم الدِّين. وما سبق ليس جواب سخرية على الإطلاق؛ فإنَّ أي تساؤل عن أمر يتعلق بما وراء الكون وليس مذكورا في القرآن فإنَّ الوحيد القادر على إجابتنا عليه هو الله، ونحن لا نستطيع أن نسأل الله بشكل مباشر عن شيء إلا يوم الدين.

2.8# لماذا الشقاء في العالم:

لنفترض أن ملحدا قد سأل: إذا كان هناك رب وخالق لهذا العالم فكيف يرضى بهذا العذاب والشقاء فيه؟ وليس فقط شقاء البشر وإنما كذلك شقاء الحيوانات: فكم من أم رأت رضيعها تختطفه الحيوانات المفترسة وتأكله حيا أمام أعينها. فكيف يرضى الخالق بهذا العذاب والشقاء في الكون؟

وانتبه أن ما سبق ليس منطقا مترابطا كما في الشكل الأرسطي التالي:

- لو كان هناك خالق لما تعرضت الكائنات الحية للشقاء.
- الكائنات الحية تتعرض للشقاء.
- إذن لا يوجد خالق لهذا الكون.

ولكن الحد الأول ليس له إثبات في هذا المنطق، وإنما هي نظرة مشاعرية للموضوع. وربما لا نستطيع أن نُفَسِّرَ سبب الشقاء في العالم ولا سبب الشقاء عند الكائنات الحية الأخرى. ولكن إذا لم نستطع تقديم الجواب فهذا لا يعني أن رأينا خاطئ أو صحيح وإنما قد يعني أنه لا توجد لدينا معلومات كافية للإجابة. وأما صحة الرأي فتعتمد على الأدلة المتوفرة له.

وهنا نرجع إلى المبدأ الأول: فضمن قدراتنا والمعلومات المتوفرة لدينا فقد ثبت لدينا (نحن المسلمين) أن هناك خالقا لهذا الكون، وان محمدا هو رسول الخالق، وأن القرآن هو كتاب الخالق. وبالتالي فإن مسؤوليتنا (نحن المسلمين) تتطلب الإيمان بوجود الخالق واتباع أوامره حتى وإن لم نستطع تفسير الأمور في هذا الكون.

2.9# لماذا أنتم في ضعف:

لنفترض أن المستشرقين قد سألونا: إذا كان محمد هو رسول الله وكان القرآن هو كتاب الله وكان الإسلام هو دين الله ... فماذا تَرَكَكُم ضعفاء مستضعفين لا حول لكم ولا قوة في هذا العالم؟ ولماذا لا يأت ويُساندكم؟

وهذا السؤال يُمكن عليه الإجابة عليه (بشكل عمومي) من خلال المبدأ الأول والثالث (في الفصل الأول) أو نقوم بتقديم إجابات تفصيلية.

وأما الجواب العمومي فهو: عدم معرفتنا عن سبب ترك الله لنا لا يعني أن رأينا في الإسلام خاطئ أو صحيح، وإنما يعني أننا غير قادرين على الإجابة. وأما رأينا في الإسلام فإنَّ الذي يُثْبته أو يَنفيه هو الأدلة المتعلقة به. ومسؤولياتنا (كما شرحناها في البنود السابقة) تقتضي منا (نحن المسلمين) أن نؤمن بالإسلام الذي اختاره الخالق لنا؛ وذلك لاقتناعنا أن الأدلة المتوفرة لدينا هي أدلة منطقية مبنية على منهج سليم وتدل بشكل واضح (لنا على الأقل) أن محمدا هو رسول الخالق وأن القرآن هو كتاب الخالق.

وأما التفصيل في الجواب: فإن الدول والحضارات في التاريخ تَقْوى وتَضْعف لأسباب مختلفة، بل إن بعضها ينتهي ويموت. والكثير من الحضارات قد ماتت، ولكننا (على ضَعْفِنا الحالي) لم نمت، بل على العكس تماما فإننا نزداد قوة فوق قوة يوما بعد يوم.

2.10# هل نُقِلَ الإسلام مشافهة:

هناك عدة اِدِّعاءات من مستشرقين أن الأحاديث الشريفة (والقرآن) قد تم نقلها مشافهة وبالتالي فهذه الأحاديث غير معتبرة. وبعض هؤلاء المستشرقين يحملون الشهادات العالية في دراسة التاريخ، وقولهم هذا فيه عدم المصداقية في التحليل وعدم الأمانة الاحترافية. وسننظر إلى هذا الموضوع من زاويتين: الزاوية العامة والزاوية الخاصة، مع التنبيه أن هذا الموضوع قد نقلناه من كتاب سابق ("تحليل الأدلة والقرائن").

الزاوية العامة:

المعظم الأعظم من معلوماتنا التاريخية للحضارات السابقة هي معلومات ظنية وتخمينية، وقد وصلت إلينا عن طريق المشافهة إلى أن تم تسجيلها. وكثير جدا من الوثائق المسجلة (من كتب ونقوش) لا نعلم حقيقةً من سَجَّلها وما هي درجة مصداقيتها. وإنما الأمر هو جمع المعلومات المتوفرة وضرب بعضها ببعض وذلك للخروج بتحليل ذي مصداقية.

فمعلوماتنا عن اليونان هي معلومات نُقِلت شفاهة حتى قام المؤرخون اليونان بتسجيلها في كتبهم، ولا نعلم أي معلومة عن مصادر هؤلاء المؤرخين. وكذلك معلوماتنا عن السومريين والأشوريين والكلدانيين والفرس. وأما معلوماتنا عن المصريين القدماء فهي مبنية بشكل كبير على النقوش المتوفرة. وهناك الكثير من النقوش التي لا نعلم بالضبط من نقشها ولحساب من! وأما النقوش الملكية (أي التي تأتي بأوامر وتوجيهات ملكية) فلا يوجد ضمانة أن المعلومات في هذه النقوش موضوعية (أي صادقة وأمينة).

وحتى المعلومات التي نأخذها ونعتمد عليها في حياتنا اليومية والاجتماعية فإنها تكون شَفاهَةً حتى يتم تسجيلها، وكذلك التحليلات السياسية التي نقرؤها ونسمعها في الأخبار، فكثير منها يعتمد على معلومات شفاهية جاءت من مصادر غير مكشوفة.

والذي نريد أن نقوله هنا إن المعظم الأعظم من معلوماتنا وقراراتنا يعتمد على معلومات ظنية وتخمينية. وهذا التاريخ الذي درسه واحترفه ويتبناه هؤلاء المستشرقون إنما جاءهم من مصادر ظنية وتخمينية، وبالتالي عندما

يقولون إن وجود الرسول عليه السلام وأحاديثه غير مؤكدة، ولكنهم يُؤكدون وجود الاسكندر المقدوني ويؤكدون وجود كورش الفارسي ويؤكدون معركتي كانا وزاما؛ فهذه ليست أمانة في الوصف والتحليل.

الزاوية الخاصة:

مع أن الأحاديث الشريفة قد نُقلت شفاهة (كما هي معلومات التاريخ للحضارات الأخرى) إلا أن المسلمين قد نقلوا هذه المعلومات بطريقة ليس لها مثيل حتى اللحظة. وعندما يأتي بعض المستشرقين ويقولون إن الأحاديث نقلت شفاهة فهذا يُمثل نصف الحقيقة (ونصف الحقيقة قد يكون في بعض الأحيان أسوأ من الكذب)؛ فالأحاديث لم تُنقل شفاهة فقط، وإنما تم نقلها بالسند حتى تم توثيقها في الكُتُب، وهذا النقل ليس له مثيل في تاريخ الحضارات الأخرى. والسند هو تحديد مصدر الرواية (وفي الأحاديث فإن المصدر عموما يكون الرسول عليه السلام) ومن سمعه عن المصدر، وهكذا حتى تصل إلى المُحَقِّقِ الذي وثقها في كتابه، أي أن السند المُوَثَّقُ يكون عن المحقق (الذي سجل الرواية) عن فلان عن فلان عن فلان .... عن مصدر الرواية.

> وللتنبيه فإن هناك بعض المعلومات التي تم نقلها بالسند في الحضارات السابقة والحالية، ولكن هذه استثناءات وليست الظاهرة العامة. وأما الأحاديث الشريفة فقد تم نقلها جميعًا بالسند، وأي حديث لا سند له فهو مرفوض. وهذا الحجم من المعلومات التي تم نقلها سندا ليس له مثيل في تاريخ الحضارات حتى هذه اللحظة.

والسند ذو الثقة يرفع كثيرا من ظنية الرواية، وعندما تكون هناك عدة أسانيد للرواية الواحدة فإن الظنية في الرواية تتضاعف، وهذا ليس وهما وخيالا وإنما أمر يُمكن توضيحه بشكل واقعي:

لنفترض أن جاءك صديق صادق (أي أن خِبْرَتك السابقة عنه أنه صادق)، وأخبرك أنه شاهد البارحة حادث تصادم بين دبابة وزرافة في وسط المدينة. وهنا قد تستغرب من هذه القصة وتقول في نفسك: هذه القصة فيها مشكلة؛ فلماذا هناك دبابات في المدينة، ومن أين جاءت الزرافات إلى وسط المدينة. وهنا أنت لا تُكَذِّب صديقك ولكنك ربما لا تأخذ روايته مأخذ الجد (فربما أخطأ أو أساء فَهْمَ الواقعة). ولكن إن جاءك صديقان صادقان آخران وأخبراك أنهما شاهدا الرواية نفسها؛ فهنا تصدق الرواية وتبدأ بضرب الأخماس والأسداس عن أسباب وجود الدبابات والزرافات في وسط المدينة.

ونحن في القصة السابقة نتحدث عن موضوع خارج السياق العام (فوجود الدبابات والزرافات في وسط المدينة ليس بالأمر الطبيعي)، ووجود أكثر من شاهد للواقعة يُضاعف من مستوى الظنية في حدوثها. وكذلك الأسانيد ذات الثقة؛ فإذا تعددت الرواية (باللفظ أو المعنى) فإن الظنية في الرواية تتضاعف كثيرا.

> والسند الواحد يتعلق بمجموعة من الرواة إلى مصدر الرواية، ويكون للرواية سندان إذا كانت هناك مجموعتان من الرواة إلى المصدر بحيث لا يكون هناك راوٍ مشترك بين المجموعتين (إلَّا مصدر الرواية)، فمثلا: السند الأول للرواية: عن أ عن ب عن ج عن الرسول عليه السلام، والسند الثاني للرواية نفسها: عن س عن ص عن ع عن الرسول عليه السلام. فما سبق هو سندان ليس فيهما راوٍ مشترك.

وهناك الكثير من الأحاديث التي لها سندان وثلاثة وأربعة وأكثر. ولهذا السبب فإن الظنية في ثبات هذه الروايات تكون أقوى بكثير من الظنية في المؤرخات اليونانية والرومانية لأننا نعلم (وربما نثق) بمؤرخي اليونان والرومان ولكننا لا نعلم مصادرهم (أي الأشخاص الذين أخذوا عنهم القصص والتاريخ).

وكان على هؤلاء المستشرقين (إن أرادوا الالتزام بالصدق والأمانة) أن يُنوِّهوا لموضوع السند في شفاهية نقل الأحاديث، ويقوموا (قبل إصدار أحكامهم) بتجارب إحصائية لتحديد مستوى الظنية في المعلومات المنقولة عن طريق السند، وعندها يُمكننا أن نُناقشهم فيها،، وأمَّا أن يأتي أحدهم حاملا الشهادات الكبرى في الدراسات التاريخية ويقول إن الأحاديث النبوية نُقلت شفاهة وبالتالي فإنَّ فيها الشك؛ فهو قول (ضمن وجهة نظر المؤلف) يُجافيه الصدق والأمانة؛ وذلك لأنه استخدم مقاييس في الأحاديث تختلف عن المقاييس التي يَستخدمها في تبنِّياته لتاريخ الحضارات الأخرى، ولأنه لم يُنَوِّه ولم يَدْرَس ولم يضع في معادلاته تأثير علم السند في ظنية الأحاديث.

وانتبه هنا ... نحن لا ننتقد المستشرقين في قناعاتهم الفكرية (فَهُمْ أحرار فيها) وإنما ننتقد هؤلاء المستشرقين فيما يتعلق بالأمانة العلمية: فعدم قيام هؤلاء المستشرقين بالتنويه لعلم السند (وهو أهم مادة في علم الحديث) ثم يعتبرون المشافهة في النقل عند المسلمين تُماثل الشفاهة عند الرومان واليونان فهذه ليست أمانة علمية في الوصف.

وسنقوم في الملحق الخامس بالتعمق أكثر في موضوع الأحاديث النبوية وكيفية تحليل السند فيها.

2.11# كيف تم جمع القرآن:

لقد تم نقل القرآن إلى الناس شفاهة وكتابة أثناء وجود الرسول عليه السلام، ثم تم تجميعه في كتاب واحد بعد وفاة الرسول بسنة واحدة وضمن لجنة يقودها زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب. ومنهجية الجمع كانت تعتمد على نسخة مكتوبة وشاهدين عليها. وهذه النسخ كانت مكتوبة في الرقاع (الجلود) أو العُسب (جريد النخل) أو الألواح (الأخشاب العريضة) وغيرها، وهي الوسائط التي كانت تُكتب عليها الآيات وقت الرسول عليه السلام.

وبالتالي فإن منهجية الجمع كانت تعتمد على أمرين أساسيين: نسخة مكتوبة وشاهدين عليها. وتم كل ذلك بعد وفاة الرسول عليه السلام بسنة واحدة، وأمام حضور كبار الصحابة المُقَرَّبين.

وهذا الجمع تحول إلى أول ملف (Folder) تم جمع الآيات فيه. وتم نسخ هذا المصحف إلى جميع أقطار الأرض مشافهة وكتابة وتواترا من الجيل إلى الجيل التالي: فقد نزل القرآن في مكة، وبعد سنتين من وفاة الرسول عليه السلام انتشر المسلمون إلى شتى أقطار الأرض، بل لقد تصارع المسلمون فيما بينهم،، ومع ذلك فإن القرآن في جميع أقطار الأرض (وحتى اللحظة) هو نفسه الذي جمعه زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب (وسندخل في موضوع رسم القرآن في عهد عثمان في مسئلة لاحقة).

وكل ما سبق هو إثبات كاف (لنا نحن المسلمين على الأقل) على مطابقة المصحف الذي بين أيدينا الآن للمصحف الذي جمعه زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب. وسندخل إلى مجموعة من شُبهات المستشرقين في هذا الأمر في مسائل تالية.

وبالإضافة لما سبق فإن هناك دليلا آخر يخص المسلمين فقط (لأن الأدلة السابقة هي أدلة عامة في صحة النقل من الجيل إلى الجيل التالي، وأما الدليل التالي فهو يخص المسلمين فقط) وهو قوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (9 – الحجر)، وهذه الآية قد وصلت إلينا بالتواتر (كغيرها من الآيات)، وبسبب إيماننا بالخالق والرسالة المحمدية فإن هذا يُؤدي للإيمان بهذه الآية والاطمئنان بها في صحة جمع القرآن.

2.12# القراءات والأحرف والرسم في القرآن:

كان هناك رأيان عند العرب وقت الإسلام:

- القرآن هو كلام الله أنزله إلى الرسول عليه السلام عن طريق جبريل، وقام الرسول بتقريئنا إياه. وهذا هو رأي المسلمين.
- القرآن قد أَلَّفَهُ وَوَضَعَه محمد (نبي المسلمين)، وهذا هو رأي المشركين.

وفي كِلا الرأيين فإن القرآن قد جاءنا من خلال الرسول عليه السلام، ولكن بعض المستشرقين اليوم يُحاول الاستدلال أن القرآن قد جاء بعد محمد، والبعض الآخر يُحاول الاستدلال أن القرآن قد كان موجودا قبل محمد.

وهناك البعض من المستشرقين الذين لا يتصرفون بالأمانة العلمية في الوصف والتحليل ويُحاولون التشكيك من أجل التشكيك. وإحدى طرق هؤلاء المستشرقين في التشكيك هو قذف المعلومات غير الواضحة عن الموضوع، وبالتالي يتم الإيحاء أن الموضوع نفسه غير واضح. وإحدى المواضيع التي يتم استخدامها في التشكيك هي القراءات والأحرف والرسم.

ولكن يجب كذلك التنبيه أن هناك الكثير من المستشرقين الذين يُحاولون جهدهم أن يكونوا صادقين وأمينين في الوصف والتحليل، وهؤلاء لهم احترامي وتقديري الشديد؛ فمع أن استنتاجاتهم قد تكون خاطئة إلا أنها قد تُنَبِّهُك للأفكار الصحيحة، وهذا أمر مفيد جدا. وأمَّا انتقادنا فهو للمستشرقين الذين لا يتصفون بالصدق والأمانة العلمية في الوصف والتحليل، وتراهم يأخذون معلومات محددة ويعتمدون عليها ويُهملون المعلومات الأخرى ولا يَكْشِفونها في أبحاثهم. وهؤلاء يحاولون التشكيك من أجل التشكيك نفسه وليس من أجل البحث العلمي.

وإحدى الطرق التي يُمكن استخدامها في الرد على تشكيكاتهم هي تحديد النقطة التي يريد هؤلاء المستشرقين إثباتها، ومن ثم تحديد الربط بين ما يقولونه وبين ذلك الإثبات. وما سبق هو أحد الأمور الأساسية في البحث العلمي: يجب أن تُحدد موضوع البحث التي تدرسه ثم بعدها تقوم بربط الأدلة مع هذا الموضوع.

ولنستخدم ما سبق في بحث موضوع التشكيك الذي يُستخدم في موضوع القراءات والرسم: ما الذي يُريد المستشرقين إثباته: هل تَعَدُّد القراءات هو إثبات أن القرآن قد جاء قبل محمد (نبي المسلمين) أم بعده؟ وكيف يتم ربط القراءات لإثبات ذلك؟

والنقطة الرئيسية بيننا وبين هؤلاء المستشرقين يتعلق بالمصحف الذي بين أيدينا:
هل المصحف الذي بين أيدينا الآن قد جاءنا من خلال محمد (نبي المسلمين) أم لا؟

وبالتالي ... فإنه بغض النظر إن فَهِمَ المستشرقين موضوع القراءات أو لم يفهموه، وبغض النظر إن وافَقَنا المستشرقون في موضوع القراءات أو لم يُوافقونا فإن موضوع الخلاف بيننا وبينهم لم يتغير وهو: ما هو مصدر المصاحف التي بين أيدي المسلمين الآن؟ وهل هذه المصاحف قد جاءتنا من خلال محمد (نبي المسلمين) أم لا؟ وبعد ذلك يأت النقاش بيننا وبينهم فيما إذا كان القرآن هو كلام الله أم لا.

وضمن الأدلة التي جاءت بالتواتر من الجيل إلى الجيل التالي فإن مصدر المصاحف التي بين أيدينا هو المصحف الذي جمعه زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب ضمن المنهجية التي شرحناها في المسئلة 2.11، ونستطيع القول إن جميع المصاحف في أقطار الأرض متطابقة (راجع الملحق الرابع) مع كثرة الحروب الأهلية التي حدثت بين المسلمين، وهذا يدل على مصدر واحد.

وربما لا يقتنع المستشرقون بما سبق ... ولكن ليس الهدف من الاستدلال السابق هو تقديم الجواب المُفحم المسكت للمستشرقين وإنما الهدف هو تقديم الجواب الواضح المريح، وخصوصا لنا قبل غيرنا.

وبالنسبة للقراءات ... فإنها كلمات مختلفة في الآية. وهذه الكلمات قد جاءت إلينا إمَّا بخبر آحاد أو بالتواتر، فمثلا الآية الرابعة من سورة الفاتحة "مالِكِ يوم الدين" فإنَّ لها قراءة أخرى متواترة وهي: "مَلِكِ يوم الدين". وكذلك آية الوضوء: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ... (6- المائدة) فإنَّ لها قراءة أخرى متواترة وهي: وَأَرْجُلِكُمْ.

ونستطيع تشبيه القراءات بالمِثال التالي: عندما يقوم مُؤَلِّفٌ بوضع كتاب له، ثم يقوم في الطبعة الثانية بتغيير بعض الكلمات، فإنه في الحالتين يكون هو نفسه مصدر الكلمات في هذا الكتاب. وبالطبع لا يوجد "طبعات" للقرآن وإنما الآية عندما نزلت أول مرة إلى الرسول عليه السلام فإنه قد تم التنبيه للقراءات المختلفة في الآية؛ أي التنبيه لـ مالك وملك، والتنبيه لـ أرجلَكم وأرجلِكم وغيرها.

والفائدة من القراءات أنها تضع معاني إضافية للآية، فمثلا في آية الوضوء فإنَّ القراءتين تَدُلَّان أنه يجوز في الوضوء أن نغسل الأرجل أو نمسحها إلى الكعبين (والأوْلى هو الغسل لأنها هكذا جاءت في السنة، ولكن المسح جائز حسب تواتر القراءة الثانية).

وأما الرسم فهو طريقة الكتابة. وهو ليس نوع الخط، فالخط يمكن أن يكون رقعة أو أندلسي أو مثلث ولكن يبقى الرسم كما هو.

فمثلا "الصَّلاة" هي الرسم الحالي لهذه الكلمة في حين أنها كانت في قريش "الصلوة". و"التابوت" هي هكذا في رسم قريش في حين أنها في رسم الأنصار "تابوة". فالرسم هو كيفية جمع الأحرف وَرَسْمِها في الكلمة. فمثلا "صلاة" هي الرسم الحالي في كتاباتنا العامة، ورسمها في قريش: "صلوة"، وفي الرسم النبطي (بالأحرف العربية) تكون: "صلت" (حيث إن الأنباط لا يكتبون أحرف العلة)، وفي الرسم الكنعاني (وبالأحرف العربية) تكون: " ص ل ت" (حيث إن الكنعانيين لا يَصِلون الأحرف في الكلمة). فالرسم هو كيفية ترتيب الأحرف ورسمها للتدليل على الكلمة.

ومن الواضح أن كل منطقة في بلاد العرب كانت لها طريقتها في رسم الكلمات، وهذا المعنى (على غلبة الظن) من قول الرسول عليه السلام " أُنزل القرآن على سبعة أحرف". وانتبه أن السبعة في استخدامات العرب قد تعني المعنى الحرفي (أي العدد سبعة بالتمام) أو تعني التعدد (أي حوالي السبعة).

وقد كان الناس يكتبون القرآن برسومهم التي اعتادوا عليها، وانتبه حذيفة بن اليمان إلى المشكلة في عدم توحيد الرسوم فذهب إلى عثمان بن عفان، فأرسل عثمان إلى السيدة حفصة (زوجة الرسول وابنة عمر بن الخطاب) أن يستعير منها الملف الذي جمعه زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب؛ وذلك لاعتماد الرسم في ذلك الملف حيث إن ذلك الملف هو أول نسخة تم جمعها للقرآن،، ثم وضع لجنة يرأسها زيد بن ثابت (رئيس اللجنة السابقة في عهد أبي بكر) ومعه صحابة آخرون، واعتمدوا على رسم ذلك الملف ولكن تم الاتفاق أنَّ أي خلاف في اللجنة فيما يتعلق بالرسم فإنه سيتم اعتماد رسم قريش. فكانت النُّسَخ التي تم وضعها في عهد عثمان هي نسخ من مصحف حفصة مع اعتماد الرسم القُرشي في كلماتها.

وتم إرسال هذه النسخ إلى جميع أمصار المسلمين مع الطلب بإتلاف جميع النسخ الأخرى. وحيث إن هذا الأمر قد تم بوجود ومباركة كبار الصحابة في المدينة فإن "عموم" المسلمين قد أخذوه واعتمدوه دون مشكلة. وقد تم تسمية هذا الرسم لاحقا بـ "رسم عثمان".

الآن ... بغض النظر فَهِمَنا المستشرقون أو لم يَفْهَمونا في موضوع القراءات والرسم، وبغض النظر إن وافَقونا المستشرقون في هذه المواضيع أم لم يُوافِقونا فإن نقطة الخلاف الأساسية التي يجب أن يبدأ بها النقاش يتعلق بالمصاحف الموجودة حاليا بين أيدي المسلمين قاطبة. والسؤال يكون: هل هذه المصاحف قد جاءت من خلال محمد أم لا؟

وحيث إن المصاحف متطابقة عند جميع المسلمين المنتشرين في كافة أنحاء الأرض (ومع الحروب الأهلية التي حدثت بينهم) فإن هذا يُقدم دلالة كافية ومريحة أن مصدر هذه المصاحف هو واحد.

ولقد أضفنا في هذا الكتاب ملحقا مفصلا عن الاختلافات في القراءات القرآنية وتعرضنا فيه لموضوع مصحف صنعاء وذلك في الملحق الرابع.

2.13# نسخ قديمة من القرآن:

هناك ادعاء من أحد المستشرقين أنه قد تم الكشف عن مصحف أثري (مصحف صنعاء) وتبين أنَّ فيه اختلافات كثيرة عن المصاحف الحالية.

وما سبق غير صحيح ولكن لنفترض جدلًا أن ادعاءه صحيح ... فما الذي يُريد أن يُثبته؟

وكما ذكرنا سابقا فإن هناك الكثير من المستشرقين الذين يجتهدون الصدق والأمانة في الوصف والتحليل، ولكن هناك البعض الآخر الذين يُحاولون التَّشكيك من أجل التشكيك نفسه. ومواجهة هؤلاء يكون بفرض المنهجية العلمية على نقاشاتهم، وفي هذه الحالة فإن السؤال لأولئك المستشرقين: ما الذي تُحاولون إثباته من خلال هذا الادعاء؟

فمثلا ... هل ذلك المستشرق (في إدعائه السابق) يُحاول تقديم الإثبات التالي:

- هناك نسخة أثرية من المصحف لا تتوافق مع المصاحف الحالية.
- إذن القرآن ليس كتاب الله.

أو التالي:

- هناك نسخة أثرية من المصحف لا تتوافق مع المصاحف الحالية.
- إذن محمد ليس مصدر القرآن.

أو التالي:

- هناك نسخة أثرية من المصحف لا تتوافق مع المصاحف الحالية.
- إذن هناك خطأ في المصاحف الحالية.

وجميع الأشكال السابقة ليس فيها ربط منطقي صحيح. وهنا نرجع إلى نقطة النقاش الرئيسية: وهي أن القرآن قد بدأ في مكة ثم انتشر إلى كافة أقطار الأرض. وجميع المصاحف في هذه الأقطار متطابقة، وبالتالي نستطيع الاستنتاج أن هذه المصاحف لها مصدر واحد.

ولهذا فإن طريقة النقاش الطبيعية لادعاء ذلك المستشرق هي:

- جميع المصاحف في العالم متطابقة وبالتالي لها مصدر واحد.
- هناك نسخة أثرية من المصحف لا تتوافق مع المصاحف الحالية.
- فكيف جاءت هذه النسخة؟

وهناك عدة أجوبة ممكنة لهذا السؤال:

- خطأ شخصي في النسخ ولم يتم التدقيق عليه، ولم تنتشر هذه النسخة، وإلا لوجدنا اختلافا في المصاحف في أقطار الأرض.
- كيد من أحد الأشخاص ولكن هذا الكيد لم ينتشر، وإلا لوجدنا اختلافا في المصاحف في أقطار الأرض.
- أن تكون هذه النسخة قد تمت كتابتها قبل عهد عثمان بن عفان، ولم يتم إتلافها.
- أن تكون الاختلافات في هذا المصحف الأثري ضمن القراءات المعتمدة للقرآن.

ومن الممكن أن تكون هناك عدة أجوبة أخرى ممكنة على ذلك السؤال.

والنقطة الرئيسية هنا أنَّ الذي يريد أن يُشَكِّكَ فإنه لن يعدم الوسيلة. وطريقة التشكيك تكون عموما بالتركيز على زاوية من الموضوع وإهمال الزوايا الأخرى (تعمدا) من أجل زرع الشك في الآخرين. وكما ذكرنا فإن الطريقة الأفضل لمواجهة هذه التشكيكات هو فرض المنهجية العلمية في الوصف والتحليل.

وقد قمنا في الملحق الرابع بتحليل الاختلافات في مصحف صنعاء، ووجدناها اختلافات لا تتناقض مع المصاحف الحالية.

2.14# ادعاء بوجود نسخة من القرآن أقدم من الإسلام:

هناك ادعاء من أحد المستشرقين أنه قد تم اكتشاف نسخة أثرية (مصحف صنعاء) من القرآن، وأنه قد تم عمل التحليل الكربوني لها فتبين أن الجلد المستخدم في هذه النسخة موجود قبل ولادة الرسول عليه السلام.

وما سبق ليس صحيحا تماما، ولكن لنفترض جدلا صحته، فإن المناقشة هنا هي نفسها كما في المسئلة السابقة: ما الذي يُريد هذا المستشرق أن يُثبته، وكيف يريد أن يُثبته؟

بمعنى آخر فإنه ضمن الأدلة المتوفرة فإن المصاحف التي بين أيدينا لها مصدر واحد، فهل ما سبق هو دليل كاف لتحطيم الأدلة التي وضعناها في المسئلة 2.11؟؟

والطريقة الطبيعية في السؤال هي كالتالي:

- جميع المصاحف في العالم متطابقة وبالتالي لها مصدر واحد.
- هناك نسخة أثرية من المصحف تظهر أنها تمت قبل ولادة الرسول عليه السلام.
- فكيف جاءت هذه النسخة؟

وهناك عدة أجوبة لهذا السؤال:

- جلود الكتابة كانت غالية الثمن، وبالتالي من الطبيعي أن يقوم البعض بمسح الكتابة عن الكتب القديمة واستخدامها في كتابة القرآن.
- وربما كانت هناك جلود قديمة موجودة في المخازن وغير مستعملة فقاموا بكتابة القرآن عليها.
- وربما تكون هناك عدة أجوبة أخرى.

ولنرجع إلى ما تم اكتشافه، فقد تم تقدير عُمُر الجلد المستخدم في مصحف صنعاء فتبين أنه يعود للفترة بين عام 44 قبل الهجرة إلى 49 بعد الهجرة. ولكن هذا هو عُمُر الجلد بعد موت الحيوان، وليس الوقت الذي تمت فيه كتابة المصحف.

2.15# الآيات المنسية:

وهناك اتجاه عند بعض المستشرقين للتدليل أن القرآن ناقص وذلك اعتمادا على روايات عن آيات كانت موجودة وقت الرسول عليها السلام ولكنها لم توضع في المصحف الشريف.

وهذا لا يُغَيِّر النقطة الرئيسية في النقاش بيننا وبين المستشرقين في ما يتعلق بالقرآن: هل المصاحف التي بين أيدي المسلمين قد جاءت إليهم من خلال محمد (نبي المسلمين) أم لا؟ ثم بعدها نناقشهم إذا كان القرآن كتاب الله أم لا!

فنقاش المستشرقين عن الآيات المنسية لا يُؤثر ولا يزيد في نقطة الخلاف الرئيسية بيننا وبينهم.

وبالنسبة للآيات المنسية فإن ما سبق صحيح؛ فهناك آيات في القرآن قد تم نسخها أو إلغاؤها لحكمة عند الله. وهذا دليله قوله تعالى: وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

(101–النحل)، وقوله: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106–البقرة)، وقوله تعالى: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (7–الأعلى).

وكذلك هناك روايات أخرى موجود في كتب التفسير وصحاح الحديث.

وانتبه أن هناك آياتا تم نسخها في القرآن ولكنها مما يُتَعَبَّد بتلاوته (أي أنها ما زالت جزءا من المصحف الكريم)، وأما الآيات المنسية فهي آيات تم نسخها ولا يُتَعَبَّد بتلاوتها (أي أنها لم تعد جزءا من المصحف).

ولا ندري ما الحكمة من إنزال تلك الآيات ثم إلغائها، ولكن ذلك لا يُؤثر في قوة الأدلة المتعلقة بوجود الخالق وصحة الرسالة المحمدية. ولهذا السبب فإنَّ المبدأ الأول والثالث (من الفصل الأول) ينطبق على عدم معرفتنا للحكمة من إنزال تلك الآيات ثم إلغائها لاحقا.

وبالنسبة لنا (نحن المسلمين) فإن القرآن كامل وذلك لوجود آية فيه قد تم تسجيلها في المصحف بقوة التواتر وهي: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (9–الحجر)، وهذا مُتَحَقِق عبر العصور؛ فجميع المصاحف المتوفرة متطابقة في الآيات والرسم. وبالتالي فإننا (كمسلمين) لا يُفْتَرض أن يؤثر فينا معرفتنا عن وجود هذه الآيات المنسية.

وأمَّا بالنسبة للمستشرقين ... فبغض النظر اقتنعوا بوجهة نظرنا (نحن المسلمين) أو لم يقتنعوا فإن النقطة الرئيسية بيننا وبينهم تبقى كما هي: هل المصاحف التي بين أيدي المسلمين قد جاءت إليهم من خلال محمد أم لا؟ وهل هذا الكتاب هو كتاب الله أم لا؟

2.16# سورتا الفلق والناس:

وضمن محاولات بعض المستشرقين للنيل من القرآن فإنهم يُنبهون لرأي عبد الله بن مسعود في أنه لم يكن يعتبر سورتي الفلق والناس من القرآن.

وللصدق فإن الروايات تُؤكد هذا الرأي لابن مسعود.

ولكن هنا نسأل ... ماذا الذي يحاول أن يُثبته المستشرقون؟ هل رأي ابن مسعود يدل أن القرآن ليس كتاب الله، أو أن القرآن لم يأتنا من خلال الرسول عليه السلام؟

وكذلك فإن تركيز المستشرقين على هذه النقطة يدل على الصدق والأمانة الكبيرة التي تَحَلَّى بها رواة الحديث، فمع أن هذا الرأي كان مرفوضا من جميع المسلمين إلا أن رواة الحديث قاموا بتسجيله بصدق وأمانة.

وعلى أية حال فإن ما سبق لا يُؤثر على الخلاف بيننا وبين المستشرقين: هل المصحف الذي بين أيدينا قد جاءنا من خلال محمد أم لا؟ وبعده يأت السؤال: هل القرآن هو كلام الله أم لا؟

وبالنسبة لرأي عبد الله بن مسعود: فهناك أدلة واضحة على وجود هذا الرأي لابن مسعود؛ ولكن لا توجد أي إشارة للأسباب التي جعلته يأخذ هذا الرأي. وبالنسبة لسورتي الفلق والناس فإنهما قد تم تسجيلهما ضمن منهجية زيد بن ثابت: كتابة على الرقاع يُؤيدها شاهدان على الأقل. وبالتالي فإن هناك شهودا على هذه الآية، وبعض هؤلاء الشهود قد تم تسجيل شهادتهم في أحاديث مروية في الصحاح.

وهنا نسأل عن مسؤوليتنا في هذا الأمر: فهناك رأي لصحابي واحد، ويقابله شهادة صحابة آخرين مستندة إلى نسخة مكتوبة. فما هي مسؤوليتنا في هذا الأمر؟

والجواب واضح ... فإن مسؤوليتنا تتطلب الأخذ بشهادة الجمع فوق شهادة الفرد.

وتوجد هنا نقطة مهمة ... فرأي ابن مسعود ليس رأيا فقهيا يكون فيه القوة والضعف، وإنما هو رأي حدوث أو عدم حدوث: فالموضوع لا يتعلق بفقه واجتهاد وإنما يتعلق بـ هل سورة الناس من القرآن أم ليست من القرآن.

وبالتالي فإن مسؤوليتنا تتعلق باتباع الشهادات. وهناك شهادات كافية تدل أن سورتي الفلق والناس من القرآن.

2.17# التحديات القرآنية الأربعة هي خاصة لقريش والخزرج:

هناك آيات يظهر أنها خمسة تحديات تتعلق بالقرآن:

1- "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" (88 – الإسراء).

2- "أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ" (34 – الطور).

3- "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" (13 – هود).

4- "يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" (38 – يونس).

5- "وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" (23 – البقرة).

الآن ... الآية الأولى ليست من آيات التحدي وإنما هي خبر، وفي هذا الخبر فإن الله يقول لنا إنه لا أحد يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن.

وأما آيات التحدي فهي الآيات الأربعة من 2 إلى 5.

وضمن غلبة الظن فإن هذه التحديات ليست لنا ولا للمسيحيين ولا للغرب وإنما كانت موجهة بشكل خاص إلى قريش والخزرج (الأوس والخزرج)، وقد أسلمت قريش والخزرج. وكذلك فإن قريشا قد انتهت ولم يعد لها وجود الآن؛ فهناك الكثير من ذرية قريش ولكنَّ قريشا كقبيلة قد انتهت، وكذلك الخزرج.

وأساس هذا الرأي مبنيٌّ على مفهوم التحدي؛ فالتحدي بحاجة إلى أربعة أمور:

- موضوع التَّحدي.
- المُتَحَدِّي (وهو الطرف الذي يَتَحَّدى، ولمنع الارتباك لتشابه الرسم في الكلمات فسنسميه ألفا). والمُتَحَدِّي هنا هو الخالق تعالى.
- المُتَحَدَّى (وهو الطرف الذي يتم تَحَدِّيه وسنسميه هنا بيتا). وبيتا هم البشر، وسنقوم بتحديدهم لاحقا.

- والأمر الرابع وهو مرجعية التَّحَدِّي وهي أحد اثنين:
  - إمَّا مواصفات واضحة محددة. ومثال ذلك أن تقوم بتحدي زميل لك برفع 100 كيلوغرام ولمدة عشرين ثانية. وهذه مواصفات محددة واضحة تَصْلح كمرجعية للتحدي والتي يُمكن من خلالها الإثبات أن بيتا قد نجح في التَّحَدِّي.
  - وإمَّا قُضاة يَقْبَلُ بهم ألفا وبيتا. ويقوم هؤلاء القضاة (الحُكَّام) باتخاذ القرار فيما إذا استطاع بيتا أن ينجح في التَّحَدِّي. وهذه المرجعية ضرورية للتَّحَدِّيات التي لا يكون فيها مواصفات محددة واضحة؛ كالتَّحَدِّيات المتعلقة بالشعر والبلاغة والرسم والموسيقى إلخ.

وما سبق هي أمور ضرورية لأي تحدٍ. وهنا نسأل: هل كانت هناك مواصفات محددة للمشركين فيما يتعلق بالقرآن؟ والجواب هو لا.

وهنا نسأل: إذا لم تكن هناك مواصفات محددة، فمن هم القضاة الذين سيحكمون في هذا التحدِّي؟

ولا نعلم عن قضاة لهذا التحدِّي.

وبالطبع لا يُمكن أن يكون ألفا هو القاضي، لأنه لا يُقبل لألفا أن يكون الحَكَمَ والخصم في الوقت نفسه.

وبالتالي فإن الحل الوحيد أمامنا هو أن بيتا كانوا هم القضاة، وهذا أَبْلَغ في التَّحَدِّي والإعجاز.

وبالتالي فإن الله قد تَحَدَّى قريشا في موضوع القرآن وجَعَلَهم القضاة والحُكَّامَ في ذلك.

ولكن ... كيف يتم تحكيم قريش في هذا الأمر، ألم يكن هناك خوف من أن تُؤَلِفَ قريش شيئا ويقولون إن هذا مثل القرآن (حتى وإن كانوا يعلمون أنهم كاذبون)؟

لقد كانت قريش تتصف بأخلاق عالية نسبيًّا مقارنة بالمستوى العام ذلك الوقت، وهذا ما جعل قريشًا إحدى سادات العرب. وكان هذا ضروريا لقريش: إذ كانت تجارتهم من الشام إلى اليمن تمر عبر القبائل المتناحرة، وكان نجاح تجارتهم يعتمد اعتمادا كاملا على مصداقيتهم، فتعودت قريش ومنذ عهد بعيد أن يكونوا أهل مصداقية عالية، وأن يبقوا أهل مصداقية عالية.

وللمقارنة فإن بعض اليهود كان يُظهر الاقتناع بالإسلام في أول النهار ثم يرفضه في آخره على أمل أن يُشكك الناس في الإسلام: "وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (آل عمران – 72)، وكان هذا خُبثًا ومكيدة منهم. وفي المقابل فقد قال تعالى: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ " (المسد–1). وهنا يأتي السؤال: لماذا لم ينتبه أبو لهب لهذه المكيدة؟ لماذا لم يَدَّعِ الإسلام من أجل أن يُفَنِد كلام القرآن؟

وبعض الناس يقولون إن ما سبق هو إحدى معجزات القرآن وذلك لأنه لا أحد من كفار مكة قد انتبه لهذه المكيدة كما انتبه لها اليهود! ولكن الموضوع ليس كذلك، وإنما الموضوع يتعلق بطبيعتين مختلفتين؛ طبيعة قريش وطبيعة اليهود: فقريش كانت تتصرف بجدية ومصداقية أعلى من المستوى العام في الجاهلية، وهذا ما جعلهم أهل ثقة عند العرب، وهذا ما جعلهم إحدى سادات العرب،، وأما طبيعة اليهود فقد كان فيها الخبث، والخبيث لا يهتم

بمصداقيته. وهنا النقطة: حتى لو انتبه أبو لهب لتلك المكيدة فإنه لا يُمكنه أن يُنفِّذها لأنها نقيصة وعَيْبٌ على سادات العرب.

ولهذا كان التَّحَدِّي لقريش في موضوع القرآن، وكانوا هم القضاة في ذلك. وما كانوا يستطيعون أن يُؤَلِّفوا شيئا ويقولوا: هذا مِثْلُ القرآن،، وإن فعلها أحدهم فسيقوم الآخرون بتوبيخه وذلك بسبب مصداقيتهم التي تَرَبُّوا عليها عبر السنين.

ولكن هذا التَّحَدِّي لا ينفع مع مسيلمة الكذاب ولا ينفع مع المُرْتَدِّين ولا ينفع مع اليهود ولا المسيحيين ولا الغرب: فأنت لا تستطيع أن تضع لهم هذا التَّحَدِّي وأن يكونوا هم القضاة. وهذا هو السبب في قولنا إنَّ الآيات الثالثة الأولى كانت خاصة لقريش.

وأما الآية الرابعة فهي مدنية وجاءت خاصة للأوس والخزرج. وقد ابتدأت الآية بـ "وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا"، وهنا فإن كثيرا من سادات الأوس والخزرج قد أسلموا ولكن هناك من في صدره بعض الريب، فجاءت هذه الآية لهم، والقضاة في هذا التحدي هُم جُموع الأوس والخزرج.

وانتبه أنه لم يكن هناك أي خطر في تحكيم بيتا: فإذا جاء أحدهم وأَلَّفَ شيئا وقال إنه مِثْلُ القرآن، ولم يقم الآخرون بتوبيخه فإن الله قادر أن يَرُدَّ عليهم في القرآن الرد المبين، ولكن قد توقف نزول القرآن بعد وفاة الرسول عليه السلام. وكذلك فقد أسلمت قريش وأسلم العرب في يثرب وذلك قبل وفاة الرسول عليه السلام، ولهذا فإن التَّحَدِّي نفسه قد انتهى بإسلام من تم تَحَدِّيهم.

والنقطة الأساسية في هذه المناقشة أن التحدي في البلاغة والجمال اللغوي (إلخ) بحاجة للقضاة، والظاهر أن قريشا وأهل يثرب كانوا هم القضاة في التحديات الأربعة السابقة الموجودة في القرآن.

والآية التي تبقى فَعَّالة حتى اللحظة هي الأية الأولى والتي ذكرنا أنها ليست آية تَحَدِّي وإنما آية إخبار. وإذا جاءنا أحد وقال: هأنذا قد ألفت شيئا مثل القرآن، فإننا نجيبه: أن الله أقد أخبرنا أنه لا يُمكن لأحد أن يأتي بمثل هذا القرآن. وإذا أراد نقاشنا في ذلك فإننا نناقشه أولا في وجود الخالق وصحة الرسالة المحمدية، وبالتالي نُثبت المصداقية في آية الإخبار السابقة (أي الآية 88 من الإسراء).

وربما يأتي اعتراض هنا أن المُخاطَب في آيات التحدي الأربعة هم كل البشر قديما وحديثا وذلك لأن القرآن كتاب الله لكل البشر في كل الأزمان. ونتفق تماما أن القرآن هو كتاب للبشر في كل الأزمان، ولكن ليس من الضروري أن يكون كل البشر هم المُخاطَبين في آيات الوعظ والقصص. وللتنبيه فإن القرآن يحتوي على موضوعين رئيسيين: الأول وهي الأحكام الشرعية والتي يتم تفسيرها بالطريقة القانونية، والثاني وهو الوعظ والإخبار والقصص، وهذه يتم تفسيرها بالطريقة الأدبية حسب عادة العرب فيها. وقد شرحنا هذا الموضوع بتفصيل في الفصل الأول من كتاب "تحليل الأدلة والقرائن". ولا خلاف أن الأحكام الشرعية موجهة لجميع البشر في جميع الأماكن والأزمان، وأما القصص والوعظ والإخبار فإنه يتم تحديد المُخاطب فيها حسب القرائن المتوفرة. وتوجد الأدلة التالية على ذلك:

- "وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ" (33 – الشورى). ومن الواضح أن المُخاطَبَ هنا هم البشر في العصر القديم؛ حيث إن السفن الحالية لم تعد تعتمد على الريح في حركتها.

- "سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (22 – الكهف). وضمن غلبة الظن أن "سيقولون ويقولون ويقولون" تتعلق بوفد قريش الذي ذهب إلى الحبر اليهودي وسألوه عن النبي الذي جاء لقريش. وغلبة الظن أن "ما يعلمهم إلا قليل" تختص بذلك الزمن وليس كل الأزمان؛ وذلك لأن القرآن قد وضع إشارات تُحَدِّدُ موقع الكهف ("وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ... (17–الكهف)، وإذا حددنا موقع الكهف فربما يستطيع البشر أن يُحَدِّدوا عددهم. وقد شرحنا كل ذلك في كتاب سابق ("ذو القرنين وأهل الكهف").

- "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (85–الإسراء)، وغلبة التخمين أن "ما أوتيتم من العلم إلا قليلا" موجهة إلى الذين سألوا عن الروح وقتها.

- "وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" (16–النحل)، والنجم هنا هو النجم القطبي والذي كانت تُسميه العرب "الجدي"، والعلامات هي النجوم التي كانت تَدُلُّ الناس على النجم القطبي. وكان الاعتماد على النجم القطبي أساسيا في الرحلات البحرية، ولكن قَلَّما يُستعان الآن بالنجم القطبي في تحديد الاتجاهات. ولهذا فإن المُخاطب الرئيسي في هذه الآية هم البشر في العصر القديم.

وهناك الكثير من الآيات غير ما سبق. والنقطة هنا أن القرائن هي التي تُحدد المُخاطَب في آيات الوعظ والقصص، وأما الآيات التي تتعلق بالأحكام الشرعية فإنها تكون بالصيغة القانونية والتي تكون ملزمة لجميع البشر في جميع الأماكن والأزمان.

الآن ... القرآن قد كسب التحديات الأربعة السابقة. ونقول "كسب التحدي" لأنه ضمن الأخبار التي جاءتنا بالسند فإن مشركي قريش وأهل يثرب لم يُواجهوا الرسول فيه، وكذلك ضمن المنطق العام للأمور فإن الرسول كان وحيدا أمام المشركين وكلُّ ما كان يملكه هو مصداقيته، ولو كسب المشركون هذا التحدي لذهبت المصداقية من الرسول ومما يدعو إليه.

ولكن هناك سؤالين في هذا الموضوع يُثيران الانتباه:

كيف لم يستطع المشركون أن يضعوا سورة مثل سورة الكوثر؟ فسورة الكوثر هي ثلاث آيات وتحوي عشر كلمات فقط، فكيف عجز المشركون عنها؟

الجواب: لنفترض أن جاء أحدهم وقال: أنا أفضل من بيكاسو (الفنان المشهور)، فطلبنا منه إثبات ذلك، فقام باحضار أبسط رسمة لبيكاسو وقارنها بأجمل رسمة عنده. فهل هذا العمل مقبول في الإثبات؟

والفكرة هنا أنه يجب الانتباه لمنطق الحال في تفسير الأمور، فمثلا: إذا عطش أحدهم وطلب الماء، فإنه من منطق الحال أن الشخص يَطلب الماء في كوب كي يشرب، وبالتالي إنْ قام أحدهم باحضار قماش منقوع بالماء فإن هذا العمل يكون مخالفا لمنطق الحال.

ومع أن الآية طلبت سورة من القرآن ("فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ") ولكن من منطقية الحال ومن طبيعة الأعراف في التحدي فإنه سيكون عبثا أن يأتي أحدهم بأبسط سورة ويتحداها. وإذا أراد أحدهم التحدي فإنه سيأتي بأبلغ سورة يراها الناس في القرآن ويضع مثلها. والنقطة الرئيسية هنا هو ضرورة الأخذ بعين الاعتبار للأعراف المتبعة عند العرب الأقدمين وذلك أثناء قيامنا بتحليل النصوص القرآنية.

ما هو الأمر المعجز في بلاغة القرآن؟

الجواب: كان الأدب عند العرب الأقدمين (وبشكل رئيسي) ثلاثة: الشعر والخطابة والأمثال. وأهم الثلاثة كان الشعر. والقرآن جاء ببلاغة الشعر ولكن بأسلوب جديد تماما لم يعرفه العرب وقتها. وعندما نقول بلاغة الشعر فإن قيمة الشعر العربي القديم كانت تعتمد على تعدد الأساليب البلاغية فيه، وبعض هذه الأساليب لم تعد مألوفة في العصر الحديث، ومنها مثلا التقليب: فقد قال تعالى: "فجعله عثاء أحوى" (الأعلى – 5)، والغثاء هو الجاف اليابس، والأحوى هو الأسود، والمقصود بالأحوى أن "النبات يضرب إلى الحُوَّة من شدة الخضرة كالأسود" (القرطبي)، وفي هذا المعنى تم وصف جنوب العراق بـ سواد العراق وذلك لخصوبة أرضها. وبالتالي فإن التفسير المباشر للآية هو: جعل المرعى جافا أخضرا. وقد لا يظهر هذا مفهوما لنا؛ وذلك لأن في الآية تقليب؛ فأصل المعنى: جعل المرعى أحوى ثم يجعله غثاء، فتم اختصار هذه الجملة بعملية تقليب وهي "جعله غثاء أحوى". وهذا الأسلوب في البلاغة كانت تستخدمه العرب في أشعارها (وقد شرحنا بعضا من هذه الأساليب في الملحق السابع). والنقطة هنا أن القرآن كان يستخدم جميع أنواع البلاغة المعتمدة عند العرب في أشعارهم ولكن بأسلوب جديد لم يعرفوه من قبل.

###

والآن وبعد 1400 سنة من دراسة وتدبر القرآن فإننا نقول إن التحديات الأربعة قد انتهت قديما وذلك بعد إسلام من قد تم تحدِّيهم، وأما الآية "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" (88–الإسراء) فهي ما زالت فاعلة، وهي ليست آية تحدي وإنما آية إخبار. والعبارة: "مثل هذا القرآن" تتعلق بالبلاغة والتركيب والأعاجيب كُلها بمجموعها معًا.

ولهذا السبب فإنه ليس من المناسب الشعور بالغضب أو التذمر تجاه أناس مستشرقين يحاولون محاكاة القرآن؛ فإنهم قد يحاكون بعض الموسيقية وبعضا من بلاغة ولكن أين الأعاجيب في طيَّاتها! وإذا حدث أن ادَّعى أحدهم أنه استطاع وضع سورة شبيهة بالقرآن فإن الرد عليه بسيط: أخبرنا الله أنه لا بشر قادر أن يأتي بمثل هذا القرآن، وهذا جواب كاف. وإذا أراد الجدال فإننا نستطيع أن نبدأ من النقطة الأساس: كيف آمنا نحن بأن محمدا هو رسول الله وأن القرآن هو كتاب الله، وعندها نُثبت أن لا بشر قادر أن يأتي بمثل هذا القرآن وذلك بناء على آية الإسراء.

2.18# عالم الغيب والشهادة:

هناك شبهات تتعلق بعلم الله للمستقبل، وهذه الشبهات تتعلق **بالمجموعة الأولى** من الآيات التالية:

1. "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ" (143–البقرة).

2. "إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ" (142–آل عمران).

3. "وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ" (167–آل عمران).

4. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (94–المائدة).

5. "الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" (66–الأنفال).

6. "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (16–التوبة).

7. "فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا" (12–الكهف).

8. "أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" (3–العنكبوت).

9. "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ" (31–محمد).

10. "عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا" (28–الجن).

وفي المقابل فإنه توجد **المجموعة الثانية** من الآيات التي تتعلق بعلم الله تعالى:

- "قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ" (33–البقرة).
- "أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ" (77–البقرة).
- "قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (29–آل عمران).
- "جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (97–المائدة).
- "مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ" (99–المائدة).
- "وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (59–الأنعام).
- "وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ" (80–الأنعام).
- "أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ" (78–التوبة).
- "أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (6–هود).
- "اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ" (9–الرعد).
- "إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (18–الحجرات).
- "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ" (22–الحشر).

وضمن المجموعة الثانية فإن الله يعلم الغيب والشهادة.

وهنا قد نأتي إلى تعارضات في الفهم عندنا (مع التنبيه أن العرب المشركين لم يَنظروا إلى هذه الأمور نظرة تعارض وذلك لكون ما سبق هو وصف ضمن ما اعتادته العرب في وصف الأمور من مجاز وتشبيه واستعارات).

ولنفترض جدلا أننا لم نستطع التوفيق بين المجموعة الأولى والثانية، فماذا نفعل؟

والجواب: أن نحدد المسؤولية الملقاة علينا.

وهنا نسأل التالي ... هل المسؤولية الملقاة علينا (بناء على المبدأ الأول والمبدأ الخامس في الفصل الأول) تتطلب اعتماد المجموعة الأولى وتفسير المجموعة الثانية بناء عليها، أم تتطلب اعتماد المجموعة الثانية وتفسير المجموعة الأولى بناء عليها؟

وبمعنى آخر ... فإننا بين مجموعتين من الآيات وقد يظهر لنا (نظرا لحدود البلاغة عندنا أو لأي سبب آخر) التعارض فيما بينها، فأي المجموعة التي نعتبرها الأساس ضمن مسؤوليتنا؟

والجواب هو أن علينا أن نعتمد على المجموعة الثانية لأنها الأكثر وضوحا.

وهذا عموما هو التصرف الطبيعي حتى في حياتنا: فعندما تتعارض القرائن في إداراتنا وحياتنا فنحن نستخدم القرائن الأقوى والأوضح لتفسير القرائن الغامضة.

وهذه كذلك نقطة مهمة في البحث الفقهي: فإذا ظهر لنا التعارض بين الآيات أو بين آيات وأحاديث فإننا نبذل الجهد في محاولة التوفيق بينهم، ونبدأ التوفيق بالاعتماد على النصوص الأكثر وضوحا. وفي الحالة السابقة فإن المجموعة الأكثر وضوحا هي المجموعة الثانية، ومن خلال هذه المجموعة الثانية نحاول جهدنا تفسير المجموعة الأولى.

وقد قام العلماء السابقون بوضع التفاسير المختلفة للمجموعة الأولى:

- وأحد التفاسير هو أن "لِيَعْلَمَ" في بعض الآيات في المجموعة الأولى تعني "لِيَميز"، واستنتج العلماء ذلك من قوله تعالى: "لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ" (جزء من 37 – الأنفال). وهناك تفسير آخر أنها تعني "لِيُظْهِرَ". ونستطيع هنا إضافة معنى آخر وهو "لِيَشْهَدَ" وذلك لقول الله تعالى: "عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ" (22–الحشر).
- وهناك تفسير آخر موازي لما سبق (أي أنه يتعاضد مع التفسير السابق) أن الله هو عالم الغيب والشهادة، والشهادة هي علم الحاضر والماضي المشهود. والشهادة هي التي تُحَدِّد المكافئة والعقاب، أي أن العدالة تقتضي أن لا يتم معاقبة الشخص إلا بوجود الدليل المشهود، بمعنى آخر فإن العدالة لا تقبل معاقبة الشخص بدليل من الغيب ليس فيه شهادة.
- وهناك تفسير آخر أن "لِيَعْلَمَ" ليس المقصود به الله وحده وإنما الجميع: أي الرسول عليه السلام والمسلمون. ومن الممكن أن يكون هذا ضمن عادة العرب في البلاغة: فهم كانوا يُعَرِّفون الكل بأهم ما فيه أو يذكرون الكل ويقصدون الجزء أو يذكرون الجزء ويقصدون الكل.

ونستطيع هنا تقديم تفسير آخر كذلك: كل شيء في الكون له أنظمة وقواعد تُديره، ولهذا فمن غير المستغرب أن يكون هناك أنظمة وقواعد تدير ما وراء الكون. وبالتالي فإن الحساب والمحاكمة (للجنة أو النار) والمكافئات والعقوبات كلها تقع ضمن أنظمة وقواعد محددة. وبالتالي فإن "ليعلم" تعني الله والملائكة الذين تم تكليفهم بالأنظمة والقواعد المتعلقة بتسجيل الأعمال، وقد تم ذكر الله فقط من باب تعريف الكل بأهم ما فيه.

ولكن لنفترض أننا لم نقتنع بالتفاسير السابقة، فماذا نفعل؟

والجواب واضح من خلال المبدأ الخامس (في الفصل الأول): نعتمد على النصوص الأوضح ونؤمن بالنصوص الأقل وضوحا دون تأويل، وننتظر تتابع المعلومات إلى أن تأتينا المعلومات الكافية لتفسير تلك النصوص.

ونقطة أخيرة في هذا الموضوع وهي الآية: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا" (28-الجن).

وغلبة الظن أنَّ "ليعلم" تعود لله تعالى ويكون معناها "لِيَشْهَدَ" كما ذكرنا، وهذه الآية مفيدة جدا في علوم الجودة: فإن أحد المتطلبات الأساسية في علوم الجودة في المواضيع الحساسة أن يتم عمل التأكيدات المتكررة للجودة "Double Check or Multiple Check"، وفي هذه الآية فإن الله يبعث الرسل ويبعث الرَّصد عليهم كي يَشْهَدَ (وتشهد كذلك ملائكة التسجيل) أنهم قد نَفَّذوا المهمة. وللتدليل: فإن أحد الأمثال العربية للحَضِّ على الصبر والتريث هي: إنَّ الله قد خلق السماوات في ستة أيام مع أنه القادر على كل شيء،، وكذلك هنا: فإنَّ الله يُرسل الرَّصَدَ لِرُسُلِهِ مع أنه العليم بكل شيء.

2.19# القضاء والقدر:

هناك نظرية فلسفية قديمة قبل الإسلام أن الخالق قد قَدَّرَ وقضى كل الأمور، وأننا في هذه الحياة مُسَيَّرون ولسنا مُخيرين؛ فالذي كُتِبَ عليه الشقاء سيشقى والذي كُتِبَ عليه النعيم سينعم. وبالتالي فما هي الفائدة من الاجتهاد والتعب في هذه الحياة!!

وجاء بعد الإسلام فلاسفة (وتم تسميتهم بالجبرية) وأخذوا تلك الفكرة وطَعَّموها بنصوص إسلامية. ثم جاء الملحدون وأخذوا يتساءلون: إذا كان هناك خالق لهذا الكون فلماذا يقوم بإجبار المجرم على الجريمة ثم يتم معاقبة ذلك المجرم على تلك الجريمة! وهكذا.

دعونا أولا نضع **المجموعة الأولى** من بعض الآيات التي توحي بالتأييد لفرضية الجبر والتسيير:

1. "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (17-الأنفال).
2. "قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ" (97-الصافات).
3. "وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" (30-الإنسان).
4. "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (7-البقرة).
5. "أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" (23-الجاثية).
6. "وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ" (35-الأنعام).

7. "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ" (107–الأنعام).
8. "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (93–النحل).
9. "أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا" (79–النساء).

ولنضع هنا **المجموعة الثانية** من بعض الآيات التي تدل أن الإنسان له الخيار في تصرفاته وسلوكياته:

- "وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ" (20–الزخرف).
- "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148–الأنعام).
- "وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (90–النمل).
- "فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (25–آل عمران).
- "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (22–الجاثية).
- "أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ" (28–ص).
- "مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ" (46–فصلت).
- "ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ" (51–الأنفال).
- "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" (44–يونس).
- "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا" (40–النساء).
- "وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا" (49–الكهف).
- "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ" (47–الأنبياء).

دعونا الآن نبدأ القصة من أولها:

كما في المبدأ الأول (في الفصل الأول) فإننا مسؤولون حسب حدود قدراتنا والمعلومات المتوفرة لنا. وضمن نظرتنا للكون والحياة فإننا وجدنا أن الإنسان له أمور تتحكم فيه (مثل قوانين الكون المفروضة عليه)، وأمور أخرى يتحكم فيها،، وفي هذه الأمور الأخيرة يقوم الإنسان باختياراته. وضمن هذه الأمور فإن المجتمع يقوم بتقديم الثواب إليه إذا أحسن وإيقاع العقوبة عليه إذا أساء.

وما سبق هو ما اعتمدته جميع الحضارات الإنسانية السابقة، بما فيهم الفلاسفة الجبرية: فهم كانوا يُثيبون أولادهم إذا أحسنوا التصرف ويُعاقِبونهم إن أساؤوا التصرف. وكذلك فإن أولئك الفلاسفة الجبرية كانوا يعملون أملا في الثواب من المجتمع (وهو هنا الأجر والمال مقابل العمل والإنجاز)، وكذلك يبتعدون عن المخالفات القانونية والجنائية خوف العقوبة من المجتمع.

فموضوع سيطرة الإنسان على أموره وتصرفاته هي نظرة بشرية سائدة تعتمد على النظرة إلى قوانين الكون. وهذه النظرة متوافقة تماما مع المجموعة الثانية من الآيات. ولكنها قد لا تظهر متوافقة تماما مع المجموعة الأولى.

وهنا نعود إلى أسلوب النقاش نفسه في المسئلة السابقة ... هناك مجموعتان قد يظهر فيهما التعارض، ولكن كِلاهما كلام الله، فماذا نفعل؟

والجواب: أن نحاول التوفيق بينهما، ونعتمد في ذلك على المجموعة الأكثر وضوحا ودلالة.

ومن الواضح أن المجموعة الثانية هي الأكثر وضوحا، فهي تُصَرِّح بشكل لا لبس فيه أن الله لا يظلم الناس. وهذه المجموعة كذلك متوافقة تماما مع نظراتنا الكونية السَّابق ذكرها.

ونستطيع هنا القيام بتوفيق مريح بين المجموعة الأولى والثانية وذلك اعتمادا على المبدأ الثاني (في الفصل الأول): فنظام ما وراء الكون لا يتفق بالضرورة مع نظام الكون: فضمن نظام الكون فإنه إذا سيطر زيد على جرير فإن جريرا لا يُمكن أن يكون مُخَيَّرا. ولكن ما سبق يتعلق بقوانين الكون، وهذه القوانين لا تتفق بالضرورة مع نظام ما وراء الكون.

وضمن هذا التوفيق فإن النتيجة الطبيعية أن علم الله المستقبلي ومشيئته لا تَفرض ولا تجُبر الإنسان في اختياراته، وإنما الإنسان يَختار وبالتالي يُحْسن أو يُسيء. وضمن هذه الاختيارات فإنه إما أن يُثاب أو يُعاقب. وأما الكيفية التي يتحقق فيها ذلك (أي الكيفية التي تكون فيها مشيئة الله وعلمه غير مجبرة للإنسان في اختياراته) فهي خارجة عن علومنا لأنها جزء من نظام ما وراء الكون.

وهذه هي النقطة ... فالمجموعة الثانية تُثبت أن الله لا يظلم الناس، والمجموعة الأولى تُثبت أن كل أمر هو بيد الله. ولأن الأمرين متعلقان بما وراء الكون فلا علم لنا عن كيفية التلاقي بينهما، وكل ما نستطيع فعله هو أن نؤمن بهما كما هما. والذي يَتَشَوَّق لمعرفة الكيفية التي يتلاقى فيها هذان الأمران فليس عليه سوى أن يسأل الله عنها يوم الدِّين. وما سبق ليس سخرية على الإطلاق؛ وإنما لأن الإنسان ليس بمقدوره أن يستنتج الأنظمة المتعلقة بنظام ما وراء الكون، فإننا بحاجة (إذا أردنا معرفتها) أن نسأل الخالق عنها.

وانتبه أن كل ما سبق ليس تسليما بالتناقض:

- فقد تبين لنا مجموعتان من الآيات والتي يظهر فيهما التعارض.
- ولكننا (نحن المسلمين) قد اقتنعنا وبأدلة واضحة أن هناك خالقا للكون وأن القرآن هو كتاب الخالق. والتعارض بين المجموعتين لا يتعلق ولا يؤثر في هذه الأدلة.
- ولأننا نؤمن أن كِلتا المجموعتين هما من الله، فإن علينا أن نبحث عن المعنى الذي يتوافق معهما.

- ولأن المجموعة الثانية هي الأوضح فقد اعتمدناها أساسا في التوفيق.
- وتبين بعد الدراسة أن الموضوع يتعلق بنظام ما وراء الكون. وبالتالي فإنه من الطبيعي أن لا نفهمها.
- وبالتالي فإننا لم نقم بالتسليم للتناقض أو التعارض، وإنما أثبتنا أن الموضوع يتعلق بمجال لا يتفق مع قوانين الكون، وبالتالي لا نستطيع الاستنتاج فيه دون الحصول على المعلومات الضرورية المتعلقة به.

ونقطة أخيرة في هذا الموضوع يتعلق بالآيات الأخيرة في المجموعة الأولى وهي: "أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا" (79–النساء).

وغلبة التخمين أن الآية الأولى (آية 78) تتعلق بالتفاؤل والتشاؤم، وفي هذه الحالة فإن الحسنات والسيئات تأتي من الله تعالى (أي أنها مُقَدَّرة). وأما الآية التي تليها (آية 79) فإنها تتعلق بالأسباب والنتائج: والنجاح عموما يكون بحاجة إلى القليل من الحظ (ولهذا تم وصف النجاح أنه من الله)، في حين أن الفشل في معظمه يكون مرتبطا بمهارات وسلوكيات الشخص (ولهذا تم وصفه في الآية أنه من عند الشخص).

2.20# تعارض الغيب مع النظريات العلمية:

إنه لمن المؤكد وجود التعارض بين بعض الآيات في القرآن والنظريات العلمية. ولكن هذا يجب أن يكون مقبولا ضمن الإدراك للمبدأ الرابع (في الفصل الأول):

- فالأخبار في الآيات لم تأت تفصيلية؛ فعندما ذَكَرَت الآيات أن الشمس تجري لمستقر لها فإن هذه الآيات لم تُقَدِّم التفصيلات؛ فلا يوجد شرح عن: كيف ومتى وأين ولماذا،، وإنما جاءت الآيات إخبارا. وهذا طبيعي فالقرآن ليس كتاب فيزياء ولا كيمياء ولا طب، وإنما كتاب وعظ وتحذير وإرشاد وقانون.
- وفي المقابل فإن النظريات العلمية يجب أن تخطو إلى الخطأ كي تصل إلى الصحيح، وهذا قانون أبدي أساسي في المنهج العلمي: فالنظريات تبدأ عموما خاطئة (أو على الأقل غير دقيقة) ويتم تصحيحها وتشذيبها عبر الأجيال المتلاحقة.

وبالتالي إذا كانت هناك تعارضات بين الآيات والنظريات العملية فمن الممكن أن يكون فهمنا للآية غير دقيق، أو أن تكون النظرية العلمية ما زالت في طريق الخطأ إلى الصحيح.

والمفروض أنَّ العالم الإسلامي قد وصل إلى درجة المناعة فيما يتعلق بالتعارضات بين الغيب والنظريات العلمية، وتوجد عندنا على الأقل مناعتان:

والمناعة الأولى كانت في قوله تعالى "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ" (النمل–88)، وقد قام العلماء الأقدمون بتفسير الآية كما هي، ولكن لم يَقُم الناس بالابتعاد والرحيل عن الجبال بسبب هذه الآية وإنما كان هناك موقفان: الموقف الأول وهو الموقف الواقعي وهي أن الجبال ثابتة، والموقف الثاني وهو أن الجبال تمر مر السحاب دون أن نشعر بذلك. ولم يُؤثر أحد هذين

الموقفين على الآخر، وقد استطاع الناس (بعد قرون طويلة) التوفيق بين هذين الموقفين: وهو أن الأرض تدور حول نفسها وبالتالي فإن الجبال تتحرك على سطح الأرض مثل السحاب.

والمناعة الثانية كانت في قوله تعالى: "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" (40–يس). وقد ظهر للعلماء (حوالي عام 1550 ميلادية) أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وأنَّ الشمس ثابتة في مكانها، وكان هذا تعارضا واضحا مع الآيات السابقة. واستمر هذا التعارض حتى أوائل القرن التاسع عشر عندما تبين للعلماء أن الشمس تدور حول مركز المجرة.

وهذه هي النقطة هنا ... عندنا الكثير من المناعات التي تسمح لنا الآن النظر بشكل هادئ إلى التعارضات التي تظهر بين الآيات والنظريات العلمية.

وهناك الكثير من النظريات العلمية الحالية التي تظهر أنها متعارضة مع الآيات ومنها:

- نظرية أصل الإنسان، فالنظرية العلمية الحالية تقول إن الإنسان والقرد أصلهما واحد، في حين أن الآيات تقول إن الإنسان خُلِقَ من تراب. وقد بحثنا هذا الموضوع بتفصيل في كتاب سابق ("أصل الإنسان").
- والنظريات العلمية المتعلقة ببداية ونهاية الكون.

ولكن يجب أن نتذكر دائما أن النظريات العلمية يجب أن تخطو إلى الخطأ كي تصل إلى الصحيح، وبالتالي ليس من الحكمة أن نبتر العلم وهو في طريقه الخطأ إلى الصحيح، وإنما يجب أن نكون على يقين (وذلك من خلال المناعات التي أخذناها) أن الآيات والنظريات العلمية ستتوافق في المستقبل عاجلا أو آجلا.

وبالتالي فإن التصرف الأفضل هو أن نستخدم الفلسفة الألفية التي ذكرناها في الفصل الأول:

- نؤمن بالصريح الذي نفهمه من الآيات القرآنية.
- نمشي ونتماشى مع النظريات العلمية حتى يفرجها الله تعالى.

وقد شرحنا ما سبق بتفصيل في كتاب "الفلسفة الألفية ومنهج المقاربة".

2.21# لماذا آيات الغيب ليست واضحة:

ذكرنا في المسئلة السابقة أن التعارض بين الآيات المتعلقة "بمدار الشمس" قد استغرق عدة قرون حتى تم التوفيق بينها وبين النظريات العلمية. وهنا قد يأتي سؤال: لماذا لم يضع الله هذه الآيات بوضوح في كتابه؟ لماذا يجب على البشرية أن تنتظر 400 سنة من أجل أن نفهم التوافق بين هذه الآيات والنظريات العلمية؟

وما سبق لا يتعلق بآيات الشمس فقط، وإنما لجميع الآيات التي قد يظهر التعارض بينها وبين النظريات العلمية، والله قادر أن يُوَضِّحَ هذه الآيات دون لبس فلماذا لم يفعل ذلك؟

ولا نعرف الجواب يقينا، ولكننا إذا لم نستطع تقديم الجواب الكافي لهذا التساؤل فإن هذا لا يؤثر على الأدلة الرئيسية عندنا المتعلقة بوجود الخالق وصحة الرسالة المحمدية. وبالتالي فإن المبدأ الثالث (في الفصل الأول) ينطبق هنا.

وهناك قصة لأبي بكر الصديق فقد قال له المشركون صَباحَ الإسراء والمعراج: "هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة. فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه، فقالوا بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه" (سيرة ابن هشام).

بمعنى آخر فإننا إن صدقنا أن محمدا (وهو الرجل الأُمِّيُ في قلب الصحراء) هو رسول الله فإن علينا التصديق الكامل لِكُلِّ ما تواترت الأخبار عنه.

ورجوعا للسؤال السابق (لماذا عدم الوضوح) فقد ذكرنا أننا لا نعلم يقينا الحكمة في ذلك ولكننا نستطيع تقديم تفسير جيد له: وهو أن ديناميكية الكون في كل الأمور تقوم بنسج الفتنة في ثنايا النعمة. وعلى الإنسان أن يستثمر النعمة ولكن عليه كذلك أن ينتبه ويحتاط للفتنة.

فمثلا المال: فهو نعمة كبيرة، ولكنَّ الغَنِيَّ الذي يعتمد على السيارات في جميع تنقلاته ويذهب من المنزل إلى العمل ومن العمل إلى المنزل دون حركة فإنه سَيُصاب حتما بأمراض كثيرة. والحل لذلك الشخص أن يلعب الرياضة بشكل دوري، وهو بهذه الحالة قد استفاد من المال واحتاط لتلك الفتنة المنسوجة فيها.

والقرآن هو نعمة كبيرة جدا ... فقد استطاع القرآن أن يُوَحِّدَ أمة متفرقة متشققة وليصبحوا الدولة الأولى في العالم وخلال وقت قصير جدا. وهذه الأمة مع ضعفها الحالي إلا أنها ما زالت قائمة وواقفة. وفي المقابل فإنه توجد في القرآن فتنة للكافرين والمنافقين، فقد قال الله تعالى:

- "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" (7–آل عمران).
- "أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ" (63–الصافات).
وسبب النزول هو أن المشركين عندما سمعوا عن شجرة الزقوم قالوا: كيف ينبت الشجر في النار، والنار تحرق الشجر؟ (تفسير الطبري)، فجاءت الآية التي تليها تقول إن ما سبق كان فتنة للظالمين.
- "وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ" (31–المدثر).
- "وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ" (125–التوبة).

وبالتالي فإن الشخص الذي يريد أن يُنافق فإنه سيجد في الآيات ما يستطيع هندسته وتأويله لكي يُبَرِّر به أعماله. والشخص الذي يريد أن يَكْفُرَ فإنه يستطيع أن يجد في الآيات ما يكفيه من الأعذار للكفر.

وأما المؤمنون فربما لا يستطيعون الإجابة على جميع التساؤلات التي تأتيهم، ولكنَّ عندهم ما يكفي من الأدلة التي تُثبت لهم وجود الخالق وصحة الرسالة المحمدية، وبالتالي هم يُؤمنون بكل الذي جاءهم في القرآن. وهذا يُؤيده قول الله تعالى " وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا" (7 آل عمران).

ونريد هنا التأكيد أنَّ الإيمان التام بالآيات لا يمنع التساؤل والبحث، وكما ظهرت حاليا المعاني المريحة المتوافقة للكثير من الآيات، فإن المعاني المريحة المتوافقة لباقي الآيات ستظهر لاحقا عاجلا أو آجلا.

ومن المفيد هنا التنبيه "للاستمزاج" (اطلاق الأحكام بناء على الهوى والمزاج) الذي يقوم به البعض في شرح النصوص: فهم يأخذون نصا من النصوص ويستنتجون الفكرة منها مباشرة دون الاهتمام بالنظر إلى الآيات والأحاديث الأخرى ذات العلاقة. وهذا ما يُمكن تسميته كذلك بـ "التجمد النصي" وهو أن تتجمد في النص وتستنتج منه دون أن تهتم بالإحاطة بباقي النصوص (إن وجدت). والمشكلة هنا أن النصوص في القرآن والأحاديث تُفسر وتَشرح بعضها البعض، وبالتالي فإن التجمد في النص هو خطيئة كبيرة لأن حدود المعنى في الآية لا يتم الإنتباه له إلا بالإحاطة بالنصوص الأخرى ذات العلاقة.

ومن الضروري هنا الانتباه لقول الله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" (7–آل عمران).

وكما قلنا في مسائل سابقة فإننا نقوم بالتوفيق بين الآيات التي قد تظهر متعارضة وذلك بالاعتماد على الواضح منها ومن ثم نستخدم ذلك الواضح لتفسير الأقل وضوحا، وهذا ما قصدناه في قولنا أن الآيات تشرح بعضها البعض. ولكن هناك من لا يعتمد على الأوضح وإنما يستغل الأقل وضوحا (المتشابهات) لتبرير ضلالاته ("ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ") وتحريف المعاني الواضحة ("ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ").

وبالتالي فإن هناك نعمة كبيرة في القرآن، وفيه كذلك فتنة للكافرين والمنافقين والمتفلسفين، والظاهر أن عدم الوضوح في بعض الآيات قد جاء فتنة لهم (مع التنبيه أن هذه الآيات تتوضح يوما بعد يوم).

وكذلك نستطيع الانتباه لفوائد أخرى لوجود بعض الغموض في القرآن:

- فبعض الغموض في القرآن هو الذي دفع العلماء المسلمين للتفكير والبحث والدراسة والتمحيص والمناقشة، وهذا كله في غاية الأهمية.
- تعامل المسلمين مع هذا الغموض هو معيار لمستوى الرقي (أو عدم الرقي) عندهم. فوجود بعض الغموض في القرآن يعني وجود عدة تفسيرات مقبولة في شرحها. وسيكون أمرا راقيا إن قام المسلمون بالتراحم فيما بينهم في هذه التفسيرات. وسيكون المسلمون في مستو منخفض من الرقي إن تصارعوا وتسابوا فيما بينهم في هذه التفسيرات، وهم في هذه الحالة لا يقدرون على حكم أنفسهم وبالتالي لا يستحقون أن يحكموا العالم.

دعونا نشرح هذه النقطة الأخيرة بتفصيل:

قال الله تعالى: "أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ" (النساء 43). وهناك رأيان في هذا النص: الملامسة تعني اللمس بمعناه المجرد، وبالتالي فإن مصافحة النساء تنقض الوضوء. والثاني أنّ الملامسة هنا كناية عن المعاشرة، وبالتالي فإن مصافحة النساء لا تنقض الوضوء.

وكلا الرأيين مبنيَّان بشكل مقبول على الأربعة: "النصوص الشرعية والأصول الشرعية وبلاغة العرب وقت القرآن ومنطق الأمور". ولكن مقبولية البناء في النتيجة لا تعني أن النتيجة صحيحة. بالطبع فإن صحة البناء لنتيجة في الرياضيات تعني أن النتيجة صحيحة، ولكن لا يوجد في الرياضيات منطقة رمادية والأمر فيها إما صحيح أو خطأ. ولكن في التحليل الشرعي والتاريخي والإداري والإستراتيجي فهناك مناطق رمادية كثيرة ويتم فيها الاختيار. فمثلا في التحليل الشرعي للنصوص فإن الألفاظ لها عدة معاني ضمن بلاغة العرب وقت القرآن، ويأتي المجتهد ويختار معنًى منها، وهذا الاختيار يكون مقبولا إذا لم يتعارض بشكل صريح مع النصوص الأخرى. وبالتالي فهناك عدة نتائج مقبولة من حيث البناء ولكنَّ واحدة منها فقط هي الصحيحة.

وهذه هي النقطة ... إذا تراحم المسلمون فيما بينهم في هذه النتائج المقبولة مع اختلافهم فيها فهذا يدل على مستوً راق جدا في النظرة والتصرف والحياة. وأما إذا تصارعوا وتسابوا فيما بينهم في هذه النتائج المقبولة، وأخذ كل منهم يتعصب لرأيه ويستسخف ويسخر بالنتائج المقبولة الأخرى (كما حدث في القرن الثالث والرابع الهجري) فإن هذا يدل على مستوً غير راق للمسلمين. ويدل كذلك أن المسلمين قد لَجُّوا في صراعات داخلية مريرة، وأنهم لم يعودوا قادرين على حكم أنفسهم (ناهيك عن حكم العالم)، وأنهم أصبحوا مطمعا للآخرين.

ومن المفيد هنا التنبيه لنعمتين كبيرتين ولكنَّ فيهما فتنتين كبيرتين كذلك منسوجة فيهما:

- الروحانية (وهي شدة التعبد لله) هي نعمة كبيرة؛ حيث إنها أفضل أداة يُمكن استخدامها للشعور بالاطمئنان في بحر التَّغيرات والتقلبات والغموض والقلق. ولكن هناك فتنة منسوجة فيها؛ وهي أن شدة الروحانية تؤدي إلى تَعصب الشخص لرأيه وآراء أساتذته، والظاهر أن شدة الروحانية تجعل الشخص لا يرتاح للغموض ويبدأ النظر للأمور إما صحيح تام وإما خطأ تام. وهذه فتنة منسوجة في نعمة كبيرة.

  والسؤال هنا ... هل يستطيع المسلمون ذوي الروحانية العالية الانتباه لهذه الفتنة والحيطة منها؟ فمن نافل القول إن كثيرا من المسلمين ذوو روحانية عالية، ولهذا السبب إنْ طغت فيهم هذه الفتنة فإن لها عواقب سيئة جدا قد خبرناها نحن المسلمين في القرون الماضية.
- الاحتراف هي نعمة كبيرة جدا، ولكنَّ فيها فتنة منسوجة فيها؛ حيث إن بعض المحترفين (من علماء الدين وعلماء الدنيا) قد وصلوا إلى درجة من الاحتراف وإذا بهم ينظرون لأنفسهم أنهم "لا أحد مثلهم" وأنهم الأعلم الأذكى الأقدر (إلخ). وهذه فتنة سيئة؛ فهي السبب في التعصب للرأي والاستخفاف والسخرية من الأراء المقبولة الأخرى.

ولهذا نقول إن تعامل المسلمين مع الآيات غير الواضحة في القرآن هو معيار لمستوى الرقي عندهم.

2.22# لماذا لا أبناء:

لنفترض أن أحد المستشرقين قد تساءل: ما المانع أن يكون للخالق أبناء وبنات وحفدة وحفيدات؟

والجواب السريع المباشر هو أن الله قد قال: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" (4–الإخلاص).

ولكن لهذا الموضوع بقية:

فإن المعنى الحرفي للإبن في العصور السابقة هو طفل قد جاء بعد تسعة أشهر من قيام ذكر وأنثى بممارسة الغريزة الزوجية. وكذلك فإن المعنى الحرفي للأب في العصور القديمة هو شخص مارس غريزته الزوجية مع أنثى ونتج عن ذلك طفل وذلك بعد تسعة أشهر من تلك الممارسة.

وما سبق هو المعنى الحرفي، ولكن هناك معاني مجازية للأب والإبن: فعندما يتبنى شخص طفلا فإنه يُقال مجازا عن الشخص أنه أبو الطفل ويقال للطفل أنه ابن ذلك الشخص. وربما يقول أحد الصغار عن الكبير أنه الأب وذلك من باب الاحترام والتقدير، وربما يقول أحد الكبار عن الصغير أنه ابنه، وذلك من باب المودة. وكل ما سبق هي معاني مجازية، وأما المعنى الحرفي فهو ما قلناه في الفقرة السابقة.

وممارسة الغريزة هي صفة حيوانية غريزية موجودة في جميع الدَّواب، وبالتالي عندما يأتي أحد ويقول إن عيسى هو ابن الله (ويقصد المعنى الحرفي للابن) فإن هذا ظلم وبهتان شديد جدا في حق الخالق. وربما هذا هو المقصود في قوله تعالى: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (88) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (93–مريم).

وقد كنتُ في نقاش مع صديق مسيحي في هذا الموضوع، وأخبرته عن المعنى الحرفي للأب والإبن وأن هذا لا يليق أبدا في حق الخالق، فأخبرني أن الأبوة هنا مجازية وليست حرفية، فسألته: إن كان الأمر كذلك فمن هو الأب الحقيقي للمسيح؟

وابتسم صديقي وقال أنه لا يعرف. وللحق فإن صديقي كان مهندسا ميكانيكيا ولا معرفة عنده في علم اللَّاهوت، ولو كان كذلك لأدخلني وأخرجني في طلاسم من الفلسفة اليونانية اللاهوتية. ومن المفيد التوضيح أن الفلسفة اليونانية القديمة تختلف تماما عن التحليل الفلسفي الحديث: فإن الإزاحة والعجن اللغوي هي أساليب أساسية في الفلسفة اليونانية القديمة، وهي غير معتمدة ولا مقبولة في التحليل الفلسفي الحديث.

والإزاحة اللغوية هي محاولة إثبات الأشياء عن طريق استخدام تقاطع المعاني في الكلمات. وانظر للمثال التالي:

- نحن نرى أن "أ" يُسبب "ب"، مثلا: حركة الحجر تُسبب كسر الزجاج.
- وهنا نستطيع أن نقول إن "أ" يُجبر "ب" على الحدوث.
- ولكن الإجبار فيه إرادة.
- وهنا نستطيع أن نقول إن إرادة "أ" فُرِضَت على "ب".
- وهذا معناه وجود إرادة لـ "أ".
- أي أن الأحجار (وجميع المُسببات المختلفة) لها إرادة بذاتها.
- ولكن كل إرادة تتبع من شخصية مميزة، وكل إرادة وشخصية لها القدرة على الاختيار.
- وبالتالي فإن الأحجار لها إرادة وشخصية ولها حرية الاختيار.

ومن خلال هذه الطريقة في فلسفة الأمور فإن الشخص قادر على الانتقال من مفهوم "السبب والمسبب" إلى مفهوم آخر غير منطقي على الإطلاق.

وبالطبع فإن هذا المثال واضح في خطئه، وهذا هو المطلوب؛ وهو تبيان الكيفية التي كان الفلاسفة اليونانيون (وخصوصا السفسطائية اليونانية القديمة) يقومون بإثبات أفكارهم. والإستخدام المسرف للإزاحة اللغوية ينتج عنه العجن اللغوي وهو القيام بالإزاحة اللغوية مرة وأخرى وأخرى وبالضبط مثل الخباز الذي يمسك الطحين ويَعجنها مرة وأخرى وأخرى. وقد شرحنا هذا الموضوع في كتاب سابق ("مهارات الربط والتحليل المنطقي").

وأما التحليل الفلسفي الحديث فهو يَتَعَمَّدُ التوقف في كل خطوة في الاستنتاج ويُحاول التحقق من صلاحية الاستنتاج وذلك بمقارنته بالمعلومات المتوفرة، ويُحاول إثبات الاستنتاج (إن أمكن) بمنهجيات موضوعية،، ومن ثم يتم ينتقل إلى الخطوة التالية في الاستنتاج. وبالتالي فإن الإزاحة اللغوية ستتكشف سريعا في هذا التحليل وبالتالي يكون تأثيرها ضعيفا.

ورجوعا لموضوع الأب والإبن ... فإن علماء اللَّاهوت المسيحيين لا يقبلون للخالق ممارسة الغريزة الزوجية، ولكنهم في الوقت نفسه يعتبرون أن الأبوة والبنوة هي بمعناها الحرفي وليس المجازي. بل إن طائفة من المسيحيين يعتبرون أن الأبوة والبنوة هما أمران شكليان وأن الأب والإبن هما شيء واحد؛ وهم في هذه النظرة يعتبرون أن الخالق نفسه قد تَجَسَّدَ في صورة الإبن وجاء إلى الأرض من خلال رحم السيدة مريم. وتقوم جميع هذه الطوائف المسيحية بتفسير أفكارهم من خلال الأساليب الفلسفية اليونانية.

وفي نهاية هذه المسئلة فإننا نقول إن هناك معنًى حرفيا واضحا محددا لمفهوم الأب والابن في القرون السابقة، وفي هذا المعنى بهتان لا يليق بجلالة الخالق، وهذا هو الجواب الطويل للمسئلة. وأما الجواب السريع المباشر فهو قول الله تعالى أنه "لم يلد ولم يولد".

2.23# محمد أم أحمد:

لقد قال الله تعالى: "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ" (6-الصف).

وهنا قد يأتي أحد ويقول: إمَّا أن المسيح قد أخطأ الإسم، أو أن النبي الحقيقي اسمه أحمد وليس محمدا.

فكيف نُجيب على ذلك؟

والمشكلة هنا تتعلق بالوصف المنطقي؛ فقد تم وصف الأمر أنه إما "أ" أو "ب"، ولا يمكن أن يكون "أ"، ولا يمكن أن يكون "ب". وبالتالي يوجد تناقض.

ولكن الوصف السابق ليس بالضروري أن يكون صحيحا؛ إذ يمكننا أن نعدله كالتالي: : إمَّا أن المسيح قد أخطأ الإسم، أو أن النبي الحقيقي اسمه أحمد وليس محمدا، أو أنه يوجد أمر لا نفهمه بعد.

وبالتالي تحول ذلك الوصف المنطقي إلى: إما "أ" أو "ب" أو "ج".

وبالتالي يصبح التساؤل هو: لماذا ذكر المسيح أن اسم الرسول هو أحمد وليس محمدا؟

وهنا نرجع للمبدأ الثالث (في الفصل الأول)، فما سبق لا يَتعلق ولا يُؤثر في قوة الأدلة المتعلقة بوجود الخالق وصحة الرسالة المحمدية؛ وبالتالي إن استطعنا أن نجيب على السؤال فَنِعِمَّا به، وإن لم نستطع الآن، فهذا معناه أنه من الآيات التي سنعرف تفسيرها في يوم لاحق من الأيام.

ولكننا نستطيع هنا تقديم تخمين جيد للسؤال السابق:

أولا: لا أحد من العرب قد سأل الرسول عليه السلام عن هذا الاختلاف، وضمن عادات العرب فإنه من الممكن تعديل الاسم في الشعر أو النثر: فنستطيع أن ننادي عنترة بـ "عنتر" وننادي عبلة بـ "عبل"، إلخ. فعدم وجود أي اعتراض يدل أن الأمر ليس فيه تعارض.

وفي المقابل: عندما ذَكَرَ القرآن قصة مريم في الآية: "يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا" (28–مريم) فإنه قد جاءت تساؤلات للرسول أن الزمن بين مريم وهارون هي مئات السنين، فأجابهم الرسول عليه السلام أن الناس كانت تتسمى بأسماء الأنبياء.

وما سبق يدل أن العرب لم تر تعارضا بين الاسمين: أحمد ومحمد.

ولكن يبقى السؤال ... لماذا ذكر المسيح أحمد ولم يذكر محمدا؟

وإن من عادة العرب أن يُعَرِّبوا الاسم ويترجموا اللقب، فمثلا: في "شارل المطرقة" فإنَّ شارل هو تعريب الاسم والمطرقة هي ترجمة اللقب. ولكن ربما (وأقول ربما) في حالة المسيح أنه قام بترجمة "محمد" إلى الآرامية ومن ثم قام القرآن بترجمة الترجمة فأصبحت "أحمد". وما سبق هو تخمين لا دليل عليه، وربما يستطيع علماء اللغة الأرامية المساعدة في تحليل ما سبق.

وسنتحدث في الملحق الثامن (النَّبي في التوراة والإنجيل) عن علاقة "آية أحمد" مع موضوع المُعَزِّي (البارقليط) الموجود في النصوص المسيحية.

2.24# عيسى أم يسوع:

يوجد اعتراض من بعض المسيحيين لقيام القرآن بتسمية المسيح بعيسى وليس يسوع، وبعضهم يعتبر أنَّ هذا استفزاز لهم من القرآن.

وهنا يأتي التساؤل ... لماذا قام القرآن بتسمية المسيح بـ عيسى؟

وربما لا نستطيع الإجابة يقينا على هذا التساؤل، ولكنه لا يؤثر على قوة الأدلة المتعلقة بوجود الخالق، ولا على قوة الأدلة المتعلقة بصحة الرسالة المحمدية. وبالتالي إذا استطعنا الإجابة على التساؤل السابق فهذا أمر جيد، وإذا لم نستطع فإن الجواب المريح سيأتي في يوم لاحق (عاجل أو آجل) كما جاءت الأجوبة المريحة للكثير من التساؤلات الأخرى.

ولكن يوجد جواب للتساؤل السابق وهو ذو غلبة ظن عالية. ولكن لنبدأ من الملاحظة التالية:

لم يعترض أهل نجران عند مقابلتهم للرسول عليه السلام على موضوع تسمية المسيح بـ عيسى.

لماذا؟

والجواب المباشر على ذلك هو أن المسيح عند أهل نجران كان "عيسى" وذلك قبل الإسلام.

ولكن كيف ذلك؟

وهنا نبدأ القصة من أولها:

فضمن المراجع فإن الاسم الأصلي للمسيح هو يشوع وهو الاسم المنتشر عند السيريان. وأما في وثائقيات اليوتيوب فإن الاسم هو يَشُوَا (يَ.شُ.وا)، والسبب (على غلبة التخمين) أن الغرب لا ينطق حرف العين وبالتالي فقد تحول العين إلى مد.

[وهنا يجب التنبيه عن خطأ في كتاب سابق ("الجن") في اسم المسيح والذي كان فيه "يَهوسو"].

وعندما حَكَمَ الغساسنة بادية الشام (وهم عرب أقحاح) واعتنقوا الديانة المسيحية فقد قاموا بتعريب الاسم إلى "يسوع". وأما اليونان فقد قاموا بنقل الاسم (أي جعل الاسم مطابقا لموسيقية اللغة اليونانية) إلى "ياسوس"، وأما الرومان فقد نقلوه إلى "ييسوس". وانتقلت الديانة المسيحية بالدعوة إلى الحبشة، وكان اسم المسيح عندهم إيَسوس، ومنها انتقلت المسيحية إلى اليمن؛ فالمسيحية في اليمن لم تأت من الغساسنة وإنما جاءت من الحبشة. وقام أهل اليمن بتعريب اسم المسيح "إيَسوس" إلى عيسى. وهذا هو السبب في عدم اعتراض مسيحيي اليمن على الاسم. وعندما جاء الإسلام فإنه أقرَّ الاسم لأن العرب في الجزيرة (باستثناء الغساسنة) كانوا يعتبرون أن اسم المسيح هو عيسى.

وإذا نظرنا للنُّطق العربي فإن "عيسى" أولى من "يسوع" لأنه من النادر أن تجد اسم علم على وزن المضارع "يفول" مثل: يدور يجول يقول يروح يسوق يعول يروم إلخ.

وعندما فتح المسلمون بلاد الشام ومصر وانتشرت اللغة العربية وأصبحت هي اللغة الدارجة في تلك البلاد فإن الأقباط فضلوا استخدام الاسم الغَسَّاني للمسيح.

الآن ... ربما لا يتفق معنا إخوتنا المسيحيون في بلادنا على هذا التحليل (والمسيحيون في بلادنا هم إخوة لنا في الوطن والأرض والمعشر ومنذ مئات السنين وبيننا وبينهم الخبز والزيت). ولكن إذا استمروا يظنون أن استخدام القرآن اسم عيسى للمسيح هو استفزاز؛ فليس أقل من أن نسألهم: لماذا تستخدمون اسم "يسوع" للمسيح ولم يكن هكذا اسمه وإنما "يشوع"، ولماذا تَقبلون أن يقوم اليونانيون بتسمية المسيح "ياسوس"، ولماذا تسمحون للإنجليز والأمريكان أن يُسموا المسيح "جيساس"، وهذه كلها لم تكن اسمه!!

بمعنى آخر فإنه لا يحق لإخوتنا المسيحيين انتقادنا في تسمية المسيح إذا كانوا هم أنفسهم لا يُسَمُّون المسيح باسمه الأصلي.

2.25# النصاري أم المسيحيون:

هناك بعض الإخوة المسيحيين من يعترض على قيام القرآن بتسميتهم نصارى بدلا من مسيحيين، ويظن بعضهم أن هذا استخفاف بهم.

وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة.

ولنبدأ القصة من أولها:

اسم المسيح عند الناس ذلك الوقت كان "يشوع الناصري" وذلك لأنه كان من مدينة الناصرة. وهذا ليس ادعاء؛ فهناك عدة كنائس في أوروبا وأمريكا اسمها: "كنيسة المسيح عيسى النَّاصري" -- The Jesus Christ of Nazareth Church. ولم يقم المسيح بتأسيس ديانة جديدة وإنما تم رفعه إلى السماء قبل إتمام دعوته، وقد قال الله تعالى: "كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" (المجادلة-21)، والمسيح قد رُفِعَ مغلوبا وليس غالبا، وهذا يتطلب رجوعه لاتمام الدعوة.

ولأن المسيح لم يُؤسس ديانة جديدة ذلك الوقت فإن أتباع المسيح كانوا ملتزمين بقوانين موسى (قوانين التوراة). واشْتُهِرَ أتباع المسيح وقتها بـ "النصارى" (Nazarene) نسبة إلى الاسم المشهور للمسيح وهو: يشوع الناصري. وقد استلم إمامة النصارى (بعد ارتفاع المسيح) رجل قريب له اسمه يعقوب (James the Just).

وبعد 30 سنة من ارتفاع المسيح آمن بولس (Paul of Tarsus) به وأصبح يدعو للنصرانية. ولكنه وجد آذانا صاغية عند غير اليهود (Gentile) كاليونانيين والآراميين والرومان في فلسطين والشام. ولكن كانت هناك مشكلة: وهي أن هؤلاء الناس لم يقبلوا الختان (وخصوصا الكبار) ولم يقبلوا التخلي عن لحم الخنزير أو التخلي عن طقوس الأعياد. واستشير يعقوب في ذلك، والظاهر أنه قد رفض المساس بقوانين موسى.

واستمر بولس بدعوة غير اليهود ولكن دون أن يفرض عليهم قوانين موسى، وأخذ يقول إن المسيح قد تم صلبه تكفيرا لذنوب المؤمنين وعليه فإن قوانين موسى لم تعد ملزمة، وهنا بدأت الفجوة تظهر بين يعقوب وبولس. ومع الوقت واجه بولس مشكلة وهي أنه كان يتحدث باسم يعقوب دون أن يلتزم بمذهبه، وهذا أدى الى تساؤلات في مصداقيته أمام المؤمنين الجدد. وجاء بولس الى القدس ومعه الصدقات من المؤمنين الجدد في محاولة منه لردم الفجوة بينه وبين يعقوب، وعندها سأله يعقوب عما يسمعه من الأخبار أن بولس يدعو لعدم التقيد بقوانين موسى (الناموس). والظاهر أن بولس قد أنكر ذلك، وعندها أمره يعقوب أن يذهب إلى الهيكل ويتطهر هناك لكي يعلم الناس أن هذه الأخبار غير صحيحة، وهذا مذكور في سفر أعمال الرسل 21.21:

> 21 وَقَدْ أُخْبِرُوا عَنْكَ أَنَّكَ تُعَلِّمُ جَمِيعَ الْيَهُودِ الَّذِينَ بَيْنَ الأُمَمِ الارْتِدَادَ عَنْ مُوسَى، قَائِلًا أَنْ لاَ يَخْتِنُوا أَوْلاَدَهُمْ وَلاَ يَسْلُكُوا حَسَبَ الْعَوَائِدِ. 22 فَإِذًا مَاذَا يَكُونُ؟ لاَ بُدَّ عَلَى كُلِّ حَال أَنْ يَجْتَمِعَ الْجُمْهُورُ، لأَنَّهُمْ سَيَسْمَعُونَ أَنَّكَ قَدْ جِئْتَ. 23 فَافْعَلْ هذَا الَّذِي نَقُولُ لَكَ: عِنْدَنَا أَرْبَعَةُ رِجَال عَلَيْهِمْ نَذْرٌ. 24 خُذْ هؤُلاَءِ وَتَطَهَّرْ مَعَهُمْ وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ لِيَحْلِقُوا رُؤُوسَهُمْ، فَيَعْلَمَ الْجَمِيعُ أَنْ لَيْسَ شَيْءٌ مِمَّا أُخْبِرُوا عَنْكَ، بَلْ تَسْلُكُ أَنْتَ أَيْضًا حَافِظًا لِلنَّامُوسِ.

[ونحن على انتباه أن النص السابق يتعلق باليهود ولا يوجد ذِكْر للمؤمنين الجدد من غير اليهود. ولكنه من واقع الحال أنَّ بولس لم يكن يدعو اليهود خاصة إلى النصرانية وإنما جل دعوته كانت لغير اليهود. ولهذا نظن أن الخلاف بين يعقوب وبولس كان متعلقا بقوانين موسى بغض النظر كانت الدعوة موجهة إلى اليهود أو غيرهم. وهنا يجب التنبيه أن الدعوة إلى النصرانية ذلك الوقت تَطَلَّبت الإنتماء إلى اليهودية، حيث إن النصرانية ذلك الوقت لم تكن دينا جديدا، وإنما كانت مذهبا في الديانة اليهودية.

ويوجد نص في "أعمال الرسل" (15:28–29) والذي يُفهم منه أن يعقوب قد سمح للمؤمنين الجدد من غير اليهود بعدم الاختتان وأنه حدَّدَ عليهم المحرمات:

28 لأَنَّهُ قَدْ رَأَى الرُّوحُ الْقُدُسُ وَنَحْنُ، أَنْ لاَ نَضَعَ عَلَيْكُمْ ثِقْلًا أَكْثَرَ، غَيْرَ هذِهِ الأَشْيَاءِ الْوَاجِبَةِ: 29 أَنْ تَمْتَنِعُوا عَمَّا ذُبِحَ لِلأَصْنَامِ، وَعَنِ الدَّمِ، وَالْمَخْنُوقِ، وَالزِّنَا، الَّتِي إِنْ حَفِظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنْهَا فَنِعِمَّا تَفْعَلُونَ. كُونُوا مُعَافَيْنَ.

وكذلك يوجد في "أعمال الرسل" (21.25) نص ليعقوب يقول لبولس:

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الأُمَمِ، فَأَرْسَلْنَا نَحْنُ إِلَيْهِمْ وَحَكَمْنَا أَنْ لاَ يَحْفَظُوا شَيْئًا مِثْلَ ذلِكَ، سِوَى أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِمَّا ذُبِحَ لِلأَصْنَامِ، وَمِنَ الدَّمِ، وَالْمَخْنُوقِ، وَالزِّنَا».

ولكننا نستعبد صحة هذه النصوص؛ حيث إننا لا نظن (مثلًا) أن يعقوب قد منع الدم عن المؤمنين الجدد وسمح لهم بأكل الخنزير. وكذلك لو أن يعقوب قد سمح بعدم الاختتان لاستشهد بولس بذلك صراحة في رسالته إلى أهل غلاطية، ولكن بولس لم يستشهد بذلك، وإنما كان غاضبا حانقا على أهل غلاطية لأنهم قرروا الاختتان.

وهنا قد يأتي سؤال: لقد استشهدنا في موضع بنص من سفر أعمال الرسل، وفي موضع آخر استبعدنا نصا في ذلك السَّفر. فهل نحن نختار من هذا السفر ما نريده ونستبعد ما لا نريده ارتجالًا؟

والجواب: بالطبع لا، وإنما يوجد هنا منهج في الاستشهاد والاستبعاد:

فسفر أعمال الرسل هو كتاب وضعه شخص مجهول الهوية، وفيه قام هذا المؤلف بجمع الأخبار من شهود غير معروفين لنا، وبالتالي فإن هذا الكتاب هو "نقل للأجيال" (Anonymous Oral Tradition) جمعه شخص مجهول. وهذا النقل فيه الصحيح وفيه الخطأ (كما سيتم ذكره في الملحق الخامس)، وبالتالي فلا بد من منهجية تسمح لنا بفلترة (تمييز) الأخبار الصحيحة عن الخاطئة. وأحد العناصر في هذه المنهجية هو تحديد المعلومات المؤكدة لنا والتي يُمكننا من خلالها الاستشهاد أو الاستبعاد لنصوص هذا السَّفر. وإحدى المعلومات المؤكدة من مراجع مختلفة (غير سفر الأعمال) هو وجود الخلاف بين يعقوب وبولس، وبالتالي فإن المناقشة التي أخذناها من السَّفر (21.21) تتوافق مع هذه المعلومات. وفي المقابل، فإننا نستطيع استبعاد النص المتعلق بتحديد المُحَرَّمات (15.29) وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقا].

وذهب بولس إلى الهيكل وهناك تعرَّف عليه البعض واشتكوه إلى السلطات الدينية، وهنا أظهر بولس أنه يَحمل الجنسية الرومانية (وقد كانت الجنسية الرومانية وقتها خاصة لأهل روما، والظاهر أنه قد حصل عليها عبر والده والذي كان مقربا من السلطات في روما)، وهذا ما جعل الرومان يقومون بحمايته. وقد طالبت السلطات الدينية

باعدام بولس، وبعد أخذ ورد قام بولس بتفعيل حقه (كمواطن روماني) بتحكيم الإمبراطور، وهنا قامت السلطات الرومانية بإرسال بولس إلى روما عام 60 ميلادية منتظرا حكم الإمبراطور في أمره.

ولا يَظهر أي نشاط دَعَوِي لبولس في روما أثناء وجوده فيها، ونستطيع القول إن دعوته قد خبت، ويوجد سبب وجيه لذلك؛ إذ إنَّ أكثر ما يُمكن أن يُقال عن بولس وقتها أنه قد شاهد المسيح في رؤيا، وأقل ما يُمكن أن يُقال عن يعقوب وقتها أنه قريب المسيح وخليفته، فما كان يُمكن لكلمة بولس أن تطغى على كلمة يعقوب.

وتم اعدام بولس في روما حوالي 64 ميلادية بأوامر من الإمبراطور نيرو، وليس بسبب معتقداته وإنما كان كبش فداء للحريق الذي حدث في روما وقتها. وفي 66 ميلادية قامت الثورة اليهودية تجاه الرومان والتي تم اخمادها عام 70 ميلادية، وعلى إثرها تم تدمير القدس تماما. وقد أدى هذا إلى إنهاء السلطة الدينية للنصارى المتمركزة في القدس، مما أعطى الفرصة للكنائس المسيحية الإغريقية بالاستقلال.

وضمن النظرة العامة للأمور فإن عدم وجود المرجعية الواضحة في الديانة أو عدم وجود النظام المركزي فيها قد يجعل هذه الديانة تنحو نحو الفكرة الليبرالية (وهي أن الإيمان أولى وأهم من القوانين والأحكام). وهذا ما حدث للكنائس المسيحية الإغريقية بعد عام 70 ميلادية، وهنا أصبحت لكلمات بولس ورسائله التأثير الكبير في تحديد الوجهة العامة للكنائس الإغريقية. والظاهر أن الكنائس الإغريقية قد فَضَّلت تسمية الديانة بـ "المسيحية" وذلك تمييزا لهم عن "النصرانية"، حيث إن النصارى ذلك الوقت كانوا يَدْعون إلى تطبيق قوانين موسى في حياتهم. وأصبحت هذه التسمية (أي المسيحية) هي الغالبة بعد أن آمن قسطنطين بها وجعلها الديانة الرسمية للامبراطورية عام 312 ميلادية.

والظاهر أن "النصرانية" كـ "اسم" قد استمر وجوده في الكنائس غير الإغريقية، فمسيحيي القديس توماس -- (Saint Thomas Christians) في كيرلا جنوب الهند لا يزالون يُسمون أنفسهم "نصراني" (Nasrani)، والظاهر أن هذا الاسم هو للجمع والفرد عندهم، وأما عند العرب فإن "نصراني" هي للفرد والجمع "نصارى". وكذلك فإن اسم هذه الديانة عند العرب قبل الاسلام كان "النصرانية"، وهناك عدة شواعد شعرية في ذلك ومنها قول جابر بن حُني التغلبي: وَقَد زَعَمَت بِهراءُ أَنَّ رِماحَنا رِماحُ نَصارى لا تَخوضُ إِلى الدَمِ، فَيَومَ الكُلابِ قَد أَزالَت رِماحُنا شُرَحبيلَ إِذ آلى آلِيَّةَ مُقسِمِ. وفي قول لخداش بن زهير: وَذَكَّرتُهُ بِاللهِ بَيني وَبَينَهُ وَما بَينَنا مِن مُدَّةٍ لَو تَذَكَّرا، وَبِالمَروَةِ البَيضاءِ يَومَ تَبالَةٍ وَمَحبَسَةِ النُعمانِ حَيثُ تَنَصَّرا.

وأحد القرائن على أن النصارى هو الاسم المشهور لهذه الديانة في جزيرة العرب أنه لا يوجد فعل مشتق دارج من "المسيحية"؛ فالإسلام اسم والفعل المشتق منه هو أسلم يُسلم، واليهودية اسم والفعل المشتق منه هو تَهَوَّد يتَهَوَّد وجاء منها فعل منحوت وهو "هاد وهادوا"، وكذلك النصرانية فهو اسم والفعل المشتق منه هو تَنَصَّر يتَنَصَّر. ولكن ما الفعل المشتق الذي وضعته العرب "للمسيحية"؟

ومن الممكن خلق فعل مشتق من الاسم "المسيحية" ولكن لا يوجد فعل مشتق دارج لهذا الاسم لأن هذا الاسم لم يكن دارجا في جزيرة العرب قبل الإسلام وإنما الاسم الدارج كان "النصرانية".

وبالتالي فإن اسم "النصارى" ليس استخفافا بالمسيحيين، وإنما هو الاسم الأصل لأتباع المسيح عليه السلام، وهو الاسم الذي كان دارجا في جزيرة العرب قبل الإسلام.

2.26# ستة أم ثمانية أيام:

هذا الموضوع هو أحد الأمثلة التي يُرَكِّز عليها الكثير من المستشرقين للاستدلال على التعارض في القرآن، والغريب أن الكثير من هذه الأمثلة قد تم شرحها في كتب التفسير القديمة (مثل الطبري والقرطبي والألوسي وغيرهم). وهؤلاء المفسرون لم يشرحوا تلك الآيات ردا على الشبهات وإنما كانت كتاباتهم تفسيرا طبيعيا للآيات.

وسنضع هنا مثالا على ذلك وهو استدلال الكثير من المستشرقين على التعارض في القرآن بين الآيتين التاليتين:

- "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ" (4–السجدة).
- "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (12–فصلت).

والآية الأولى تقول إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ويظهر أن الآية الثانية تقول إن الله خلق السماوات والأرض في ثمانية أيام. وهنا يأتي اعتراض المستشرقين.

ولكن ضمن المبدأ الذي ذكرناه في تحليل الآيات فإنه إذا ظهر التعارض بين الآيات فإننا نحاول التوفيق، وإلَّا نستخدم الآية الأكثر وضوحا في تفسير الآية الأقل وضوحا. ومن المؤكد أن الآية الأولى أكثر وضوحا، وإذا استخدمناها في التحليل فإن التوفيق بين الآيات يظهر بوضوح، وهو مشروح في كتب التفسير القديمة:

> فضمن المشروع المتعلق بخلق السماوات والأرض فإن الأرض قد أخذت يومين، والأقوات قد أخذت أربعة أيام من بداية ذلك المشروع، ومن ثم تم خلق السماوات في يومين. والمجموع هنا هو ستة أيام. وقد وضع القرطبي مثالا لذلك في قوله: "خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما".

وما سبق هو أحد التفاسير، وسنضع تفسيرا آخر في الفصل الخامس. والهدف في هذه المسئلة هو التنبيه أن كتب التفسير القديمة قد أجابت على الكثير من التعارضات الحالية الموجودة عند المستشرقين.

وقد شرحنا في الفصل الأول (1.6) الفرق بين تناقض النصوص (Textual Contradiction)، وتعارض الأفهام (Interpretation Difference). وسنعيد هنا شرح الفرق بينهما:

التناقض يتطلب وجود خلاف صريح بين عبارتين لا يمكن التوفيق بينهما. وأما التعارض فهو وجود خلاف ظني بين العبارتين والتي ربما يكون بسبب الطريقة التي فُهمت بها هاتين العبارتين. فمثلا: لا يوجد تناقض صريح بين

آيات السجدة وفصلت: فآيات السجدة قالت إن الله قد خلق الأرض في ستة أيام، ولا يوجد في آيات فصلت أن الله قد خلق الأرض في ثمانية أيام (ولو كان هذا النص موجودا لكان تناقضا)، وإنما تم جمع الأعداد في آيات فصلت فكانت ثمانية، وقد فَهِمَها أحدهم أنها تتعلق بثمانية أيام، ولكن لا يوجد لهذا الاستنتاج نص صريح، وإنما هو جمع للأعداد، ولهذا نقول إنَّ الأمر فيه تعارض وليس تناقضا.

ونستطيع القول وبثقة أنه لا يوجد تناقض بين آيتين في القرآن. فمثلا يوجد الكثير من التناقضات الصريحة في النصوص في الكتب المقدسة الحالية لليهود والنصارى، ولكن لا يوجد تناقض صريح في القرآن بين آيتين فيه، وإنما ربما توجد بعض التعارضات. والتعارضات هنا متعلقة في فهمنا للنصوص: فربما يكون فهمنا للنص في عبارة يختلف عن فهمنا للنص في عبارة أخرى. فمثلا ربما نفهم الآيات في سورة فصلت أن الخَلْقَ قد أخذ ثمانية أيام وهذا ربما يُخالف فهمنا لآية السجدة. وبالتالي نبدأ هنا محاولة الوصول إلى فهم متوافق مع هذه الآيات جميعها. وهذا التعارضات ليست تناقضا، لأنه كما شرحنا (مثلا) فإنه لا يوجد تناقض صريح بين الآيات في فصلت والآية في السجدة، وإنما الأمر كان تعارضا في أفهام البعض.

2.27# موضوع العزير:

لقد ذكر الله العزير في القرآن في قوله تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ" (30 التوبة).

والعزير هو "عزرا" المشهور في التاريخ اليهودي، ويعتبره اليهود الرجل الثاني في الأهمية بعد موسى، حيث كان مستشارا للملك الفارسي واستطاع اقناع الملك بارجاع بني إسرائيل إلى فلسطين، كما أنه قد جمع الأسفار التي ضاعت إثر دمار القدس والسَّبي. (المرجع: أنبا–عزرا).

وتوجد هنا ملاحظة جديرة بالانتباه ... فاليهود حاليا لا يقولون إنَّ عزرا ابن الله، ولا يوجد في أيٍ من كتاباتهم أن عزرا هو ابن الله، بل إن اليهود يرفضون تماما أي ادعاء عن أي شخص أنه ابن الله،، فكيف يقول القرآن ذلك؟

وما سبق ليس شاملا تماما، فالقول إن اليهود لا يقولون إن عزرا هو ابن الله هو صحيح في الوقت الحاضر، ولكن هل كان يهود المدينة يقولون إن عزرا هو ابن الله؟

ووجود هذه الآية دليل أن يهود المدينة (على الأقل) كانوا يقولون ذلك؛ إذ لم يصدر عنهم أي اعتراض على ذلك الوصف، في حين قد جاء اعتراض (مثلا) على الآية: "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ" (في 31 التوبة)، وكان جواب الاعتراض أن الأحبار والرهبان: "كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه" (راجع الطبري). وكذلك جاء اعتراض على الآية التي تم فيها ذكر مريم أنها "أخت هارون"، وقد كان لموسى وهارون عليهما السلام أخت اسمها مريم، فكان الارتباك فيما إذا كانت مريم أم عيسى هي نفسها مريم أخت موسى، وقد كان الجواب وقتها أن الناس كانت تتسمى بأسماء الأنبياء.

بالتالي فإن وجود هذا النص يدل أن يهود المدينة كانوا يقولون إن عزرا هو ابن الله.

ولكن كيف ذلك؟ وهل يُعقل أن اليهود كانوا يقولون أن إنسانا هو ابن الله؟

والجواب أن نظرة اليهود لـ "ابن الله" تختلف عن نظرة المسيحيين: فعند المسيحيين أنَّ المسيح لله بالضبط كما يعقوب لإسحق، أي أن العلاقة بين المسيح والله هي علاقة بنوة بمعناها الحرفي دون أي مجاز، في حين أن نظرة اليهود أنها مجاز وليست حقيقة،، فمثلا تم وصف داود أنه ابن الله في سفر صوموئيل الثاني الاصحاح 7:

13 هُوَ يَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي، وَأَنَا أُثَبِّتُ كُرْسِيَّ مَمْلَكَتِهِ إِلَى الأَبَدِ.
14 أَنَا أَكُونُ لَهُ أَبًا وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا. إِنْ تَعَوَّجَ أُؤَدِّبْهُ بِقَضِيبِ النَّاسِ وَبِضَرَبَاتِ بَنِي آدَمَ.
15 وَلكِنَّ رَحْمَتِي لاَ تُنْزَعُ مِنْهُ كَمَا نَزَعْتُهَا مِنْ شَاوُلَ الَّذِي أَزَلْتُهُ مِنْ أَمَامِكَ.

وتم وصف سليمان أنه ابن الله في سفر أخبار الأيام الأول الاصحاح 22:

7 وَقَالَ دَاوُدُ لِسُلَيْمَانَ: «يَا ابْنِي، قَدْ كَانَ فِي قَلْبِي أَنْ أَبْنِيَ بَيْتًا لاسْمِ الرَّبِّ إِلهِي.
8 فَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلًا: قَدْ سَفَكْتَ دَمًا كَثِيرًا وَعَمِلْتَ حُرُوبًا عَظِيمَةً، فَلاَ تَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي لأَنَّكَ سَفَكْتَ دِمَاءً كَثِيرَةً عَلَى الأَرْضِ أَمَامِي.
9 هُوَذَا يُولَدُ لَكَ ابْنٌ يَكُونُ صَاحِبَ رَاحَةٍ، وَأُرِيحُهُ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِهِ حَوَالَيْهِ، لأَنَّ اسْمَهُ يَكُونُ سُلَيْمَانَ. فَأُجْعَلُ سَلاَمًا وَسَكِينَةً فِي إِسْرَائِيلَ فِي أَيَّامِهِ.
10 هُوَ يَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي، وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا، وَأَنَا لَهُ أَبًا وَأُثَبِّتُ كُرْسِيَّ مُلْكِهِ عَلَى إِسْرَائِيلَ إِلَى الأَبَدِ.

وبالطبع فإن النصين السابقين كانا على الأغلب تحريفا وإضافة في النصوص وذلك لأن الوعد قد انقطع؛ فالمُلْكُ قد ذهب من ذرية داود وسليمان. والظاهر أن في هذا التحريف شبهة سياسية ضمن التنافس والصراع بين دولة يهوذا في القدس ودولة إسرائيل في السامرة بعد وفاة سليمان عليه السلام.

على أية حال فإن هذين النصين يُظهران أن هناك نظرة مجازية عند اليهود فيما يتعلق بوصف الرموز أنهم أبناء الله. وهنا يأتي سؤال: لماذا انتقد الله اليهود على قولهم إنَّ عزرا ابن الله ولم ينتقدهم في موضوع داود؟

والجواب: الظاهر أن يهود المدينة لم يكونوا يُبالغون في تفخيم داود ولكن الظاهر أنهم كانوا يُبالغون كثيرا في تفخيم عزرا إلى درجة وصفه أنه ابن الله، وهنا جاء انتقاد القرآن لهم. وهذا الانتقاد يدل أن هذا الوصف مجازا أو اعتقادا مرفوض (أي أنه من غير المقبول وصف شخص أنه ابن الله حتى وإن كان الوصف مجازا).

الآن ... لنفترض شخصا (ولنسميه جورج) قد قال مجادلا:

من المؤكد أن يهود المدينة قد اعترضوا اعتراضا شديدا على هذه الآية ("وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ") وقد سألوا محمدا عن ذلك ولكن جوابه لم يكن مقنعا ولا واضحا بل إن هذا الأمر قد أحرج محمدا. وعندما غلب العرب على البلاد فإن أصحاب محمد قد أهملوا ذكر هذه القصة لأن فيها إحراج لمحمد، بالضبط كما قام أصحاب محمد بإهمال قصائد الهجاء التي كان يقولها كفار قريش عنه.

فكيف نُجيب على هكذا جدل؟

وهناك جدالات تشبه كثيرا جدالات جورج، والأجوبة عموما تكون متشابهة ولهذا من المفيد بحثه، وهناك عدة أجوبة في هذا الموضوع:

- إذا ثبت لنا وجود الخالق وثبتت لنا صحة الرسالة المحمدية، فإن الآية السابقة تكون صادقة تماما، وبالتالي فجدال جورج يكون بلا قيمة. وبالتالي إذا أردنا أن نناقش جورج في جداله فنستطيع ذلك عن طريق القيام بإثبات وجود الخالق ومن ثم إثبات صحة الرسالة المحمدية.

- جدالات جورج تشبه تماما تهيؤات المشركين عندما جعلوا الملائكة بنات الله، وذلك في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (27) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" (28 – النجم) و"الظن" هنا يعني الهوى والتحزير؛ حيث تتعلق الآية باقتناع المشركين أن الملائكة هم إناث دون أن يكون عندهم دليل أو سابقة علم.

  وفي هذه الحالة فإن علينا أن نسأل جورج عن هذا الادعاء الذي وضعه ("أن يهود المدينة قد اعترضوا اعتراضا شديدا على هذه الآية") هل عنده الدليل على ذلك؟ لأنه من السهل جدا وضع الادعاءات، والادعاءات دون قرائن لا قيمة لها؛ فمثلا تستطيع الشرطة أن تأتي لجورج وتقول له: "من المؤكد أنك مجرم خطير ويجب سجنك حتى تثبت براءتك" فإن ما سبق ليس ادعاء مقبولا، وكذلك الأمر بالنسبة لجدالات جورج.

- وبالنسبة لاستشهاد جورج بقصائد المشركين فهذا ليس دليلا على صحة ادعائه وإنما يريد أن يضع المصداقية في ادعائه: فكما أهمل أصحاب محمد قصائد الهجاء فإنه من الممكن أن أصحاب محمد قد أهملوا اعتراض اليهود على هذه الآية. ولكن لم يقم الغساسنة (مثلا) بذكر قصائد الهجاء التي كان المناذرة يقولونها عليهم، ولم يقم المناذرة بذكر قصائد الهجاء التي كان الغساسنة يقولونها عليهم،، ولكن هذا الأمر لا يسمح لنا أن نختلق الأحداث لهم وعنهم بسبب أن تلك القصائد لم يتم ذكرها؛ أي أن جدال جورج ليس فيه أي نوع من أنواع الربط وإنما هو لصق للعبارات؛ فالموضوعان مختلفان، وعدم ذكر القصائد ليس دليلا على قيام اليهود بالاعتراض، وإنما جدال جورج هو أشبه بسيناريو المختبر (الباب 2.4)؛ فهو يحاول أن يَخْلق الإمكانية من غير أن يكون معه الدليل.

2.28# التنوع في الوصف والسرد:

لنفترض شخصا قد اعترض على الآيتين التاليتين:

- وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122 الأعراف).
- فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70 طه).

واعتراضه أن السحرة إما أنهم قالوا "رب موسى وهارون" أو قالوا "رب هارون وموسى" وبالتالي يوجد هنا تناقض.

ولكن هذا الاختلاف في الآيات كان موجودا منذ أيام العرب القدامى، بمعنى أننا لم نكتشف هذا الاختلاف حديثا وإنما هذا الاختلاف كان أثناء الدعوة النبوية، ولو كان فيه تناقض لأذاعه الكفار العرب، ولكن لم يظهر أي اعتراض عليه من العرب، بل إنَّ الصحابة لم يسألوا الرسول عن ذلك. وعدم الاعتراض يدل أن هذا النوع من الاختلاف في السرد مقبول في لغة العرب ذلك الوقت.

ومن المفيد هنا التنبيه على الفرق بين التنوع في السرد وبين التناقض والتعارض:

وقد شرحنا سابقا الفرق بين التناقض والتعارض (1.6)، وسنعيد شرحه هنا: فالتناقض يحدث عندما تتواجه عبارتان صريحتان بحيث لا يمكن للعبارتين أن تكونا صحيحتين معا في الوقت نفسه. وكتعريف أبسط فإن التناقض يحدث إذا كان الاختلاف بين العبارتين يتعلق بمعلومة صريحة. ومثال ذلك إذا قال جرير لشخص أنه لم يأت إلى الاجتماع إلا ثلاثة، ثم يقول لشخص آخر أنه جاء عشرة إلى الاجتماع فإن هذا الاختلاف بين العبارتين هو تناقض.

وأما التعارض فهو يحدث إذا كان الاختلاف في العبارتين يتعلق بمعلومة ظنية. ومثال على هذا التعارض قول الله تعالى: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59 الشعراء). وقد كنا نرى في هذه الآية تعارضا (وليس تناقضا) وذلك لأن المفهوم في الآية أن فرعون قد جمع جنوده وأنهم غرقوا وأن بني إسرائيل قد ورثوا أرضهم ... ولكن بنو إسرائيل لم يدخلوا مصر بعد خروجهم منها.

ولنفترض جدلا أن شخصا قد جاء يُجادلنا ويقول إن في هذه الآية تناقضا فكيف يكون الجواب؟

والجواب هو أن هذه الآية ليست صريحة في المعنى ... فلو ذكرت الآية مثلا أن فرعون قد حشر جنوده في مصر وأن هؤلاء قد غرقوا وأن بني إسرائيل قد ورثوا أرضهم فعندها يحق له أن يُجادل، ولكن الآية ليست صريحة.

وقد انتبهنا لحل هذا التعارض ... إذ إن فلسطين كانت تحت حكم الفراعنة، وعندما خرج موسى وقومه فإنه كان أسهل وأسرع لفرعون أن يستدعي جنوده في فلسطين عوضا عن الجند في ليبيا والنوبة. وهؤلاء الجنود هم المقصودون في الآية السابقة أنهم قد غرقوا وأن بني إسرائيل قد ورثوا أرضهم (راجع كتاب "رمسيس السادس هو فرعون موسى").

ولهذا فإن التناقض يحدث عندما يكون هناك نصَّان وبينهما اختلاف صريح. وأما التعارض فإنه يحدث إذا كان هناك نصان وبينهما اختلاف ظني (أي غير صريح).

الآن ... إذا كانت هناك اختلافات في الوصف ولم يكن فيها تناقض أو تعارض فإن هذا الاختلاف يكون تنوعا في الوصف والسرد.

وهناك عدة أسباب لهذا التنوع ومنها:

الترادف في الألفاظ والمعاني: فمثلا يقول زيد عن زيارته لحديقة الحيوان: "رأينا البارحة صغار النمر"، وبعد أسبوع قال عن الزيارة نفسها: "رأينا قبل أسبوع أشبال النمر". وصغار النمر وأشبال النمر هي مترادفات في المعنى.

التكافؤ والتعاضد في العبارات: مثلا يقول زيد لشخص: "كان اللقاء البارحة رائعا"، ثم يقول لآخر: "كان اللقاء البارحة جميلا". وكلمة "رائع" ليست مرادفة لكلمة "جميل" فكلاهما له معنى مختلف، ولكن العبارتان ليست متناقضة ولا متعارضة وإنما متكافئة وتُساند إحداها الأخرى.

استخدام أدوات البلاغة والتي منها المجاز والتشبيه والاستعارة، وكذلك استخدام الكلمات المترادفة من أجل استمرارية النغم والموسيقية في العبارات. ونحن لا نتحدث فقط عن القرآن وإنما نتحدث عن أثر البلاغة في اختلاف عبارات السرد في جميع اللغات، بل كان العرب الأقدمون يسمحون للشاعر أن يُغَيِّر في الأسماء من أجل موسيقية العبارات.

الاختزال في السرد: فعندما تحدث واقعة استمرت 10 أيام ويقوم زيد بسردها خلال 10 دقائق فإنه قد اختزل (اختصر) فيها الكثير. وهذا الاختزال يتعلق بالحذف والتعميم فيما يراه زيد غير مهم. وعندما يقوم زيد بسرد القصة مرة أخرى فإن بعض العبارات والكلمات في الوصف قد تختلف (بسبب التفصيل أو الحذف والتعميم)، ولكن إذا لم يكن هناك تناقض أو تعارض بين السرد الأول والثاني فإن الاختلاف في السرد يكون مقبولا ويكون مثالا على التكافؤ والتعاضد في السرد.

الترجمة بأنواعها الثلاثة الرئيسية:

- الترجمة الحرفية الكاملة، وهنا يقوم المترجم بترجمة الكلمات الأجنبية بشكل حرفي.
- ترجمة المعنى كاملا، وهنا يقوم المترجم بترجمة كاملة لما فهمه من العبارة.
- ترجمة المعنى ثم اختزاله، وهنا يقوم المترجم بفهم العبارة ثم يقوم بترجمتها بشكل مختصر.

نقل المقولات:

وهذه نقطة مهمة ... فقد كان العرب القدامى يسمحون بنقل المقولة بالحرفية أو بالمعنى كاملا أو بالمعنى اختزالا (بالضبط كما الترجمة في البند السابق). وهذا تَسَبَّبَ ببعض الخلافات الأصولية؛ فبعض العلماء يقبلون نقل الحديث الشريف بالمعنى والبعض الآخر يرفض ذلك تماما، وهناك عدد قليل من العلماء السابقين كان يظن جواز تلاوة القرآن بالترادف (أي بالمعنى المكافئ).

وبالنسبة للحديث فهناك فرق بين النقل وبين الشَّرح؛ فعندما تكون في نقاش وتذكر حديثا وتقول إن معناه هو كذا وكذا فهذا الأمر مقبول، ولكن إذا قلت التالي: قال رسول الله كذا وكذا، فلا يحق لك أن تذكر ذلك إلا إذا كنت حافظا الحديث.

لماذا؟

لأن النقل من الرسول عليه السلام هو "شهادة" وليس وصفا وسردا.

ولكن ما الفرق بين الشهادة وبين الوصف والسرد؟

عندما يشكو زيد جريرا للقاضي ويقول زيد للقاضي: "لقد قال لي جرير كذا وكذا" فإن على زيد أن يبذل الجهد في النقل الحرفي لما قاله جرير، وأما إذا تَعَمَّد زيد أن ينقل كلام جرير بالمعنى ولم يُنَبِّه لذلك فعندها يَحق للقاضي معاقبة زيد لأنه لم يكن صادقا تماما في النقل والشكوى. وكذلك عندما يتم التحقيق مع جرير فإنه يُسأل عن الأقوال بحرفيتها وليس معناها.

في المقابل إذا كُنتَ في اجتماع مدته ساعتان فمن المتوقع أن تصف وتسرد مسار الاجتماع باختزال واختصار، وهذا هو الفرق بين "الشهادة" و"السرد". والنقل عن الرسول عليه السلام يقع ضمن الشهادة وليس الوصف والسرد، وذلك لأن كلام الرسول فيه تشريع يتعلق بالحلال والحرام، وبالتالي فالنقل عنه ليس كالنقل عن الآخرين.

وهناك أدلة ذكرها العلماء الذين يمنعون النقل بالمعنى ومنها قول الرسول عليه السلام: "نضَّر الله امرأً سمِع منَّا حديثًا، فحفِظه حتَّى يُبلِّغه غيرَه، فرُبَّ حامل فقهٍ إلى مَن هو أفقه منه، ورُبَّ حامل فقهٍ ليس بفقيهٍ" رواه الترمذي، وكذلك فقد كان هناك تشددا من بعض الصحابة في موضوع نقل الحديث بالمعنى.

وأما الذين أجازوا نقل الحديث بالمعنى فغلبة الظن أنهم أخذوه أساسا من طبيعة العرب في النقل، وهناك عدة روايات عن التابعين في هذا الأمر.

وعلى أية حال فإن الأحاديث الصحيحة هي الأحاديث التي يرويها الثقة الضابط (أي الحافظ)،، وأما الذي يَنْقل بالمعنى فهو لا يكون حافظا وبالتالي فالروايات عنه لا تكون صحيحة (وإنما ربما حسنة).

وأما بالنسبة لتلاوة القرآن بالمعنى فإن هناك روايات عن ابن مسعود أنه كان يقبل التلاوة بالمعنى، وهناك عدد قليل من التابعين أيده في ذلك وخصوصا في تفسيرهم "للأحرف السبعة" التي نزل فيها القرآن، ولكن الجمهور على عكس ذلك تماما. وهناك أدلة لها غلبة الظن في منع التلاوة بالمعنى:

- قال تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (9 الحجر).
- قال تعالى: "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" (19 القيامة).
- قال تعالى: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (16 يونس).
- قال تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا" (23 الإنسان).
- قال تعالى: "أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا" (4 المزمل).

والنقطة هنا أن القرآن قد أنزله الله تعالى على الرسول عليه السلام، وقد تعهد الله بجمعه وحفظه، ولا يجوز تبديله، وطُلِبَ ترتيله؛ أي ترتيل القرآن الذي نزل لا ترتيل الكلمات المشابهة له.

ويجب التنبيه هنا أنَّ هذا الخلاف بين الجمهور وبعض العلماء ليس له علاقة بثبوت النسخة القرآنية التي عندنا. وقد ذكرنا سابقا أن القرآن قد تم جمعه في نسخة واحدة بشهادة شاهدين لكل آية والتحقق من الشهادتين بنسخة مكتوبة. وبالتالي فالخلاف فيما يتعلق بتلاوة المترادفات قد جاء بعد الجمع والحفظ.

وكل النقاش السابق كان للتدليل أن العرب القدامي كانوا يسمحون النقل بالحرفية أو بالمعنى أو بالاختزال، وهذا الأمر ليس خاصا بالعرب فقط وإنما في جميع الحضارات.

وهنا نرجع للآيتين:

- وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122 الأعراف).
- فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70 طه).

وهنا نسأل ... هل يقبل العرب في سرد القصة القيام بالتأخير والتقديم؟

الجواب: هذه القصة كانت ترجمة وتمت هذه الترجمة بالاختزال،، وهذا مقبول عند العرب. بل ربما اعتبر بعض العرب القدامى أن التأخير والتقديم في الآيات قد جاء من أجل الموسيقية في العبارات، وكما كان العرب يسمحون للشعراء أن يُغَيروا في الألفاظ من أجل موسيقية العبارات (على شرط أن يكون التغيير واضحا) فإنهم بالتأكيد لم يعترضوا على التأخير والتقديم في القصة لأن الموسيقية تتطلب ذلك، وهذا مقبول عندهم. والموسيقية في سورة طه هي انتهاء الآيات بالألف الممدودة والمقصورة: ضحى أتى افترى النجوى المثلى استعلى ألقى تسعى موسى أعلى أتى **موسى** أبقى الدنيا أبقى ... .

وبالطبع فإن ما سبق هو تفسير مقبول ضمن طريقة السرد العربية القديمة، ولكن يحق لنا (نحن المسلمين) أن نظن أن التأخير والتقديم في الآيتين لم يكن من أجل الموسيقية فقط. ومن الممكن وضع تفسير منطقي لهذا الاختلاف في العبارتين: فليس من الضروري أن يكون جميع السحرة قد قالوا أمنا برب موسى وهارون، وإنما من الممكن أن يكون بعضهم قد قال: أمنا برب موسى، وآخرون قالوا آمنا برب هارون، وربما بعضهم سجد من غير أن ينطق. وبالتالي فإن الاختلاف في العبارتين يسمح لنا بهكذا استنتاج؛ إذ إن العرب قد يذكرون الكل ويقصدون الجزء وقد يقصدون الجزء ويقصدون الكل، وكذلك الحال في آيات هارون وموسى السابقة.

وهناك الكثير من الآيات التي فيها التنوع في الوصف والسرد، وإذا جاء أحد للجدال فيها معتبرا أنها تناقض فإن عليه أن يثبت ذلك من خلال طبيعة العرب الأقدمين في الوصف والسرد؛ أي أنَّ طريقة العرب الأقدمين هي "الحَكَمُ" في أي خلاف يتعلق بطريقة الوصف والسرد، وما قبلوه فهو مقبول وما رفضوه فهو مرفوض.

#2.29 فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ:

قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (النحل43:16)، وأهل الذكر هنا حسب سبب النزول هم اليهود (وحسب عموم المعنى فـ هم أهل الاختصاص). وتفسير الآية أن المشكرين يكانوا يتعجبون من أن يُرسل الله رسولا رجلا عوضا عن الملائكة، فجاءت الآية تقول لهم إنَّ الله يُرسل الرُّسل رجالا، وإذا لم يكن عندكم علم فاسئلوا اليهود فعندهم العلم في ذلك.

ولكن هنا يأتي سؤال ... هل أصبح اليهود مرجع لنا أن نسألهم فيما لا نعلمه؟

والجواب لا. إذ إنه من الضروري في التفسير الانتباه لمنطق الحال: لنفترض أن المدير أراد توقيع وثيقة وإذا بقلمه قد أصبح جافا فطلب من مساعده احضار قلم آخر. وما طلبه المدير كان ضمن الوصف العام، ولكنه من منطق الحال (الواقعة والحادثة) فالمساعد يعلم تماما أن المدير لا يطلب قلما أحمر أو أخضر أو أصفر، وإنما قلم مناسب لتوقيع الوثيقة.

وضمن منطق الحال فإن الآية لا تطلب منا سؤال اليهود فيما نختلف فيه معهم، ولا تطلب الآية أن نسألهم فيما لا يعرفونه، وإنما الحادثة التي جاءت لها الآية أنه لم يكن لدى العرب المشركين العلم إن كان الله يضع الرسالة بيد البشر أو الملائكة ويُجادلون بلا علم، فطلبت الآية منهم: إن كنتم لا تعلمون فاسئلوا من يعلم.

والخلاصة في الآية: إن كنت لا تعلم فاسأل أهل الاختصاص. وهذا لا يعني بالضرورة أن أهل الاختصاص معصومون؛ إذ ربما يكون أهل الاختصاص على خطأ. ولكن قبل أن نقوم بتحديد الخطأ والصواب في أفكار أهل الاختصاص فإنه يجب علينا أولا الحصول على المستوى الكافي من العلم لعمل هذا التحديد، ونبدأ الحصول على هذا المستوى الكافي من خلال أهل الاختصاص أنفسهم.

2.30# فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ:

قال تعالى: فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (يونس 10:95).

و"الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ" هم اليهود والنصارى، فهل تطلب هذه الآية أن نجعل اليهود والنصارى مرجعين لنا في التحقق من صحة القرآن؟

والجواب لا. ومن خلال المنطق نفسه الذي شرحناه في الباب السابق؛ فضمن منطق الحال فإنه من المؤكد أن اليهود والنصارى ليسا مرجعين للمسلمين في تفسير القرآن. ومع وجود التشابه بين القصص القرآنية والقصص في الكتب السابقة إلا أن هناك كذلك اختلافات كثيرة.

وبالتالي كيف نُفسر الآية ضمن هذا المنطق؟

والغالب على الظن أن المُخاطب في هذه الآية هو الرسول والمقصود غيره، ومثل ذلك الآية: "أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (الكهف 18:9)، وكذلك الآية: "لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18:18). والمخاطب هنا هو الرسول والمقصود (على غلبة الظن) هم وفد قريش.

وبالتالي فإن هذه الآية تقول للمسلمين أو لغير المسلمين الذين بدأوا يقتنعون بالإسلام ولكن لا يزال في قلبهم بعض الشك أن يسألوا أهل الاختصاص في التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى الذين أسلموا. وهذه نقطة مهمة: "الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ"؛ فالجزء: "الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ" تدل على أهل الاختصاص في التوراة

والإنجيل من اليهود والنصارى. وأما الجزء "من قبلك" فتضع الدلالة أنهم لم يعودوا يقرؤون الكتاب، وهي كناية أنهم قد أسلموا.

وهذا الطلب في الآية طبيعي جدا: فعندما تُريد أن تقوم بعملية جراحية حساسة وتمت نصيحتك بطبيب جراح معروف، ولكن لا يزال في قلبك بعض الشك، فإن إحدى الطرق الفعالة في معالجة هذا الشك هو أن تبحث عن الناس الذين تلقوا العلاج من هذا الطبيب وتسألهم عنه.

2.31# وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ:

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة 2:62). فهل تعني هذه الآية أن اليهود والنصارى ليسوا ملزمين بالإسلام؟

والجواب أن النصوص تُأخذ بمجموعها، وقد قال الله تعالى: "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (آل عمران 3:85). وبالتالي نقول إنَّ التساءل السابق ضمن منطق الحال غير صحيح، وبالتالي فإن المعنى المشترك بين هاتين الآيتين أن آية البقرة تتعلق باليهود والنصارى والصابئين قبل الإسلام (أو قبل معرفتهم بالإسلام).

وهذا الموضوع مهم ويُسأل عنه باستمرار (أي السؤال عن أمر السابقين قبل الإسلام)، وهذا جواب لهم: "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ".

2.32# وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ:

قال تعالى: "وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" (المائدة 5:44).

وقال كذلك: "وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (المائدة 5:47).

فهل تطلب هذه الآيات من اليهود والنصارى أن لا يلتزموا بأحكام الإسلام وإنما عليهم أن يُطبقوا فقط الأحكام الموجودة عندهم في التوراة والإنجيل؟

والجواب لا. وإنما اليهود الذين رفضوا الإسلام ولم يقبلوه فسيكون عليهم حسابان يوم القيامة: الحساب الأول يتعلق برفضهم للإسلام، والحساب الثاني يتعلق بعصيانهم للتوراة. بمعنى آخر فإن اليهودي الذي يرفض الإسلام

ويقول إن التوراة هو كتاب الله، فإنه سيُحاسب على موضوع الإسلام، وكذلك سيُحاسب على موضوع عصيانه وتمرده على التوراة التي يُؤمن بها.

وهذا الموضوع لا يتعلق فقط باليهود والنصارى؛ فإن الليبراليين الذين يُنادون بالمبدأ الديمقراطي والذين إذا استلموا السلطة تنكروا لهذه المبادئ التي وَعَدوا بها فإنه سيكون عليهم كذلك حسابان: الحساب الأول يتعلق بمخالفتهم لأحكام الإسلام، والثاني يتعلق بنفاقهم وغدرهم للآخرين فيما كانوا يُنادون به. وهذا كله يدخل في مفهوم الآيتين: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة 99:8).

وبالنسبة لآية المائدة 43 فإن النص هنا للتوبيخ؛ فاليهود لا يؤمنون بالرسول عليه السلام ولا يؤمنون أن القرآن كتاب الله، ولكنهم قد جاءوا إلى الرسول ليحكم بينهم، وهنا جاء توبيخهم في الآية.

ولكن يأتي هنا سؤال ... قال الله تعالى عن التوراة التي عند اليهود وقت الرسول أنَّ فيها حُكم الله، فهل هذا معناه أن التوراة لم تكن محرفة وقت الرسول؟

والجواب: هذا النص لا يتطلب ضرورة عدم وجود التحريف، وإنما يُمكن لهذا النص أن يكون له عدة معان:

- أن حكم الله الذي جاء اليهود من أجله إلى الرسول موجود في التوراة التي عندهم. وبالتالي قد تكون التوراة محرفة في بعض أحكامها، ولكن هذا الحكم لم يكن محرفا فيه.
- بعض الأحكام في التوراة لم يصلها التحريف وبعضها وصلها التحريف، وبالتالي نستطيع القول إن النص " فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ" يتعلق بالأحكام التي لم يتم تحريفها.
- أن يكون النص "وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ" هو حسب ادعاء اليهود، وبالتالي ليس من الضروري أن يكون هذا النص هو شهادة من الله على عدم وجود التحريف في التوراة عند اليهود وقتها.

ويوجد من يقول إنَّ آية المائدة 43 هي دليل أن التوراة ملزمة للمسلمين (وذلك لقول الله تعالى: "فيها حكم الله") ولكن هذا الرأي غير صحيح لقوله تعالى في آية المائدة 48: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا".

وضمن غلبة الظن فإنَّ آية المائدة 43 قد نزلت قبل سيادة المسلمين وسيطرتهم على القرى اليهودية في خيبر وغيرها، لأنه بعد سيطرة المسلمين على هذا القرى فإن القرآن أصبح هو المهيمن في الأحكام العامة على المسلمين وأهل الذمة.

2.33# أين هو الإنجيل؟

الإنجيل هي كلمة يونانية الأصل وتعني "البشارة الطيبة"، وقد تمت ترجمتها إلى الإنجليزية بـ Good Spell، وتم اختصارها في النطق إلى: Gospel. وقد يستغرب البعض من استخدام كلمة يونانية في وصف الكتاب الذي أنزله الله على المسيح، وهنا وجب التفصيل:

فاللغة الأصلية لليهود هي العبرية، ولكنهم جراء السبي البابلي قد بدأوا الحديث بالآرامية (حيث إنها كانت اللغة العامة وقتها في العراق وبلاد الشام). وفي حوالي 300 ق.م وقعت فلسطين تحت الحكم اليوناني بقيادة الاسكندر الأكبر، واستمر الحكم اليوناني فيها لعشرات السنين، وهنا ترسخت الثقافة اليونانية في المنطقة، وأصبح لليهود ثلاث لغات محكية: اللغة الدارجة وهي الآرامية، واللغة الدينية وهي العبرية، واللغة الثقافية وهي اليونانية. وبالتالي ليس مستغربا أن يتم استخدام المفردات اليونانية وقت المسيح في التعبير عن الأشياء.

والإنجيل عند المسيحيين يتكون من عدة كتب (أسفار) وهي:

- الأناجيل الأربعة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) وهي تسمى أناجيل مجازا وذلك من باب تسمية الجزء باسم الكل، وإلا فإن هذه الأسفار الأربعة هي جزء من الإنجيل المسيحي.
- 14 رسالة كتبها بولس لأتباعه.
- 7 رسائل كتبها بعض الرموز المسيحية.
- سفر "أعمال الرسل" وهو كتاب تاريخ يذكر قصة بعض الرموز المسيحية في دعوتهم للدين المسيحي.
- سفر الرؤيا وهو كتاب يتعلق بمجموعة تنبؤات.

وهذه الكتب قد تم اعتمادها في الكنائس المسيحية وبقوة القانون وذلك في مؤتمر روما (Council of Rome) عام 382 ميلادية. وفي هذا المؤتمر تم رفض مجموعة "أناجيل" أخرى موجودة ذلك الوقت ومنها: إنجيل توماس وإنجيل مريم وإنجيل يهوذا.

وهنا تظهر المشكلة؛ فجميع الكتب السابقة هي مؤلفات بشرية تتعلق بالتاريخ وليس فيها أحكام تشريعية؛ فإنجيل متى هو: "قصة حياة المسيح" تأليف متى، وإنجيل مرقس هو "قصة حياة المسيح" تأليف مرقس، وكذلك باقي الأناجيل فهي مؤلفات بشرية، وكذلك الرسائل وسفر الرؤيا،، فجميع ما سبق هي مؤلفات بشرية بحتة.

الآن ... الإنجيل في القرآن له معنيان:

- "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (157 الأعراف).
  والإنجيل هنا هو الكتاب الذي يُقدسه المسيحيون (الإنجيل المسيحي)، والقرينة على ذلك هي العبارة: "الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ".
- "نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ" (3 آل عمران)، والإنجيل هنا هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى إلى عيسى.

وهناك 10 آيات أخرى تذكر الإنجيل ومعناه هو الكتاب الذي أنزله الله إلى عيسى. ولهذا فإن للإنجيل في القرآن معنيين:

- الإنجيل المسيحي وهي المؤلفات التي اعتمدتها الكنائس المسيحية واعتبرتها كتبا مقدسة وقامت بتسميتها: العهد الجديد (New Testament) وذلك للتفريق بينها وبين الأسفار الإسرائيلية التي قامت الكنائس باعتمادها كتبا مقدسة وسمتها: العهد القديم (Old Testament).
- إنجيل عيسى وهو الكتاب الذي أنزله الله إلى عيسى عليه السلام.

وهنا يأتي السؤال ... أين هو الكتاب الذي أنزله الله إلى عيسى؟

وقد كنت أظن سابقا (وهذا ما كتبته في النسخ السابقة من هذا الكتاب) أن الإنجيل هو كتاب لم ينزلْ بعد، وإنما سينزل بعد عودة المسيح. وقد كانت هذه الفكرة مبنية على أن الهداية لا تأتي مجانا وإنما يُقابلها حجم مكافئ من العبادات (وقد شرحنا هذا الموضوع بتفصيل في 2.37)، وبالتالي فإن نزول عيسى لدعوة اليهود تتطلب عبادات إضافية، وهذا معناه أن هناك مستحبات لنا ستكون فرضا عليهم، ومكروهات علينا ستكون حراما عليهم، وهذا ما سيتضمنه الإنجيل.

ولكن تغيرت هذه النظرة لاحقا، والنظرة الحالية أن الإنجيل الذي أنزله الله إلى عيسى لم يكن كتابا على الإطلاق وإنما هو حكمة وعلم ألقاه الله في صدر عيسى. وهذا بحاجة للتوضيح: فقد أنزل الله التوراة (وفيها حكمة وعلم) إلى موسى بكلمات محفورة في ألواح. وأما القرآن (وفيه حكمة وعلم) فقد أنزله الله إلى محمد بالتَّلقي والتلقين. والنظرة الحالية عندنا أن الإنجيل لم ينزل ألواحا ولم ينزل بالتلقين وإنما جاءت الحكمة والعلم إلى عيسى مع التكليف، ولهذا السبب لا نجد الإنجيل كتابا موجودا مُحددا.

وهذا قد يفسر السبب في وصف اليهود والنصارى بأنهم أهل الكتاب (وليسوا أهل الكتابين)، والكتاب هنا هو التوراة وذلك لأن الإنجيل لم يكن كتابا.

وجزء من هذه الحكمة والعلم قد تم ذكره في "الإنجيل المسيحي"، وبالتالي ليس غريبا أن يتم ربط هذه المؤلفات البشرية (الإنجيل المسيحي) بالحكمة والعلم الذي أنزله الله تعالى إلى عيسى.

ولكن تأتي هنا عدة أسئلة متعلقة بهذا الموضوع:

 # والسؤال الأول، قال تعالى: "وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ" (المائدة 47)، فما هي الأحكام التي نزلت في الإنجيل وخصوصا إذا افترضنا أن الإنجيل لم يكن كتابا وإنما حكمة وعلم ألقاه الله في صدر عيسى؟

الجواب: الأمر الظاهر في الإنجيل المسيحي أن عيسى قد التزم بقوانين موسى ودعا لها وحرَّم عصيانها (وربما يكون هذا هو السبب في تكرار كلمة "التوراة" في الآية: "وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ" (المائدة 46).

وفي الإنجيل المسيحي توجد النصوص التالية:

إنجيل متى (5.17):

17» لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. 18 فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. 19 فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ، فَهذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. 20 فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ.

إنجيل متى (23.1):

1 حِينَئِذٍ خَاطَبَ يَسُوعُ الْجُمُوعَ وَتَلاَمِيذَهُ 2 قَائِلًا: «عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جَلَسَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ، 3 فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ، وَلكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لاَ تَعْمَلُوا، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلاَ يَفْعَلُونَ. 4 فَإِنَّهُمْ يَحْزِمُونَ أَحْمَالًا ثَقِيلَةً عَسِرَةَ الْحَمْلِ وَيَضَعُونَهَا عَلَى أَكْتَافِ النَّاسِ، وَهُمْ لاَ يُرِيدُونَ أَنْ يُحَرِّكُوهَا بِإِصْبِعِهِمْ، 5 وَكُلَّ أَعْمَالِهِمْ يَعْمَلُونَهَا لِكَيْ تَنْظُرَهُمُ النَّاسُ: فَيُعَرِّضُونَ عَصَائِبَهُمْ وَيُعَظِّمُونَ أَهْدَابَ ثِيَابِهِمْ، 6 وَيُحِبُّونَ الْمُتَّكَأَ الأَوَّلَ فِي الْوَلاَئِمِ، وَالْمَجَالِسَ الأُولَى فِي الْمَجَامِعِ، 7 وَالتَّحِيَّاتِ فِي الأَسْوَاقِ، وَأَنْ يَدْعُوَهُمُ النَّاسُ: سَيِّدِي سَيِّدِي!

إنجيل مرقس (7.1):

1 وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ وَقَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ قَادِمِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ. 2 وَلَمَّا رَأَوْا بَعْضًا مِنْ تَلاَمِيذِهِ يَأْكُلُونَ خُبْزًا بِأَيْدٍ دَنِسَةٍ، أَيْ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ، لاَمُوا. 3 لأَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ وَكُلَّ الْيَهُودِ إِنْ لَمْ يَغْسِلُوا أَيْدِيَهُمْ بِاعْتِنَاءٍ، لاَ يَأْكُلُونَ، مُتَمَسِّكِينَ بِتَقْلِيدِ الشُّيُوخِ. 4 وَمِنَ السُّوقِ إِنْ لَمْ يَغْتَسِلُوا لاَ يَأْكُلُونَ. وَأَشْيَاءُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ تَسَلَّمُوهَا لِلتَّمَسُّكِ بِهَا، مِنْ غَسْلِ كُؤُوسٍ وَأَبَارِيقَ وَآنِيَةِ نُحَاسٍ وَأَسِرَّةٍ. 5 ثُمَّ سَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ وَالْكَتَبَةُ: «لِمَاذَا لاَ يَسْلُكُ تَلاَمِيذُكَ حَسَبَ تَقْلِيدِ الشُّيُوخِ، بَلْ يَأْكُلُونَ خُبْزًا بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ؟« 6 فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «حَسَنًا تَنَبَّأَ إِشَعْيَاءُ عَنْكُمْ أَنْتُمُ الْمُرَائِينَ! كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: هذَا الشَّعْبُ يُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا، 7 وَبَاطِلًا يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ. 8 لأَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ وَصِيَّةَ اللهِ وَتَتَمَسَّكُونَ بِتَقْلِيدِ النَّاسِ: غَسْلَ الأَبَارِيقِ وَالْكُؤُوسِ، وَأُمُورًا أُخَرَ كَثِيرَةً مِثْلَ هذِهِ تَفْعَلُونَ.« 9 ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «حَسَنًا! رَفَضْتُمْ وَصِيَّةَ اللهِ لِتَحْفَظُوا تَقْلِيدَكُمْ!

والمقصود هنا أن الفريسيين (والذين تسموا لاحقا بـ الرَّابانيين Rabbis ومفردها راباي Rabbi) قد وضعوا أحكاما كثيرة وفرضوها على الناس وهي ليست مما فَرَضَها الله، ومنها مثلا الاغتسال بطريقة محددة قبل الأكل، فهذا الأمر لم يكن من أحكام التوراة وإنما هي أحكام الأحبار.

فالتزام عيسى بالتوراة كان واضحا تماما في الإنجيل المسيحي. وكل الدلائل تشير أن أتباع المسيح الأوائل كانوا كذلك ملتزمين بالتوراة. وهناك كتاب في الإنجيل المسيحي منسوب إلى يعقوب العادل (أو يمكن ترجمتها "يعقوب الرشيد" – James the Just) رئيس النصارى بعد عيسى يقول فيه (2.10):

10 لأَنَّ مَنْ حَفِظَ كُلَّ النَّامُوسِ، وَإِنَّمَا عَثَرَ فِي وَاحِدَةٍ، فَقَدْ صَارَ مُجْرِمًا فِي الْكُلِّ.
11 لأَنَّ الَّذِي قَالَ: «لاَ تَزْنِ»، قَالَ أَيْضًا: «لاَ تَقْتُلْ». فَإِنْ لَمْ تَزْنِ وَلكِنْ قَتَلْتَ، فَقَدْ صِرْتَ مُتَعَدِّيًا النَّامُوسَ.

وكذلك في 2.14: "مَا الْمَنْفَعَةُ يَا إِخْوَتِي إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ لَهُ إِيمَانًا وَلكِنْ لَيْسَ لَهُ أَعْمَالٌ، هَلْ يَقْدِرُ الإِيمَانُ أَنْ يُخَلِّصَهُ؟"

والناموس هنا هي أحكام التوراة، والظاهر أن رسالة يعقوب كانت ردا على ادعاءات بولس -- (Paul of Tarsus)، حيث كان بولس يقول إنَّ الإيمان أهم من العمل (أي أهم من قوانين موسى) وإن قوانين موسى قد اكتملت بموت المسيح وبالتالي لم تعد هذه القوانين ملزمة؛ فقد قال في رسالته لروما (10.4): "لأَنَّ غَايَةَ النَّامُوسِ هِيَ: الْمَسِيحُ لِلْبِرِّ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ". وهو يكاد هنا يستشهد بمتى 5.17 (السابق ذكرها هنا)، ولكن من يستشهد بهذه الفقرة في "متَّى" فإنه قد أهمل تماما الفقرات الثلاثة بعدها. وكذلك قال في رسالته لأهل غلاطية (2.16):"إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَتَبَرَّرُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ، بَلْ بِإِيمَانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، آمَنَّا نَحْنُ أَيْضًا بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، لِنَتَبَرَّرَ بِإِيمَانِ يَسُوعَ لاَ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ. لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ لاَ يَتَبَرَّرُ جَسَدٌ مَا".

وأما **السؤال الثاني**، فقد قال تعالى: "وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" (آل عمران 50). فإذا كان المسيح ملتزما بالتوراة فما الذي أحَلَّه المسيح لأتباعه؟

ويوجد تفسيران للآية:

- ولأحل لكم بعض الذي حرَّمه الله عليكم.
- ولأحل لكم الذي حرَّمه الأحبار عليكم.

والتفسير الثاني هو الغالب على الظن، وقد قال تعالى عن اليهود والمسيحيين: "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ" (التوبة 31)، وجاء في تفسير الآية أن الأحبار كانوا يُحللون لهم ما حرم الله ويُحرمون عليهم ما أحل الله. ونستطيع هنا الاستدلال بالانتقاد الشديد الذي كاله المسيح للفريسيين، وقد وضعنا هنا فقرات من هذا الانتقاد (متَّى 23.1)، وفي الواقع فإن الإصحاح 23 كله في متَّى (من 1 إلى 39) هو انتقاد شديد للفريسيين.

وللدلالة على ما سبق فإنه توجد فقرة مشهورة في التلمود (Bava Metzia 59a–b) وهي كالتالي (باختصار وتصرف):

كان هناك خلاف بين أحد الأحبار وزملائه في موضوع فقهي، وعندما لم يقتنعوا بحججه صرخ قائلا: إذا كنت أنا على الحق فلتشهد لي هذه الشجرة وعندها تحركت الشجرة من مكانها. فقالوا له: الأشجار ليست دليلا في الأحكام. فقال الحبر: إذا كنت أنا على الحق فليشهد لي هذا السَّيل، وتحرك السيل من مكانه. فقالوا: السيول ليست دليلا في الأحكام. وهنا صرخ الحبر قائلا: إذا كنت أنا على الحق فلتشهد لي هذه الحيطان (جمع حائط)، فتحركت هذه الحيطان. فقالوا: الحيطان ليست دليلا في الأحكام.

وعندها قال الحبر: إذا كنت أنا على الحق فلتشهد لي السماء، وعندها جاء صوت من السماء يقول لهم: لماذا تختلفون مع الحبر وهو على الحق، وعندها قال أحدهم: التوراة ليست في السماء، والأصل في الحكم بالأكثرية، وبالتالي فالسماء ليس لها حق التدخل في وضع الأحكام:

"Since the Torah was already given at Mount Sinai, we do not regard a Divine Voice, as You already wrote at Mount Sinai, in the Torah: "After a majority to incline" (Ref: Sefaria).

"The Torah was already given to man at Sinai. It is no longer G-d's to decide. Rather, we adhere to the general principle of following the majority opinion" (Ref: Rosenfeld).

وعندها أُسقط في يد الحبر. وتقول الرواية في التلمود أن أحدهم قد التقى النبي إلياس (واليهود يظنون أن إلياس لم يمت) وسأله عن ردة فعل الرب فيما حدث، ويقول إلياس إنَّ الربَّ قد ابتسم وقال: لقد غلبني أطفالي (My children have triumphed over me).

لنشرح ما سبق:

لا يوجد أي دليل عندنا يسمح لنا بتصديق هذه القصة، ولكنها موجودة في التلمود وهي مما يَستشهد بها اليهود الرَّابانيون (Rabbinic Judaism) في أخذ الأحكام بغالبية رأيهم. وأما قولهم: التوراة ليست في السماء، فهو استشهاد بـ سفر التثنية (30.12):

11» إِنَّ هذِهِ الْوَصِيَّةَ الَّتِي أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ لَيْسَتْ عَسِرَةً عَلَيْكَ وَلاَ بَعِيدَةً مِنْكَ.
12 لَيْسَتْ هِيَ فِي السَّمَاءِ حَتَّى تَقُولَ: مَنْ يَصْعَدُ لأَجْلِنَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَأْخُذُهَا لَنَا وَيُسْمِعُنَا إِيَّاهَا لِنَعْمَلَ بِهَا؟
13 وَلاَ هِيَ فِي عَبْرِ الْبَحْرِ حَتَّى تَقُولَ: مَنْ يَعْبُرُ لأَجْلِنَا الْبَحْرَ وَيَأْخُذُهَا لَنَا وَيُسْمِعُنَا إِيَّاهَا لِنَعْمَلَ بِهَا؟

وأما القول إنَّ الأصل هو اتباع رأي الأكثرية في الأحكام فقد جاءت من سفر الخروج (23.2): "لاَ تَتْبَعِ الْكَثِيرِينَ إِلَى فِعْلِ الشَّرِّ، وَلاَ تُجِبْ فِي دَعْوَى مَائِلًا وَرَاءَ الْكَثِيرِينَ لِلتَّحْرِيفِ".

ويقول هذا النص الأخير (بالترجمة العربية): لا تتبع الكثيرين، ولكنهم أخرجوا "اتبع الكثيرين" من السياق (والتي لا يُمكن أن تُفهم إلا بذلك السياق) وأخذوها حُكْما لهم. وكذلك "ليست هي في السماء" فقد تم إخراجها من سياقها؛ فالمعنى الظاهر في السياق أن التوراة ليست صعبة معقدة وإنما هي سهلة التطبيق، وقام الأحبار وأخرجوا جزءا من السياق واستدلوا به للقول إنَّ التوراة ليست في السماء وإنما هي على الأرض وبالتالي لا يحق للسماء التدخل في تفسير التوراة وإنما هذا العمل مخصوص للأحبار وبناء على غالبية الرأي عندهم. وهذا ما نراه تفسيرا للآية: "مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ" (النساء 4:46).

الآن ... لقد وضعنا هنا نصوصا من الإنجيل المسيحي والإنجيل اليهودي، وقد أخذناها من موقع "الأنبا تكلا". وهذه النصوص ليست حجة لنا (نحن المسلمين)؛ حيث إنه لا يوجد فيها سند يُثبت صحتها. فمثلا إذا جاءنا

حديث منسوب إلى الرسول عليه السلام دون سند فإننا لا نأخذه، وإنما نأخذ ما ثبت من السند. وبالنسبة للإنجيل المسيحي فلا سند فيه وبالتالي نحن لا نعرف إن كانت هذه الأقوال فيه قد ذكرها المسيح حقا أم لا. وأما الإنجيل اليهودي فإنه ثبت فيه بعض التحريف وذلك من كثرة الخلافات بينه وبين القرآن في الكثير من المواضيع. وبالتالي فالنصوص في الإنجيلين ليست حجة لنا، ولكننا نستطيع استخدامها قرائن (وليست حُججا) في تفسير الآيات، وهذا الذي قمنا به هنا؛ فقد فسرنا بعض الآيات، وساندنا هذا التفسير بنصوص من الإنجيل المسيحي.

نقطة أخيرة في هذا الباب: اللقب "راباي" (Rabbi) قد وُضِعَ لعُلماء اليهود في فلسطين في القرن الأول الميلادي. وعلى غلبة التخمين فإن اليهود قد جاءوا إلى خيبر بُعَيْدَ الاحتلال البابلي للقدس، وكان اللقب لعلمائهم هو الحبر (وجمعها أحبار)، ولهذا السبب فالعرب لم تكن تعرف اللقب "راباي"، وربما يكون هذا هو تفسير الآية "لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (المائدة 63)، والرَّبَّانيون في الآية هم (على غلبة الظن) الرَّابانيون (Rabbis)، وأما سبب تقديمهم في الآية قبل الأحبار فعلى غلبة التخمين أن الرَّاباي هو اللقب الغالب لعلماء اليهود في العالم، وأما الأحبار فهو اللقب الموجود لعلماء اليهود في الجزيرة العربية فقط. وقد فضلنا تعريب الاسم Rabbi إلى "راباي" عوضا عن "ربَّاني" للتمييز، ولا نرى بأسا في ذلك، فالرسم في القرآن "صلوة" و"حيوة" ونكتبها في شروحاتنا: صلاة وحياة من باب التسهيل. وكذلك من المفيد التنبيه أننا نستخدم "الأحبار" في هذا الكتاب للتعبير عن عامة علماء اليهود.

2.34# أسباب التحريف في التوراة والإنجيل:

من المناسب النظر في الأدلة والأسباب التي من أجلها نستطيع القول وبثقة عن وجود التحريف في الأسفار الإسرائيلية والإنجيل المسيحي:

وأما الأسفار الإسرائيلية فنحن (المسلمين) نؤمن بوجود التحريف فيها، وبعض هذا التحريف قد جاء تعمدا، ولكنَّ البعض الآخر قد جاء نتيجة للأخطاء المتراكمة في النقل والنسخ عبر الأجيال المتلاحقة؛ حيث إن الناس لم تكن تتبارى وتجتهد في حفظ التوراة وبالتالي لم تترسخ التوراة في القلوب، وكانت عملية النسخ مُوكلة لمجموعة محددة متعاقبة من الأحبار.

والدليل على وجود التحريف هو وجود الكثير والكثير من الاختلافات بين الأسفار الإسرائيلية والقرآن، ومنها:

- تحليل الربا للأجنبي: "20 لِلأَجْنَبِيِّ تُقْرِضُ بِرِبًا، وَلكِنْ لأَخِيكَ لاَ تُقْرِضْ بِرِبًا، لِكَيْ يُبَارِكَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ فِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا" (سفر التثنية 23).
- أن الله قد أخبر نوحا: "17 فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ لأُهْلِكَ كُلَّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الأَرْضِ يَمُوتُ. 18 وَلكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ (سفر التكوين 6).
- وأن الملائكة قد أمرت لوطا: "15 قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ" (سفر التكوين 19).

- وبعد نجاة لوط وبناته من سدوم تقول ابنته: "31 وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. 32 هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». (سفر التكوين 19).
- والذي أضل بني إسرائيل في صناعة وعبادة العجل هو هارون عليه السلام (سفر الخروج 32.1).

[مرجع النصوص: موقع الأنبا تكلا].

ومع أن هناك اختلافات جوهرية بين الأسفار عند اليهود والأسفار عند السامريين، ألا أنهما متفقان فيما سبق: فمثلا في موضوع الربا فإن النص السامري هو: "20 للأجنبي تغابن ولأخيك لا تغابن لكي يبارك الله إلهك في كل مطلق يدك على الأرض التي أنت داخل إلى هناك لوراثتها" (سفر التثنية 23، المرجع: الصوري). وكذلك الحال في النصوص السابقة فإن النص السامري يجعل زوجتي نوح ولوط من المؤمنين، ويضع كذلك القصة لبنات لوط، وكذلك يجعل هارون صانع العجل لبني إسرائيل.

وتوجد هنا المعطيات التالية:

- هناك خلافات واضحة بين التوراة اليهودية والسامرية.
- وهناك أحداث اتفقت فيها التوراة اليهودية والسامرية، ولكنها مختلفة تماما مع القرآن.
- ونحن (المسلمين) نؤمن تماما أن القرآن هو كلام الله.

وبالتالي فإن الاتفاق بينهما يدل أن أحدهما قد أخذ من الآخر؛ أي أن التحريف قد حدث لأحدهما، ومن ثم قام الآخر بنقل بعض القصص منه.

الآن ... ضمن ما فهمناه من التقارير المتعلقة بالمقارنة بين الأسفار الإسرائيلية الحالية عند اليهود والأسفار التي تم اكتشافها في كهوف البحر الميت (Dead sea scrolls) فإن الاختلافات بينهما ليست ضخمة. وبالتالي فنحن نسأل هنا ... أين يُمكن أن يكون قد حدث هذا التحريف؟

وغلبة الظن أن التحريف الأكبر ربما قد حدث بعد فترة السبي؛ فقد توقفت عمليات النسخ في فترة السبي، وضاع الكثير من صفحات الأسفار، وبعضها ربما تمت كتابتها من الذاكرة، والآخر ربما تم أخذه بتصرف من الأسفار السامرية (والتي ربما جاءها التحريف أثناء ضلال ملوكها وأثناء السبي الأشوري للسامرين قبل حوالي 200 سنة من السبي البابلي)،، وهنا يكون الباب مفتوحا للتحريف المتعمد وغير المتعمد.

و"عزرا" هو الذي قاد عمليات الجمع والكتابة لهذه الأسفار، وقد ورد اسمه في القرآن بصيغة التصغير (العزير في الآية 30 التوبة)، ولم يتم مدحه أو ذمه في القرآن على عكس الأنبياء الذين وردت أسماؤهم؛ فقد تم مدحهم على الأقل مرتين. ولهذا فإن غلبة الظن أن عزرا ليس نبيا، ولكننا لا نعلم عنه إن كان صالحا أو غير ذلك. ولكن غلبة الظن أن التحريف الرئيسي للأسفار كان في عهده، وربما يكون هو أو مجموعة من أتباعه المسؤولين عن ذلك.

وأما الإنجيل المسيحي فإن هناك عدة مؤلفات اعتمدتها الكنائس المسيحية وأربعة منها تتحدث عن حياة المسيح، وقد قام بتأليفها: متى (Matthew) ومرقس (Mark) ولوقا (Luke) ويوحنا (John).

وهؤلاء المؤلفون غير معروفين على الإطلاق، وهناك نظرة غالبة أن كتاباتهم قد تمت في حوالي نهاية القرن الأول الميلادي (بعد عام 70 ميلادية). وهؤلاء المؤلفون لم يكونوا شهودا على حياة المسيح وإنما أخذوا معلوماتهم من مصادر مختلفة، ولا نعلم عن هذه المصادر أي شيء.

وكذلك فإن هناك الكثير من المعلومات المتناقضة بينهم، وللمزيد في هذا الموضوع: ضع الجملة التالية في الجوجل: Contradictions in the gospels. وقد وضعنا مرجعين في صفحة المراجع: Carlson, Ehrman-1

ومن ضمن التناقض الموجود فإن النساء اللواتي ذهبن لزيارة قبر المسيح بعد حادثة الصلب هن:

- "مريم المجدلية ومريم الأخرى"، حسب إنجيل متى (28.1).
- "مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة"، حسب إنجيل مرقس (16.1).
- "مريم المجدلية ويونا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن"، حسب إنجيل لوقا (24.10).
- وفي إنجيل يوحنا فإنه لم يتم ذكر إلا "مريم المجدلية" (20.1).

وكذلك فإن هناك مشكلة أخرى ... فإن النسَّاخين (الذين نسخوا هذه الأناجيل الأربعة) لم يكونوا على درجة عالية من الدقة والاحتراف في القرن الأول والثاني الميلادي، ولهذا السبب فقد تم اكتشاف العديد والعديد من النسخ القديمة والتي فيها اختلافات كثيرة. وهذا الموضوع هو حي الآن في البحث الأكاديمي، وهناك مُناظرة جميلة في اليوتيوب (المرجع: Ehrman-2) بين بارت إيرمان (Bart Ehrman) ودانيال ولاس (Daniel Wallace) بعنوان: هل يمكن الوثوق بنصوص العهد الجديد (Can We Trust the Text of the NT). وكِلا الرجلين متخصصان في علم اللاهوت، وهما ليسا مسلمين وليس لهما أية علاقة بالإسلام، وإنما الموضوع برمته أكاديمي. ورأي "بارت" أن الأناجيل الأربعة قد تم نسخها بشكل سيء عدة مرات ومرات ومرات إلى الدرجة التي لا يُمكننا استخلاص النسخة الأولى التي كتبها المؤلفون الأوائل. وأما "دانيال" فهو يعترف بوجود المشكلة ولكنه يرى أن لـ "بارت" نظرة متشائمة، وأنه من الممكن (بعد الجهد في عملية المقارنة) استخلاص النسخة الأصلية التي كتبها المؤلفون الأوائل.

وقد اتفق دانيال وبارت في النقاط الأكاديمية المتعلقة بالتحريف في الأناجيل الأربعة ومنها مثلا أن قصة الرجم المشهورة ليس لها أصل: وهي القصة التي تقول إن اليهود قد أمسكوا بزانية ووضعوها أمام المسيح وسألوه أن يحكم عليها فقال لهم: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلًا بِحَجَرٍ (يوحنا 8.7)،، وهذه القصة ليست موجودة في النسخ القديمة من إنجيل يوحنا.

وحتى لو أصاب دانيال هدفه واستطاع (بعد المقارنة) أن يستخلص النسخة الأولى من الأناجيل الأربعة التي وضعها المؤلفون الأوائل، فإنه تبقى هناك مشكلة واضحة وهي أننا لا نعرف أي شيء عن هؤلاء المؤلفين الأوائل، ولا نعرف أي شيء عن مصادرهم التي اعتمدوا عليها.

وهنا يوجد سؤال ... قال تعالى: "فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (البقرة 79)، وإذا كانت الاختلافات قليلة بين النسخة الحالية للتوراة وتوراة البحر الميت، فأين هذه الكتب المذكورة في هذه الآية؟

الجواب: الآية عامة وليست خاصة لليهود فقط، وهي تتعلق بكل ادعاء غير صادق عن الله. فمثلا: قيام أحدهم بكتابة فتوى يعلم أنها غير صحيحة ثم يقول هذا هو حكم الله فإن هذه الآية تنطبق عليه. ولكن حيث إن سياق الآية يتعلق باليهود فإننا نستطيع استخدام هذه الآية كدليل على وجود التحريف في التوراة والأسفار اليهودية الأخرى.

وهناك ثلاث مواضيع أخرى سنطرحها هنا: موضوع الشياطين في التوراة، وموضوع اليوم الآخر في التوراة، وموضوع التوراة بيد يحيى.

التوراة وموضوع الشياطين:

الشياطين غير مذكورين في التوراة، ولم يبدأ ذكرهم في الكتب اليهودية إلا ربما في العهد الإغريقي في فلسطين. بل إن الذي أغوى آدم وحواء في الجنة هي الحَيَّة وليس إبليس.

ولا يوجد لدينا جواب واضح لهذه الملاحظة. وقد كان هناك ادعاء في صفحة إلكترونية (وقد تغيرت الصفحة الآن ولم تعد موجودة) أن الحيَّة في التوراة مذكورة بلفظة "تشَّاش" (Nachash) وأنَّ هذه الكلمة في التوراة السامرية هي "كَشَّاش" (Cachash) وتعني الكذَّاب. ولكن بعد النظر في التوراة السامرية فقد تبين أن الكلمة هناك هي "الثعبان" وليست "الكذاب". ومع ذلك فإن هذا الرأي مفيد؛ إذ إنَّ الفرق بين النشاش والكشاش هو حرف واحد، وبالتالي من الممكن أن تكون هذه الكلمة قد تم تحريفها بالخطأ أثناء النسخ وثبت هذا التحريف في النُّسخ التالية.

وما سبق هو احتمال، ولكن الواضح أن موضوع الجن لم يكن مذكورا في التوراة، وأن الشياطين (ككائنات خفية) لم تكن معروفة عند بني إسرائيل وقت موسى. ونستطيع هنا وضع تفسير مقبول لما سبق: فالتوراة لم تَحْوي جميع المعلومات في الكون والحياة، والظاهر أن البشر ذلك الوقت لم يَدَّعوا وجود الكائنات الخفية حولهم، وكيد إبليس ضعيف كما في قوله تعالى: "إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا" (النساء 76)، ولهذا السبب فربما لم يتم التطرق إلي هذه الكائنات في التوراة.

وكذلك القرآن فهو لم يتعرض لجميع الظواهر الموجودة في الكون والحياة، وإنما تعرض لأمور مهمة، وتعرض كذلك لأمور كانت دارجة وقتها. وكانت العرب وقتها تُؤمن بوجود الجن (وهي كائنات خفية عن الأعين) فقام القرآن بالتعرض لهذا الموضوع.

وقد شرحنا موضوع الجن بتفصيل في كتاب سابق "الجن، ما نتوهمه لهم وما يمكن استنتاجه عنهم" (رقم 10 في الموقع الإلكتروني).

التوراة واليوم الآخر:

لا يوجد ذكر في التوراة لليوم الآخر والجنة والنار، وهي كذلك غير مذكورة في الأسفار اليهودية الأخرى إلا متأخرا وربما في العهد الإغريقي في فلسطين.

وهذا الأمر عجيب جدا ولا نجد له تفسيرا مريحا. ومن المؤكد ضمن النظرة العلمية التاريخية للموضوع (ودون الاعتماد على النصوص الغيبية) أن بني إسرائيل كانت عندهم فكرة واضحة لوجود اليوم الآخر وذلك لوجودهم في مصر سنوات طويلة، وكان أهل مصر يُؤمنون بالحياة الآخرة. وكذلك فإنه من الأمور الفطرية في المجتمعات التساؤل: من أين أتينا، وأين نذهب، وما هو الموت، وماذا يحدث بعد الموت. ويوجد في التوراة (وهي الأسفار الخمسة الأولى في الكتاب اليهودي) الجواب للتساؤل الأول (قصة آدم وحواء)، ولكن لا يوجد فيها أي جواب أو ذكر للتساؤلات الأخرى. وهذا أمر عجيب جدا.

وغلبة التخمين أن موضوع اليوم الآخر كان معروفا لبني إسرائيل، وكانت المعلومات المتعلقة فيه تنتقل من الجيل إلى التالي، ولكن لسبب لا أستطيع تحديده فإنهم لم يُوثِّقوا هذا الموضوع في أسفارهم المتعددة. وهذا التفسير هو غلبة تخمين ولا يصل إلى مستوى الظن.

التوراة ويحيى عليه السلام:

التوراة الحالية ليست مختلفة كثيرا عن توراة البحر الميت (Dead Sea Scrolls)، وبالتالي فإننا نستطيع القول إن توراة البحر الميت كان فيها التحريف كما هو في التوراة الحالية. وقد تم تقدير توراة البحر الميت أنها قبل 64 ق.م. وبالتالي نستطيع القول إنَّ التوراة عند اليهود كان فيها التحريف وقت المسيح.

ولكننا نجد في القرآن "يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا" (مريم 12). فهل كان يحيى يَتعلم ويَحكم بالتوراة المُحَرَّفة أم كانت عنده نسخة غير محرفة من التوراة؟

الجواب: لا نعلم الجواب بالتأكيد، وكل ما نستطيع تقديمه هنا هو غلبة تخمينات. وسنبدأ بالملاحظات التالية:

الكتاب اليهودي (The Jewish Bible) يحتوي على 24 سفرا ضمن ثلاثة مجموعات:

- التوراة: وفيها خمسة أسفار: التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية.
- والأنبياء: وفيها ثمانية أسفار.
- والكتابات: وفيها 11 سفرا.

والتوراة في اللغة العبرية تعني الأحكام، ومجموع الكلمات في التوراة هي حوالي: 80 ألف كلمة، وبالتالي فإن التوراة تُكافئ القرآن من حيث عدد الكلمات. وإذا وضعنا حوالي 1000 كلمة في ورقة A3 فهذا معناه أننا بحاجة إلى 80 ورقة.

الآن .... مستبعد جدًّا أن التوراة الأصل (أي التوراة التي نزلت إلى موسى بالألواح) هي التوراة الحالية؛ حيث إنَّ موسى كان يحمل هذه الألواح معه من سيناء، ولا يوجد أي دليل على وجود معجزة لموسى في حمل هذه

الألواح، وبالتالي نقول إن هذه الألواح كانت ضمن قدرة الإنسان الطبيعية على حملها. ونستطيع القول إن الألواح كانت رقيقة في السماكة، ولكننا نستطيع القول وبثقة إنَّ موسى لم يحمل ثمانين لوحا حجريا.

وبالتالي ... ليس كل الموجود في التوراة الحالية هو من التوراة الأصلية. وهذا مؤكد؛ إذ لا يمكن أن يكون الفصل 34 من التثنية جزءا من التوراة الأصل:

10 وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ، 11 فِي جَمِيعِ الآيَاتِ وَالْعَجَائِبِ الَّتِي أَرْسَلَهُ الرَّبُّ لِيَعْمَلَهَا فِي أَرْضِ مِصْرَ بِفِرْعَوْنَ وَبِجَمِيعِ عَبِيدِهِ وَكُلِّ أَرْضِهِ، 12 وَفِي كُلِّ الْيَدِ الشَّدِيدَةِ وَكُلِّ الْمَخَاوِفِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي صَنَعَهَا مُوسَى أَمَامَ أَعْيُنِ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ.

وهناك الكثير من الفصول في التوراة الحالية والتي نستطيع القول إنها ليست من التوراة الأصل. ويقول اليهود إنَّ القوانين (التعليمات – commandments) في التوراة هي 614 قانونا، ومن الممكن جدا أن تكون هذه القوانين هي التي نزلت بالألواح إلى موسى؛ لأنه من الممكن وضعها في ألواح قليلة العدد والتي يُمكن لموسى أنْ يحملها.

ولهذا فإن غلبة التخمين أنَّ القصص الموجودة في التوراة الحالية لم تكن مكتوبة في الألواح، وإنما جاءت هذه القصص من موسى أو أحد الأنبياء بعده، ومع السنين قام اليهود بتجميع القوانين والقصص في الأسفار الخمسة، وربما تم هذا الأمر بعد العهد البابلي حيث ضاعت بعض الأسفار ونُسيت الكثير من القصص فقام الأحبار بعد العهد البابلي بتجميع الموجود من الأسفار وتسجيل ما تم تذكره من القصص، ووضع كل ذلك في "الكتاب اليهودي". وغلبة التخمين أن جزءا كبيرا من التحريفات (التغيير والإضافة والحذف) في الكتاب اليهودي قد جاءت في هذه الفترة، وربما جاءت خَطئًا بسبب اختلاط القصص ببعضها في الذاكرة.

وبناء على ما سبق فإننا نستطيع القول إن التكوين والخروج وكذلك القصص الموجودة في الأسفار الثلاثة الأخرى ليست من التوراة الأصل في الألواح. وبالتالي عندما نقول عن التحريف في التوراة الحالية فإنها تتعلق بالقصص (والتي جاءت إلى اليهود من الأنبياء) والقوانين (والتي جاءت من الألواح). ومن المؤكد أن التحريف (تعمدا أو إهمالا) قد جاء إلى القصص والقوانين معًا، ولكن غلبة التخمين أن التحريف في القصص كان أكبر بكثير من التحريف في القوانين.

ورجوعا إلى موضوع يحيى؛ فإن السؤال يجب أن لا يتعلق بالقصص (لأن غلبة التخمين أنَّ القصص لم تكن في الألواح)، وإنما يتعلق بالقوانين. وبالتالي يكون السؤال: هل كان هناك تحريف في القوانين وقت يحيى، وهل كان يحيى ملتزما بهذه القوانين؟

لقد تعهد الله بحفظ القرآن كما في الآية 9 من الحجر. ولا نظن بوجود هذا التعهد للتوراة. وبالتالي إذا قام آباء اليهود بالتحريف (تعمدا أو خطئا)، فإن غلبة التخمين أن هذا التحريف سيثبت عند الأبناء ولن تقوم السماء بالتَّنبيه إليه، وسيتحمل الأبناء عواقب هذا التحريف.

وهنا يجب التنبيه أنَّ الأبناء لا يتحملون وزر آبائهم في المَحاكم، ولا يتحملون وزر آبائهم يوم الدِّين، فكُلٌّ مسؤول عن عمله، ولكن في "سنة الدنيا" فإن مظالم الأباء تُحيط بالأبناء والأحفاد. وكثير من مشاكل الأحفاد قد جاءت بسبب المظالم أو القرارات الخاطئة من الأجداد.

ولكنَّ غلبة التخمين أنَّ التحريف في القوانين كان قليلا وقت يحيى والمسيح، وأنَّ جزءا كبيرا من هذه القوانين كان من غير تحريف.

2.35# الإسلام والوثنية:

هناك ادعاء يتهم الإسلام بالوثنية وذلك بسبب طواف المسلمين حول الكعبة وتقبيل المسلمين للحجر الأسود. وهذه الادعاءات هي ضمن "الادعاءات غير المنطقية" والتي يُطلقها البعض دون منطق ولا تمحيص وإنما هدفهم هو التشكيك بأي وسيلة ممكنة. وينطبق على هذه الادعاءات الوصف التالي: الاتجاه نحو الشمال من نقطة محددة هو اتجاه واحد فقط، والاتجاه إلى "غير الشمال" هو عدد لا نهائي من الاتجاهات. وكذلك هذه "الادعاءات غير المنطقية" فعددها لا نهائي؛ لأنها لا ترتبط بمنطق وإنما تقوم على لصق العبارات بعضها ببعض، وهدفها الوحيد هو التشكيك.

وسنقوم هنا بمناقشة هذا الادعاء بطريقة منهجية أولا، ثم سنقوم بتقديم الطريقة المختصرة؛ وذلك لأنه سيكون مجهدا رد "الادعاءات غير المنطقية" واحدة واحدة.

الآن ... عندما يقوم أحدهم بوضع "ادعاء غير منطقي" فإن الطريقة المنهجية في المناقشة هي **المقارنة** (وذلك للتأكد من صحة أو فساد الربط) وتحديد **المصداقية** للمعلومات ذات العلاقة (وذلك لتبيان "الصحة أو الخطأ" و"الوضوح أو الغموض" فيها) والتحقق من **مصدر** المعلومات (وذلك للتأكد من ثبات أو ضعف هذه المعلومات).

ولنفترض مثلا أن شخصا قد وضع الادعاء التالي:

- سعيد من العراق.
- البصرة من العراق.
- إذن سعيد من البصرة.

فإننا نستطيع استخدام المقارنة لتبيان فساد هذا الربط ونقول: هذا أحمد من العراق وهو ليس من البصرة وإنما من بغداد.

ولنضع ادعاء الوثنية السابق في الوصف الأرسطي التالي:

- الطواف حول الأشياء هي أعمال وثنية، وتقبيل الأشياء هي أعمال وثنية.
- المسلمون يطوفون حول الكعبة ويُقَبلون الحجر الأسود.
- إذن الإسلام ديانة وثنية.

ولنبدأ **المقارنة**:

- هل نستطيع أن نقول إن ركوع المسيحيين أمام التماثيل في الكنائس دليل أن المسيحية هي ديانة وثنية؟

- هل نستطيع أن نقول إن تقبيل المسيحيين للصليب هي دليل أن المسيحية هي ديانة وثنية؟
- هل نستطيع أن نقول إن تحية العلم هي عمل وثني؟
- هل نستطيع أن نقول إن احترام الشيوعيين لميراث لينين هي دليل على الوثنية في الشيوعية؟
- إلخ.

وبالنسبة **لمصداقية** المعلومات فإننا نستطيع أن نسأل عن سلامة ومصداقية العبارة التالية: "تقبيل الشيء هو عمل وثني". وللتأكد من هذه المصداقية فإن علينا أن نسأل ... ما هو تعريف الوثنية؟
والديانة الوثنية (Polytheism) هي الديانة التي تؤمن بوجود عدة آلهة ذات قوة وتأثير، ويتم تجسيد هذه الآلهة بالتماثيل. وإذا أخذنا هذا التعريف فإن العبارة: " تقبيل الشيء هو عمل وثني" هي غير صحيحة.

وأما التحقق من **مصدر** المعلومات: فإننا نستطيع أن نسأل الشخص صاحب الادعاء إن كان هذا الادعاء قد جاء من جهة محترفة أم أنه رأي شخصي له، وإن كان هذا الشخص قد أحاط بالمعلومات ذات العلاقة أم أن هذا الادعاء هو "لصق في العبارات".

ومثال على "لقص العبارات" القول: "اليهود أكثر الناس تقديسا لأسلافهم وبالتالي فإن السلفية أصلها يهودي" فإن هذه العبارة فاسدة ويمكن تبيان الفساد بتحديد المصداقية: فالحد الأول ليس له إثبات (اليهود أكثر الناس تقديسا لأسلافهم). وبالتالي فإن الادعاء السابق هو استنتاج قد جاء من "لصق للعبارات". وكذلك ادعاء الوثنية فهو استنتاج قد جاء من "لصق للعبارات" وليس فيه أي ربط منطقي.

والطريقة المختصرة في رد مثل هذه الادعاءات هو بالسؤال إن كانت هناك جهة محترفة تُساند هذا الادعاء أو كانت هناك الإحاطة الكافية للمعلومات ذات العلاقة في هذا الادعاء. وإذا لم تكن هناك جهة محترفة ولا توجد الإحاطة فإننا نستطيع (إذا أردنا) أن نعتذر عن مناقشة هذا الادعاء؛ حيث إن مناقشة مثل هذه الادعاءات تكاد تكون مضيعة للوقت والجهد.

والنقطة هنا أن الجهات المحترفة والتي لها حضور في المجتمع الأكاديمي لا تستطيع أن تتحمل مسؤولية الآراء المبنية على "اللصق في العبارات" وإلا سيتم انتقادهم من المجتمع الأكاديمي نفسه. وإذا أرادت الجهات الأكاديمية التشكيك في الحق فإنهم يُخاطئون باستخدام الأدوات المنطقية ولكن دون أن تصل الأمور إلى مستوى "اللصق في العبارات". ولهذا السبب فإن مناقشة الجهات الأكاديمية يكون أسهل بكثير من مناقشة الجهات التي لا تهتم ولا تتقيد بأي منهجية منطقية.

2.36# شهادة المرأة والرجل:

يوجد قول إن شهادة الرجل تكافئ شهادة امرأتين، وهنا يتساءل الكثير كيف يمكن لشهادة رجل من البسطاء أن تكافئ شهادة امرأتين أستاذتين جامعيَّتين؟

وللتوضيح فإننا لا نتبنى القول السابق، وهو ليس القول الجامع للعلماء، فمنهم من يقول كما سبق ومنهم من يقول غير ذلك، وسنقوم هنا بشرح الآية والحديث ذات العلاقة بالموضوع:

قال الله في آية الدَّيْن (2:282) في سورة البقرة: "وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ".

وهذه الآية تضع السبب في التباين وهو موضوع الذاكرة. ونستطيع القول وبثقة أن هذه الآية ليست إلزامية وإنما إرشادية، وذلك لسببين رئيسيين:

- الآية طلبت كتابة عقود التجارة وأعمالها لكبيرها وصغيرها، ولكن من تتبع تصرفات الرسول والصحابة فإننا نجد أن كثيرا من العقود والاتفاقيات لم يتم كتابتها، مما يدل أن النص هنا ليس للإلزام.
- وقد استشهد الصحابة والتابعين بأقوال أمهات المؤمنين والصَّحابيات، ولو كانت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل لما صح أخذ الرواية من صَحابية واحدة.

ولهذا نقول إن هذه الآية ليست إلزامية ولا تخص القضاء، فالقاضي عليه أن يتأكد من قوة الذاكرة عند الشهود رجالا ونساء، فإذا كان الشاهد الرجل ضعيف الذاكرة في موضوع الشهادة لم تصح شهادته، وإذا كانت المرأة الشاهدة قوية الذاكرة في موضوع الشهادة أُخذت شهادتها.

ونقول إن هذه الآية هي إرشادية لأصحاب المال والأعمال؛ إذ تنصحهم هذه الآية بأنهم إذا أرادوا الشَّهادة فليستشهدوا رجلين أو رجل وامرأتين بحيث إن نسيت احداهما تُذكرها الأخرى. ولكن يحق لأصحاب المال والأعمال أن يقوموا بأعمالهم وعقودهم دون استشهاد وعليهم تحمل العواقب في ذلك.

وبالنسبة لحديث "ناقصات عقل ودين" (المروي عن البخاري) فالعبارة فيه: "أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ"، ويوجد هنا احتمالان:

- أن تكون هذه العبارة هي كناية عنما تم ذكره في آية الدَّيْن، أي أن هذه العبارة تستند إلى آية الدَّيْن ومبنية عليها، وبالتالي لا يكون في الحديث إضافة تشريعة جديدة عما ورد في الآية.
- أن يكون في الحديث تشريع جديد إضافي لما هو موجود في آية الدَّين.

ونحن نميل للرأي الأول.

وهناك تساءل من الغربيين إذ يقولون إنَّ هناك دراسات قد تم عملها في أمريكا وقد بينت أن ذاكرة المرأة على العموم لا تقل جودة عن ذاكرة الرجل. ولا نعترض على هذه الدراسات، فهذه النتائج منطقية، إلا أن إطار الدراسة فيها لا يصلح للتعميم: فالنساء في أمريكا يلدن طفلا أو اثنين قُبيْل الأربعين، وجُلُّ أعمالهم في المكاتب، وهذه لم تكن حياة النساء وقت القرآن، ولكي تكون الدراسة للتعميم فليقوموا بها في الهند أو أفريقيا حيث إن النسوة هناك يلدن بالخمسة والعشرة، وجل حياتهن في البيت يُديرُنَّه ويُديرُنَّ حياة أولادهن. ولنعمل الدراسة هناك ولنرى إن كان هناك اختلاف في قوة الذاكرة للتفاصيل بين الرجل والمرأة. فالمرأة التي تلد بين الخمسة والعشرة يكون جُل حياتها في إدارة بيتها وإدارة حياة أولادها فإنها لا تستطيع القيام بما سبق إلا بمهارة تعدد المهام (multitasking)، وتتطلب هذه المهارة القليل من عدم التركيز؛ لأن الشخص إن كان شديد التركيز في أمر فإنه لا يستطيع أن يكون متعدد المهام، والعكس صحيح. وفائدة عدم التركيز أنه يُساعد في إنجاز الأعمال الروتينية المتوازية ولكن

هذا قد يؤدي في المقابل إلى عدم الاهتمام التام بالتفاصيل. ولهذا دَعونا ندعوا علماء الغرب إلى دراسة الذاكرة عند النسوة اللاتي تفوَّقن في مهارة "تعدد المهام" ثم بعدها نُناقشهم في الأمر.

2.37# الإسلام والعبودية:

هناك رأي يضعه الملحدون وهو كالتالي: لو كان الإسلام ديانة صحيحة لما رَضِيَت بالعبودية (أي استعباد البشر للبشر). ونستطيع أن نضع هذا الرأي ضمن الوصف الأرسطي التالي:

- العبودية هو ظلم من البشر للبشر.
- لا يمكن للديانة الصحيحة أن تقبل الظلم.
- الديانة الإسلامية قد قبلت بالعبودية.
- إذن الديانة الإسلامية قد قبلت بالظلم.
- إذن لا يمكن أن تكون الديانة الإسلامية (أو الديانات السماوية الأخرى) صحيحة.

والوصف السابق قد يُثير الارتباك، ومن السهل بيان الاعتراض فيه ولكن علينا أولا أن نحدد الطرق التي يتم استخدامها في إثبات خطأ أو صحة الآراء (للمزيد في هذا الموضوع راجع الكتاب السابق "مهارة الربط والتحليل المنطقي"):

- يمكننا تحديد فساد الرأي أو صحته باستخدام الاستقراء، وهو النظر في نسبة تطابق الرأي مع جميع الوقائع والأحداث. وإذا كان التطابق تاما فهذا إثبات تام، وإذا كان التطابق غالبا فهذا إثبات في صحة الرأي مع بعض الاستثناءات، وإذا كان التطابق ليس تاما ولا غالبا فهذا يدل أن الرأي ليس بالضرورة صحيحا.
- ويمكننا كذلك إثبات الرأي بالاستنباط، وهو أن نستخرج هذا الرأي من آراء سابقة موثوقة وذلك باستخدام أدوات الربط المنطقي. وتعتمد صحة الرأي على صحة الآراء السابقة وعلى الدقة في الربط.

وما سبق هما الطريقتان الرئيسيتان في إثبات صحة الآراء. ولكنْ هناك آراء نعتبرها صحيحة ونعتمدها بناء على "المنطق العام" (Common Sense). والمنطق العام يُمثل مجموعة من الآراء التي لها قبول عاطفي وحالة شعورية بالراحة دون وجود أدلة منطقية كافية لإثباتها. والمشكلة أن المنطق العام قد يختلف من زمان إلى زمان، بل قد يختلف من مجتمع إلى آخر. فمثلا: السرقة في عموم البشرية (المسلمين وغير المسلمين) هو أمر مستهجن في عموم المجتمع، ومع ذلك تجد البعض الذين يُفَلسفون الأمور ويقولون إنه أمر جيد القيام بسرقة الأغنياء من أجل الفقراء. وكذلك فإن التضحية من أجل "الحق والأمَّة والوطن" هو أمر نبيل ضمن المنطق العام للمجتمعات الأبية ولكنه أمر غبي ومستهجن ضمن المنطق العام للمجتمعات المنهزمة الضَّالة. وكذلك فإن زواج الأخ من الأخت هو أمر مرفوض في عموم البشرية، ولكنه لم يكن مرفوضا في العائلات الفرعونية القديمة.

والنقطة هنا أن الآراء التي ليست لها مرجعية ثابتة واضحة وإنما تعتمد على المنطق العام لمجتمع محدد (أو لعموم البشرية في زمن محدد) فإنها (هذه الآراء) قد لا تكون جامعة مانعة، وقد لا تكون صحيحة دائما (أي ربما يكون لها استثناءات) وقد لا تكون صحيحة أبدا.

وبالتالي عندما يتعارض رأيان؛ الأول يعتمد على أدلة منطقية (استقراء أو استنباط) واضحة ثابتة، والثاني يعتمد على "المنطق العام" فإن الرأي الأول هو الأوْلى (لأن الرأي الثاني قد لا يكون جامعا مانعا وقد لا يكون صحيحا دائما وقد لا يكون صحيحا أبدا).

ولننظر الآن إلى الحد الأول في منطقية "العبودية والإسلام": "العبودية هو ظلم من البشر للبشر" ونسأل: هل لهذا الرأي إثبات منطقي أم أنه يعتمد على "المنطق العام"؟ وبالنسبة للمؤلف فإن الحد السابق صحيح تماما، والمؤلف مقتنع به دون أي شك، ولكن هذا الرأي قد توصلت إليه البشرية حديثا، ولكن ماذا عن "المنطق العام" قبل ثلاثة آلاف سنة؟

العبودية كانت متجذرة في ثقافة معظم الحضارات البشرية ومنذ آلاف السنين، والعبودية تأتي عموما من خلال الأسرى في الحروب، وأما العبودية التي جاءت من الخطف فهي حديثة نسبيا وربما بدأت منذ الـ 1000 ميلادية، والأفارقة الذين تم استعبادهم في أمريكا وأوروبا قد جاءوا من خلال الخطف. وأما العبودية في الأزمان القديمة فقد كانوا يأتون من الأسرى في الحروب. وإذا قلنا إنَّ الرُّومان كانوا يستعبدون الأسرى العرب، فهل يحق للعرب استعباد الأسرى الرُّومان! وهكذا كان "المنطق العام" قديما.

وهنا يجب التنبيه أن الإسلام لم يفرض العبودية ولم يجعلها أمرا مستحبا وإنما العبودية كانت ثقافة متجذرة في المجتمعات البشرية وقت الإسلام، ولم يُحدد الإسلام فيها موقفا محددا وإنما وضعها ضمن "المباحات". وعموم المباحات قد تم تَرْكُها لعقول المسلمين،، وهذه النقطة سنناقشها لاحقا.

والنقطة الأساسية هنا أن منطقية "الإسلام والعبودية" تعتمد على "المنطق العام"، وربما لا نستطيع الإجابة على هذه المنطقية بشكل كاف ومريح، ولكن هذا لا يعني أن "صِحَّة الإسلام" قد دخلت إلى دائرة الشك؛ وذلك لأن الآراء التي تستند إلى أدلة منطقية ثابتة تكون أعلى وأولى من الآراء التي تستند إلى "المنطق العام".

وهنا نرجع إلى ما قلناه سابقا في عدة أبواب ... ربما لا نستطيع الإجابة على منطقية الملحدين بشكل مريح، ولكن عدم الإجابة لا يعني أننا على حق ولا يعني أننا على باطل وإنما يعني أننا لا نستطيع الإجابة. وأما الحق والباطل فَتُحدده الأدلة: فإذا كان رأينا يستند إلى أدلة قوية واضحة فرأينا يكون قويا واضحا، وإن كان رأينا يستند إلى أدلة ضعيفة فرأينا يكون ضعيفا.

ولكن ... من المفيد الدخول بعمق في موضوع العبودية من أجلنا (نحن المسلمين) قبل غيرنا:

هناك من يقول أن "كل شيء" مذكور في القرآن، وذلك لقوله تعالى: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ" (جزء من 89 النحل)، " مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (جزء من 38 الأنعام) ، "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" (جزء من 3 المائدة). ولكن الرأي السابق ربما لا يكون دقيقا: فعبارة "كل شيء" في الصياغة الأدبية عند العرب لا تعني بالضرورة المعنى الحرفي وإنما تعني عموما الكثرة، والدليل على ذلك هو الآية القرآنية عن بلقيس: " وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ" (جزء من 23 النمل)، وعن ذي القرنين: "وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا" (جزء من 84 الكهف). و"كل شيء" في هذه الآيات لا يعني المعنى الحرفي وإنما يعني الكثرة. وللتذكير فإن العرب في بلاغتهم واختصاراتهم

كانوا يَذكرون الجزء ويقصدون الكل، ويذكرون الكل ويقصدون الجزء. ولهذا السبب فإن المعنى في "كل شيء" يعتمد على السياق.

وأما الآية "أكملت لكم دينكم" فإنها تُوَضِّحُ أن الله ذلك اليوم قد أكمل تنزيل الفرائض المطلوبة والمحرمات المنهاة عنها والهداية المنزلة إلينا. وتوجد بين الفرائض والمحرمات مساحة كبيرة (المستحبات والمباحات والمكروهات) وقد تم وضع هذه المساحة لعقول المسلمين كي يُنَظِّموا أمورها. والدليل على ذلك أنه لا توجد تفصيلات واضحة في الإسلام فيما يتعلق مثلا في منظومة الحكم: لا منظومة استخلاف ولا منظومة محاسبة ولا آليات متابعة. وكل ما هو موجود في النصوص لا يتعدى خطوط عريضة غير صريحة. ولهذا السبب نقول إن منظومة الحكم قد تم تركها لعقول المسلمين وذلك ضمن الخطوط العريضة التي تم وضعها في ذلك.

وكذلك الخمرة فهي لم تكن محرمة في التوراة ولم يُحرمها المسيح، وبقيت مدة لا تقل عن 16 سنة وهي "غير محرمة" في الإسلام مع أن القرآن قد وصفها في آية (قبل التحريم) أنَّ إثمها (أي ضررها) أكبر من نفعها: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا" (219 البقرة). وهنا نقول إن الخمرة في التوراة قد تم وضعها في "المباحات" وبالتالي فهي مما تركها الله وقتها لعقول اليهود.

> وانتبه أن الله قد قال عن التوراة: وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145 – الأعراف)، و"كل شيء" هنا لا تعني بالضرورة الحرفية وإنما تعني الكثرة.

وكذلك فقد كانت هناك مشكلة كبيرة في طريقة تحضير الخبز: فقد كان يتم طحن القمح باستخدام الرحى وهي صخرتين فوق بعضها البعض، وقد كانت تتسرب الدقائق من الصخرتين في الطحين أثناء عملية الطحن، وهذه الدقائق كانت تعمل في الأسنان مثل المبرد في الحديد، ولهذا السبب كانت الأسنان تتآكل في عمر الخمسين. ولم تقم التوراة ولا القرآن بتحذير الناس في ذلك، وإنما تُرِكَ هذا الأمر لعقول الناس.

وكذلك فقد كانت نظرة الناس إلى الأرض وقت نزول التوراة أنها مسطحة، ولم تقم التوراة بتنبيه الناس لخطأ ذلك، وإنما تُرِكَ هذا الموضوع لعقولهم. وقد كانت نظرة الناس وقت نزول القرآن أن الشمس تدور حول الأرض، بل هناك نصوص قد فهمها البعض أنها دليل على دوران الشمس حول الأرض، ولم يقم القرآن بتنبيه الناس لخطئهم في ذلك، وإنما تُرِكَ هذا الموضوع لعقولهم.

والنقطة التي نريد التنبيه لها أن هناك فرائض ومستحبات قد تم تحديدها، وهناك مكاره ومحرمات قد تم التنبيه لها، وهناك مباحات (ومعلومات) قد تُرِكَت في عمومها لعقول المسلمين لتحديد المنافع والأضرار فيها.

والهداية عندنا أعلى من الهداية التي أعطاها الله لليهود، وفي المقابل فإن العبادات عندنا أكثر من العبادات عند اليهود، ولهذا قلنا في كتب سابقة أن الهداية من السماء ليست بالمَجَّان، وإنما يتم تقديم الهداية مقابل حجم مكافئ من العبادات. وما سبق يُمكن الانتباه له في الآية: "فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" (239 – البقرة)، وهذه الهداية قد وُضعت لنا ضمن إطار "الفرائض والمستحبات" وإطار

"المكاره والمحرمات". وأما المباحات فقد تم وضعها لعقول المسلمين كي يُحددوا المنافع والمضار فيها ويقوموا إما بالإلزام أو المنع أو التنظيم إلخ.

والعبودية وقت ظهور الإسلام كانت ضمن ثقافة متجذرة في معظم الحضارات المحيطة، ولم يكن من السهل منعها وإلغاؤها. وضمن الهداية التي وُضعت لنا (والتي كانت مُقابل العبادات التي فُرِضت علينا) فإن الإسلام لم يحدد موقفا محددا في العبودية إلا أنها ضمن المباحات، بالضبط كما كانت الخمرة في التوراة؛ حيث لم تُحدد التوراة موقفا محددا في الخمرة إلا أنها ضمن المباحات.

والنقطة التي يجب التنبيه لها أنه لو وَضَعَ الله كل الهداية في القرآن وتم تحديد موقف الإسلام في كل المواضيع الشائكة (مثل: كيفية متابعة الخليفة وكيفية اختيار الخليفة وكيفية محاسبة الخليفة والحقوق والواجبات المتعلقة بالناس تجاه السلطة، والسلطة تجاه الناس، وموضوع العبودية وكيفية إلغاؤه، إلخ) لكانت العبادات المفروضة على المسلمين ضخمة جدا جدا،، ولكن الهداية التي تلقاها المسلمين تُكافئ العبادات التي فُرضت عليهم، بالضبط كما كانت الهداية التي تلقاها اليهود مكافئة للعبادات التي فُرضت عليهم.

2.38# أين يقع العقل؛ في الدماغ أم القلب:

قال تعالى:

- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46 – الحج).
- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37 – ق).
- وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179 – الأعراف).

وقد ذكر أبو حفص ابن شاهين في الجزء الثاني من أخبار أحمد بإسناده عن فضيل بن زياد وقد سأله رجل عن العقل أين منتهاه من البدن؟ فقال : سمعت أحمد بن حنبل يقول: العقل في الرأس أما سمعت إلى قولهم : وافر الدماغ والعقل، واحتج هذا القائل بأن الرأس إذا ضرب زال العقل. ولأن الناس يقولون: فلان خفيف الرأس وخفيف الدماغ ويريدون به العقل (المرجع: نص مشهور في المراجع عن أحمد بن حنبل). ولا أعلم نصا عن العرب الأقدمين في تحديد مكان العقل، ولكننا نستطيع القول (استشهادا بأحمد) أن العرب كانت تضع العقل في الدماغ، ولكن الكثير من العلماء المسلمين قد جعلوا العقل في القلب كما يُمكن فهمه في الآيات السابقة.

والنقطة هنا أنَّ البحث العلمي قد وضع العقل في الدماغ وليس القلب. وبالتالي يوجد هنا تعارض بين الآيات والاستنتاجات العلمية، وسنحاول هنا حَلَّ هذا التعارض. ولكن قبل ذلك يجب التنبيه أن هذا التعارض ليس تناقضا (راجع 1.6) وذلك لأن هذا الأمر لا يتعلق بتناقض صريح بين عباريتن في القرآن، وإنما فِهْمنا للآيات السابقة يتعارض مع فِهْمنا للاستنتاجات العلمية. وبالتالي فإن الأمر هنا هو تعارض أفهام.

الآن ... لم يكن يوجد عند العرب وقت الإسلام المفردات المتخصصة في وصف التحليل المنطقي والذكاء وإنما كانت هناك مفردات عامة مثل: واسع الحيلة، الإصابة بالظنون ومعرفة ما يكون بما قد كان، الحكمة، إلخ. وكل ما سبق يمكن إدخاله في كلمة "العقل".

وهنا نسأل ... عندما نقول عن الشخص أنه "عاقل" فهل نقصد هنا أنه واسع الحيلة أم نقصد أنه حكيم؟ وعندما نطلب من الشخص أن "يتعقل" فهل نطلب منه أن يكون واسع الحيلة مصيبا بالظنون، أم نطلب منه أن يتصف بالحكمة؟

وكذلك عندما نقول إن "عقل" فلان حاد، فهل نقصد أن فلان "واسع الحكمة" أم نقصد أن فلان "شديد الذكاء"؟

والنقطة هنا أن "العقل" تأخذ معاني أكثر من المعاني الموجودة في "العاقل" و"التعقل"، فشدة العقل تتعلق بالذكاء وسعة الحيلة ومهارة التصرف وسرعة البديهة (إلخ)، وأمَّا التعقل فإنه يتعلق بالحكمة وحسن التصرف ولباقة الحديث (إلخ).

وعندما نرى الأشخاص فإننا نستطيع تمييز الذكاء والحكمة فيهم، وهناك أشخاص شديدو الذكاء ولكن حكمتهم ليست عالية، وهناك أشخاص ذوو حكمة عالية ولكنهم ليسوا ذوي سعة في الحيلة.

وكذلك فإن للقلب عند العرب معنيان رئيسيان: فهي تعني المضغة العضلية الموجودة في الصدر، وتعني كذلك (مجازا) العاطفة والمشاعر التي نحس بها في الصدر. وإذ قلنا عن فلان إنه قوي القلب فإننا نقصد أنه ذو شجاعة، وإذا قلنا عن آخر إنه ضعيف القلب فإننا نقصد أنه غير شجاع.

ومع أننا نستطيع القول إن كل المعلومات والقدرات والمشاعر محفوظة في الدماغ، إلا أننا كذلك نستطيع التمييز بين القوة العقلية والمشاعر. ومن المؤكد أن القوة العقلية تقع في الدماغ، ولكننا نستطيع مجازا القول إن المشاعر تقع في الصدر لأننا نحس بهذه المشاعر في الصدر.

وهنا نسأل التالي: تأتي الاستنتاجات من التحليل المنطقي (والتي هي جزء من القوة العقلية)، ولكن هل الإدراك هو جزء من القوة العقلية أم هو جزء من المشاعر؟

وأستطيع القول إنَّ الإدراك هو جزء من المشاعر: فهناك من يُحيط بموضوع الدراسة ويحفظها تماما ومع ذلك لا يشعر أنه أدرك الموضوع ويذهب متوترا إلى الامتحان، وهناك من يقرأ الكتاب بشكل سطحي وإذا به يُقرر أنه قد أدرك الموضوع بأكمله ويذهب إلى الامتحان وهو يظن أنه ناجح فيه. والأول سينجح لأنه أحاط بموضوع الدراسة (وإن لم يكن يشعر أنه قد أدركه) والثاني سيفشل في الامتحان لأنه لم يحط بموضوع الدراسة. والنقطة هنا أن الإدراك هو أقرب إلى المشاعر من القوة العقلية.

ولنسأل التالي ... هل تقع الإرادة والانضباط ضمن القوة العقلية أم ضمن المشاعر؟

وغلبة الظن أنهما تقعان ضمن المشاعر؛ لأن الإرادة والانضباط لا تتعلقان بالتحليل المنطقي. وإذا أردنا النظرة الدقيقة للأمور فإن الإرادة والإنضباط يتعلقان بالقدرة على إدارة المشاعر (Emotional Management) والانضباط فيها (Emotional Discipline).

ولنسأل التالي ... لنفترض وجود شخص ذكي لكنه يحكم بوجهين (Double Standards) ويقيس الأمور على هواه. فهل يقع هذا السلوك (الحُكم بوجهين والقياس على الهوى) ضمن حدود القوة العقلية أم ضمن حدود المشاعر؟

وغلبة الظن أن هذا السلوك يقع ضمن حدود المشاعر وذلك لأن هذا السلوك يدل على عدم وجود الانضباط في التحليلات المنطقية. وهذا الانعدام في الانضباط يؤدي إلى تأثر التحليلات المنطقية بالمشاعر والمزاج.

وهنا نسأل أخيرا ... هل الحكمة تقع ضمن حدود القوة العقلية أم ضمن حدود المشاعر؟

وغلبة الظن هنا أن الحكمة تقع ضمن حدود المشاعر، وكما قلنا سابقا فإنه يوجد أشخاص شديدو الذكاء ولكن حكمتهم ليست عالية، ويوجد أشخاص ذوو حكمة عالية ولكنهم ليسوا شديدي الذكاء.

وهنا نرجع إلى الآيات ... فهي لم تقل أن العقل مكانه القلب، ولا نظن أن هذه الآيات تتعلق بالعقل، وإنما تتعلق بـ "التَّعقل". أي أن هذه الآيات تقول إن الحكمة تقع في القلب، ومعناها أن الحكمة تتعلق بالمشاعر والانضباط فيها. وهذا ما يؤكده مناط الآيات وسياقها: فهذه الآيات لم تكن تتحدث عن القوة العقلية في التحليل المنطقي وسعة الحيلة والذكاء، وإنما كانت تتعلق بالحكمة والصدق في وصف الأمور.

2.39# لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ:

ملاحظة: سنقوم هنا وإلى آخر هذا الفصل بذكر بعض المسائل التي أوردها وَرَدَّ عليها ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن"، وهو كتاب جميل وفيه الكثير من المسائل. وقد اخترنا بعضا منها وأجبنا عليها بطريقة ربما تكون مختلفة، ولكن يبقى كتابه مرجعا أساسيا في الردود على شُبهات المُشَككين.

قال تعالى: لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (الرحمن 55:39)، وقال كذلك: "فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ" (الحجر 15:92). فهل يوجد هنا تعارض؟

الجواب: التحقيق مع الشخص يكون لاستخراج المعلومات منه، ولكن عندما تكون المعلومات مسجلة واضحة تامة كاملة، فلا يكون هناك تحقيق معه ولا يتم سؤاله إلا بشكل شكلي وذلك تطبيقا للوائح المتبعة، وإنما يتم إرساله إلى القضاء ومواجهته بالأدلة ضده.

وهذا على غلبة الظن تفسير آية الرحمن (أي أن الأمور يوم القيامة واضحة ومكشوفة)، وأما آية الحجر فإنه يُقصد بها المحاسبة (على غلبة الظن)، وليس التساءل عن أمر معروف مُسَجَّل.

2.40# هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ:

قال تعالى: هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (المرسلات 77:36)، وقال كذلك: "ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ" (الزمر 39:31). فهل يوجد هنا تعارض؟

الجواب: إضافة كلمة يوم إلى كلمة ينطقون تضع المعنى أن الآية تتعلق بموقف محدد ولا يتعلق بكل المواقف (المرجع: الطبري)، ونستطيع التخمين أن هذا الموقف هو في اللحظة التي يسقط فيها الأمر من يد المجرمين ويأتي الحكم عليهم ويتم إرسالهم إلى الجحيم. ونستطيع تشبيه هذا الأمر بما يحدث هنا، فعندما يأتي القاضي بحكم شديد على مجموعة من المجرمين (وهم يأملون أن الحكم سيكون خفيفا) فإنه في هذا الموقف ومن هول الصدمة ستجدهم صامتين يُحاولون استيعاب الأمر، وهذا ما نظنه تفسير آية المرسلات. وأما آية الزمر فهي تتحدث عن موقف المحاكمة قبل الحُكم.

وللتنبيه ... فقد تم وصف الشعر العربي أنه في معظمه شعر وصفي، وهذا يوحي أن الوصف كان هدفا أساسيا للشعراء العرب، وهذا بالتأكيد ليس صحيحا؛ فالشعر العربي كان في معظمه تخيُّلي (وأقول تَخَيلي ولا أقول خَيالي) وفيه فإن هدف الشاعر هو وصف الحادثة وبطريقة تجعل المستمع يرى الأمر وكأنه داخل الحادثة نفسها. فالوصف لم يكن هو الهدف وإنما الهدف هو إيصال المستمع إلى الحالة التخيلية والتي ينسى فيها المستمع محيطه ويبدأ بمشاهدة الحادثة من منظور الشاعر. وما سبق شبيه بأسلوب الروايات الغربية الحديثة، فعندما تقرأ هذه الروايات فإنك تجدهم يُسرفون في وصف الأمور، والهدف ليس الوصف نفسه، وإنما الهدف هو أن يتخيل القارئ الأحداث في القصة وكأنه فيها.

وعندما يضع الشاعر قصيدته فإن فيها عدة مواقف، ويقوم بوصف كل موقف بما يناسبه، وهذا من أساليب البلاغة عند العرب والتي تظهر واضحة في القرآن؛ فآية المرسلات تتحدث عن موقف وآية الزمر تتحدث عن موقف آخر.

2.41# وَلَا يَتَسَاءَلُونَ:

قال تعالى: "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ" (المؤمنون 23:101)، وقال كذلك: "قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ" (يس 36:52)، وقال كذلك: "فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ" (الصافات 37:50)، فهل يوجد هنا تعارض؟

الجواب: الوضع هنا بالضبط كما في النقطة السابقة: عدة مواقف. فآية "المؤمنون" تتحدث عن لحظة البعث، وفيها من شدة الهلع والصدمة أنَّ الناس وقتها لا تهتم بأحد غيرها. وأما آية يس فهي لا تتعلق بتساؤل الناس مع بعضها البعض، وإنما هو حديث الشخص لنفسه يُحاول أن يفهم ما الذي يحدث. وأما آية الصافات فهي تتعلق بموقف لأهل الجنة بعد دخولهم إليها. وما سبق هي مواقف مختلفة تم إظاهرها من خلال هذه الآيات.

2.42# إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ:

قال تعالى: "أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ" (الصافات 37:64)، وقال كذلك: "لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ" (الغاشية 88:6). والضريع نبات والزقوم شجرة فكيف يكون في النار نباتات وأشجار؟

الجواب: ليس من الضروري لجهنم أن تكون واديا كبيرا مملوء بالفحم المشتعل وأن الناس تغرق فيه، وإنما جهنم هو مكان عذاب، والنار والحميم هي مجموعة من أنواع العذاب الذي سيناله المجرمون فيه. وتسمية جهنم بالنار هو أمر مقبول لأنه من الدارج عند العرب تسمية الشيء بالجزء المُمَيَّز فيه.

2.43# وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ:

قال تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (الانفال 33)، وقال تعالى في الآية التي تليها: "وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (الأنفال 8:34). فهل يوجد هنا تعارض؟

الجواب: الآيات تتحدث عن موقفين: فالآية الأولى تتحدث عن الأمر عندما كان الرسول في مكة، والآية الثانية تتحدث عن الأمر عندما استقر الرسول في المدينة، وكانت معركة بدر هو أول العذاب على كفار مكة وقتها.

الفصل الثالث – معالجة الضيق

وهذا الفصل هو امتداد للفصل الثالث ("معالجة الشك") في كتاب "الفلسفة الألفية ومنهج المقاربة".

الآن ... إن مهاراتنا وقدراتنا في اللغة هي أقل بكثير جدا من العرب الجاهليين. وبالتالي فإن تذوقنا للبلاغة العربية في القرآن قد لا يكون كتذوق العرب وقت الإسلام. ولهذا السبب فمن الممكن أن تقرأ بعض الآيات ويأتيك نخز داخلي يَكاد يَقول لك: كيف يكون هذا كلاما بليغا! أيعقل أن يكون هذا هو كلام الخالق!

وربما يأتيك شعور آخر بعد ذلك وهو شعور التأنيب من الضمير (وذلك بسبب الشعور الأول)، وتكون وقتها بين ضغطين متعارضين: الشعور الأول والشعور الثاني.

والشعور الأول قد يكون طبيعيا، وللتشبيه فإن الشخص الأجنبي الذي بدأ توًّا يتعلم العربية فإنه لا يستطيع تذوق القرآن مثلما نتذوقه نحن أو مثلما تذوقه العرب وقت الإسلام. وهذا الشعور يحدث عموما عندما تكون مُركزا (Focus) على نقطة في الموضوع ولا تكون منتبها للصورة العامة.

وللمعالجة فإنه لا داعي لمحاربة الشعور الأول، وإنما اتركه،، وقم بتغيير وجهة النظر من التركيز في النقطة إلى النظرة العامة. وتذكر (ضمن هذه النظرة العامة) الأدلة المتعلقة بوجود الخالق وصحة الرسالة المحمدية، وانتبه أن مهاراتك اللغوية قد لا تكون مكافئة للمهارات اللغوية عند العرب وقت الإسلام،، وهنا سيبدأ الشعور الأول بالانحسار.

بمعنى آخر فإنه لا داعي لمحاربة الشعور الأول ... لأنه في الحقيقة هو الذي قد يُنَبِّهنا للفجوة بين تذوقنا وتذوق العرب وقت الإسلام، والفجوة تتعلق بالضعف في التذوق الأدبي والبلاغة عندنا مقارنة مع العرب أول الإسلام. وهذا التنبيه قد يكون مفيدا.

وكذلك الحال عندما تقرأ بعض الآيات وتجدها تُخالف المنطق الذي تعرفه أو تُخالف النظريات العلمية الموجودة. وهنا ربما يأتيك نخز يقول لك: أمعقول أن يكون هذا الكلام هو كلام الخالق! والعلاج يكون كالسابق: قم بتغيير وجهة النظر من التركيز في النقطة إلى النظرة العامة، وتذكر الأدلة المتعلقة بوجود الخالق وصحة الرسالة المحمدية، وانتبه أن التعارضات الظاهرة بين الآيات والنظريات العلمية ربما تكون لعدم فهمنا لتلك الآيات أو بسبب أن النظريات العلمية ما زالت في طريقها الخطأ نحو الصحيح،، وهنا سيبدأ الشعور السابق بالانحسار.

وقد شرحنا موضوع التعارضات بين الغيب والعلم في المسئلة 2.20 في الفصل السابق. وذكرنا أنه من المفترض أننا قد حصلنا على المناعة الكافية التي تسمح بتخفيف الشعور بالضيق بسبب هذه التعارضات.

وهنا نعود إلى النقطة السابقة ... لا داعي لمحاربة الشعور الأول وإنما اتركه وانتقل من "التركيز في النقطة" إلى النظرة العامة. وقد يكون هناك فائدة من الشعور الأول وهو أنه قد يدفعنا للتساؤل والبحث في تفسير الآيات ومحاولة التوفيق الصحيح بينها وبين الوقائع المختلفة.

والحالة التي نريد أن نصل إليها هي أن يكون في قدرتنا الإنتباه والتساؤل عن الآيات دون أن نشعر بالضيق والشك. والطريقة التي نستطيع فيها أن نصل إلى هذه الحالة هي التَّعوُّد والتكرار: فإذا شعرت بالضيق والشك في إحدى الآيات وعندها انتقلت إلى النظرة العامة الشمولية وارتاحت نفسك. ثم في يوم آخر شعرت بالضيق والشك وانتقلت إلى النظرة العامة الشمولية وارتاحت نفسك، فإنك مع تكرار ذلك ستصل إلى المرحلة التي تبدأ الإنتباه والتساؤل دون أن تشعر بالضيق والشك، أي أنك ستنتبه وتتساءل عن التعارضات الظاهرة بين الآيات (أو بين الآيات والنظريات العلمية) ولكنك في الوقت نفسه تكون مطمئنا تماما دون أي شك أو ضيق.

وكذلك من الممكن الوصول لتلك الحالة عن طريق استعراض الأعاجيب في القرآن. فعندما تشعر بالضيق والشك في الصدر عند قراءتك لإحدى الآيات (إما بسبب ضعفك في التذوق الأدبي أو لظهور التعارض عندك بين الآية والنظريات العلمية التي تعرفها) فلا أقل من أن تستعرض الأعاجيب التي تعرفها في القرآن (وقد أصبحت الآن كثيرة وسنستعرضها في الفصل التالي) وستجد أن مشاعر الشك والضيق ستنجلي من صدرك.

ونستطيع هنا الاستشهاد بالآية التالية والتي سُنِسْقِطُها لموضوع الأعاجيب في القرآن، فقد قال تعالى: "أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ" (127–التوبة).

وغلبة الظن أنَّ القرآن يسأل المنافقين: أنتم تحاولون إشعال الفتنة مرة أو مرتين في السنة ويتم كشفكم، فكم مرة يجب أن يتم كشفكم لكي تقتنعوا تماما أنكم مكشوفون؟

ولمَّا لم يرتدع المنافقون عن غيهم فإن القرآن قد قدم لهم التحذير الأخير: "لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (62–الأحزاب).

ولنقم بإسقاط الفهم السابق على موضوع الأعاجيب في القرآن: كم مرة يجب أن ننتبه ونرتاح إلى ما نقرؤه من أعاجيب القرآن كي نصل إلى المرحلة التي يُمكننا أن نتساءل عن الآيات دون أي أن نشعر بالضيق والشك منها!!

وبالطبع فإن التساؤل السابق لا يهدف لتحديد العدد، وإنما يهدف للتنبيه فقط لا غير، وهو التذكير في حالة ظهور الشك والضيق أن هناك أعاجيب كثيرة في القرآن كافية عند تذكرها أن تُجْلي لك تلك المشاعر.

وفي نهاية الأمر فإننا (نحن المسلمين) قد آمنا بوجود الخالق، وآمنا بصحة الرسالة المحمدية وذلك لأدلة واضحة، وكان نتيجة ذلك أن آمنا بالقرآن كتابا للخالق، وما زلنا (ومنذ عهد الرسول عليه السلام) نشهد الأعاجيب في القرآن، ويعلم الكثير منا (نحن المسلمين في هذا العصر) أن بلاغتنا ومهاراتنا اللغوية ليست كمهارات العرب وقت الإسلام، ونعلم تماما أن العلوم الطبيعية يجب أن تخطو إلى الخطأ كي تصل إلى الصحيح. وبالتالي لا يُستغرب ظهور بعض التعارضات بين العلوم الطبيعية والآيات الغيبية.

وهناك عقدة أخرى يجب الانتباه لها وهي "عقدة التكرار دون دليل"، ولنضرب المِثال التالي:

لنفترض زيدا (وهو مسلم متدين) قد ذهب للدارسة في دولة أجنبية وصدف أن تَعَرَّف على مجموعة من الطلبة المسيحيين المتدينين والذين كانوا ذوي أخلاق حسنة عالية (وللتنبيه فإنَّ الأخلاق الحسنة ليست مرتبطة ضرورة بالديانة؛ فقد تجد ملحدين ذوي ألسنة صادقة وأخلاق حسنة، وقد تجد مسلمين ذوي ألسنة غير صادقة وأخلاق غير حسنة).

ولنفترض أن زيدا تصادق مع هؤلاء الطلبة، وهم قد احترموا تقاليده وثقافته (وذلك لأخلاقهم العالية) ولم يُحاولوا التأثير عليه. ولكن لصحبته لهم فقد كان يسمعهم في صلواتهم ودعواتهم (فيما بينهم) وهم يُكررون: "حب المسيح ابن الله للبشرية". وهنا تظهر "عقدة التكرار": إذ ربما يأتي بعض الشك إلى صدر زيد ويبدأ التساؤل: "لماذا لا يكون المسيح هو ابن الله حقيقة"!! وهذا التساؤل طبيعي في ظروف التكرار، بل إن "عمليات التكرار" هي الأداة الرئيسية والتي يتم فيها ترسيخ الأفكار (الصحيحة والباطلة) في صدر الإنسان.

وعلاج هذه العقدة سهل ميسور، وهي الطريقة نفسها التي ذكرناها عدة مرات في هذه المقالة: انتقل من "التركيز في النقطة" إلى النظرة العامة، وقل لنفسك: هل هذا الشك والتساؤل قد جاء بسبب ظهور أدلة جديدة تستحق النظر أم أنها بسبب "عقدة التكرار"؟؟ وبمجرد الخروج من "التركيز في النقطة" إلى "النظرة العامة" فإن "شعور الشك بسبب التكرار" سينحسر ويتلاشى.

والنقطة التي نريد التنبيه لها هو أن الشك والتساؤل الذي يأتي بسبب التكرار هو شك وتساؤل طبيعي، ويُمكن علاجه بسهولة ويسر إذا انتبهنا له.

الفصل الرابع – الأعاجيب في القرآن

هناك من يُطلق على الأعاجيب في القرآن بـ "الإعجاز العلمي" وهذا أظنه غير صحيح وغير مفيد:

وغير صحيح لأن "الإعجاز" يتطلب التحدي، وهذه الآيات لا يوجد فيها مظهر التَّحدي.
وغير مفيد لأن كلمة "إعجاز" فيها استفزاز، وهي ليست الشعور الذي يأتي مع الانتباه للآيات: فعندما ننتبه (نحن المسلمين) لأعجوبة في القرآن فإننا نقول تَعَجُّبًا: سبحان الله! وعندما ينتبه لها غير المسلمين فإنهم يقولون تَعَجُّبًا: كيف استطاع أُمِيٌّ قبل 1400 سنة من الانتباه لهذا! فالشعور الذي نشعر به أو يشعر به غيرنا هو التعجب وليس العجز.

وكلمة عجب وأعجوبة وأعاجيب وعجائب هي الكلمات المترادفة للكلمة التي استخدمها الجن في وصف القرآن: "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا" (1–الجن).

وهنا سنضع بعض الأعاجيب التي وجدناها في المراجع المختلفة، وفي الفصل التالي سنضع بعض الآيات التي لم يَثبت معناها بعد أو التي لم يَتَوَضَّح معناها بعد.

ويجب التنبيه أنه يحق للمستشرقين أن يقولوا إنَّ كل واحدة من هذه الأعاجيب قد جاءت صدفة، وهذا إذا أخذناها واحدة واحدة، ولكن القول إنَّ كل هذه الأعاجيب قد جاءت صدفة (أي إذا أخذنا معيار الصدفة ليس لواحدة فقط وإنما للمجموع) فإن القول بالصدفة لا يتوافق مع مبادئ الإحصاء ولا قوانين الاحتمالات.

#4.1 "أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ" (4–القيامة).

وهذه كانت إحدى العجائب التي انتبه لها المسلمون في بداية القرن الماضي. وفي لسان العرب: "البَنان الأَصابع: وقيل: أَطرافها".

والشيء المميز الذي انتبهنا له في بداية القرن الماضي أنَّ أطراف الأصابع تتضمن البصمات (الخطوط التي على باطن الأصابع)، وأن كل إنسان له بصماته الخاصة المنفردة، وهذا يتلاءم تماما مع سياق الآية: فإن الله تعالى سَيُرْجِعُ للبشر عظامهم وبصماتهم.

#4.2 "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ" (88–النمل).

وقد تم الإثبات أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس في القرن السادس عشر (وذلك بعد الإسلام بعدة قرون طويلة). والآية السابقة تقول إن الجبال تَمُرُّ مَرَّ السحاب، أي أنها تتحرك كما يتحرك السحاب، والتفسير الحديث لهذه الآية أن الجبال تتحرك حول مركز الأرض مرة كل 24 ساعة، وتتحرك حول مركز الشمس مرة كل سنة، وهذا يمكن تشبيهه بحركة السحاب على الأرض.

#4.3 "مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" (21–الرحمن). وكذلك: " وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا" (53–الفرقان).

وهذه أعجوبة ولكنها ليست واضحة تماما للجميع، وهذا قد تَسَبَّبَ بفتنة:

والبرزخ هو الحاجز، والحجر المحجور هو أن أحدهما لا يُفسد الآخر. وهناك الكثير من الأفلام والصور التي بَيَّنَت هذه الظاهرة. والصورة التالية هي للحاجز بين الماء العذب والماء المالح في مضيق جورجيا (بين كندا وأمريكا) (المرجع: Stephengg).

وللمزيد من هذه الصور ضع في الجوجل العبارة: Different water meet but don't mix.

وهناك محاولة لاستخراج الطاقة من خلال القوة الأسموزية (Osmotic power)، وذلك بوضع غشاء (Membrane) في منطقة البرزخ، وهنا فإن الماء العذب سينتقل من خلال الغشاء إلى الماء المالح، ويتم استخلاص الطاقة من خلال هذا الانتقال (المرجع: Interesting Engineering).

وهذا جميل جدا، ولكن (على غلبة الظن) لا يوجد برزخ بين نهر النيل والبحر الأبيض المتوسط؛ وذلك لأن المياه تتدفق من نهر النيل إلى البحر الأبيض، وإذا كان هناك برزخ فأين تذهب هذه المياه! بمعنى آخر ... لو كان هناك برزخ بين النيل والبحر لأصبحت سواحل مصر الآن مياه عذبة، ولهذا فإن النظرة المنطقية تتطلب الاستنتاج أن مياه النيل تختلط مع مياه البحر وأنه لا يوجد بينهما برزخ.

وهذا قد يُغضب أحدهم ويقول ... صدق الله وكذب المنطق، صدق الله وكذب العلم. وقد صدق الله ولكن ربما ما فهمه ذاك الشخص من الآيات لم يكن صحيحا، وهنا نقول: صدق الله ولم يصدق فِهْمُ ذاك الشخص.

ورجوعا لآيات الجبال ("وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ") فإننا لم نسمع على الإطلاق عن أمير للمسلمين رفض إقامة القلاع على الجبال لأن الجبال تتحرك مثل السَّحاب، ولم نسمع أي شخص قال: صدق الله وكذبت الجبال؛ فالناس وقتها قد أخذوا موقفين: آمنوا بكلام الله كما هو، وتعاملوا مع الواقع كما هو. واستمر هذا الأمر حتى انكشف التلاقي بين كلام الله والواقع.

ويجب هنا التنبيه أن الأمانة لا تتجزأ وإنما يجب أن نكون أُمَناء في تفسير الآيات، وكذلك يجب أن نكون أُمَناء في تفسير الوقائع وأُمَناء في البحث والتحليل العلمي. وأما الذي يُحاول أن يُهندس العلم كي يتفق العلم مع الآيات فإن هذا العمل ليس صدقا ولا أمانة.

ورجوعا إلى موضوع البرزخ بين نهر النيل والبحر الأبيض فإن غلبة الظن أن هذا البرزخ غير موجود بينهما، وبالتالي فإنه من الممكن أن يكون هناك تعارضا بين هذا الأمر والآيات. وربما يكون فهمنا للآيات غير صحيح أو منطقنا غير دقيق. وليس في هذا مشكلة؛ فإنَّ التعارض بين آيات الشمس والنظريات العلمية استغرق حوالي 400 سنة إلى أن انكشف التلاقي بينهما، وبالتالي إذا وُجِد التعارض بين هذه الآيات وبين النظرية العلمية فإنَّ هذا سيكون مؤقتا، وهنا ننتظر تتابع المعلومات لتفسيرها كما تم تفسير الكثير من الآيات الأخرى.

وما سبق كان النقاش العام، ولكن لا يوجد تعارض هنا وإنما تفسير بعض الناس لهذه الآيات لم يكن صحيحا وذلك في "مرج البحرين" و"يتلاقيان":

و"التلاقي" في لسان العرب: "يُقال: التَقى الفارسان إذا تَحاذَيا وتَقابلا". ولنضع هذا المعنى في مثال:

لنفترض وجود جيشين ألفا وبيتا، وأنهما تلاقيا في قرية.
فماذا نفهم من كلمة: تلاقيا؟
نفهم أنَّ الجيشين تواجها وكل منهما كان مستعدا للآخر.

ولنفترض سيناريو آخر وهو أن بيتا لم يكن يعرف مكان ألفا وإذا بـ ألفا يهجم على بيتا فجأة دون إنذار، فهل نستطيع القول: إن ألفا وبيتا تلاقيا في القرية؟

بالطبع لا، فالتلاقي يتعلق بالتَّقابل، وإنما نقول هاجم ألفا بيتا، أو غافل ألفا بيتا، إلخ.

وكذلك الحال في موضوع البرزخ، فإن وجوده يتطلب التلاقي (أي التحاذي والتقابل)، وهذا معناه أن لا بحرا يندفع نحو الآخر وإنما يكون ضغطهما متوازنا مع بعضهما. وهذا الذي تراه في الصور وفيديوهات اليوتيوب، فالبرزخ يظهر عندما تتلاقى البحار ولا يكون هناك اندفاع من أحدهما إلى الآخر. ولكن إذا جاءت العواصف والأمواج فإن التلاقي ينتهي ويتلاشى ذلك البرزخ.

وكذلك الحال في موضوع النيل والبحر: فالنيل لا يتلاقي مع البحر وإنما يندفع إليه إندفاعا، وبالتالي لا وجود للبرزخ، وهذا لا يتعارض مع الآيات لأن الآيات تتعلق بتلاقي البحار وليس باندفاعها نحو بعضها البعض.

ومن الممكن أن تجد البرزخ بين النيل والبحر وذلك عندما يكون البحر ساكنا، وهنا يكون واقعهما تلاقيا، ولكن في اللحظة التي تظهر العواصف والأمواج فإن هذا البرزخ يختفي.

وبالنسبة لـ "مرَجَ البحرين" ففي تفسير الطبري: "مَرَجَ: أرسل وخلى، من قولهم: مرج فلان دابته: إذا خلاها وتركها". وهذا يتوافق تماما مع مفهوم التلاقي: فعندما تتقابل البحار دون أن يكون هناك ضغط من أحدهما على الآخر (أي تُرِكَتْ لِحالها) فإن البرزخ يظهر بينهما. ولكن إذا جاءت العواصف والأمواج فإن البحار تكون مُسَيَّرة بهذه الأمواج. وكذلك إذا اندفع بحر في بحر فإن البحر الأخير لم يُتْرك لحاله، ولهذا لا يكون بينهما البرزخ.

وهنا يأتي سؤال ... قال الله تعالى في آيتين أُخرتين:

- "أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (61–النمل).
- "وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (12–فاطر).

وهذه الآيتان عامة لجميع البحار في حين أن الآيتين اللتين بدأنا بهما هذا الباب كانتا مُفَصَّلَتَيْن ("مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ" و"يَلْتَقِيَانِ")، والسؤال: إذا كانت هاتان الآيتان عامَّتين أليس الواجب أن تنطبقا على جميع البحار؟

والجواب: عند الخلاف فإننا نُفَسِّرُ الآيات العامة (المُجْمَلَة) من خلال الآيات التفصيلية (المبينة). وهذا ما نستخدمه في أحاديثنا العادية فأنت رُبَّما تقول إنه جاءك البارحة زيد وسعد وسعيد. وفي قصة أخرى في نفس الحادثة تقول: إنه قد جاءك أصحابك البارحة. والقصة الأولى مفصلة والثانية مجملة، وهنا فإننا نقوم بتفسير المُجْمَل من خلال المُفَصَّل.

#4.4 "خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ" (6–الزمر).

وضمن التفسير فإن الظلمات الثلاث هي: الكيس الذي يعيش فيه الجنين، ثم جدار الرحم، ثم البطن.

#4.5 "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" (25–الحديد).

وضمن الذاكرة فإن أول من انتبه لهذه الآية هو "زغلول النجار". والحديد ليس مما تنتجه الأرض وإنما يتم خلق الحديد داخل قلب النجوم، بل إنه المعدن الأخير الذي يتم خلقه في قلب النجوم وذلك في آخر حياة النجم، وبعدها ينفجر النجم ويتناثر الحديد في أرجاء الكون.

4.6 "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ" (76-الواقعة).

وضمن الذاكرة فإن "زغلول النجار" هو كذلك أول من انتبه لهذه الآية. فمواقع النجوم التي نراها لا تقع الآن في هذه المواقع، بل ربما انفجر كثير من هذه النجوم ونحن لم ننتبه بَعْد لذلك؛ فالضوء له سرعة محددة، وهناك نجوم لا يأتينا ضوؤها إلا بعد ملايين السنين، وبالتالي فإن الذي نراه لها هو مواقعها قبل ملايين السنين. وهذا قد يُفسر قول الله تعالى: "وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ".

4.7 "وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ" (3-الطارق).

والثاقب تعني الضوء الشديد. وقد ظن البعض أن الطارق هو السوبرنوفا (Supernova)، وهذا غير دقيق لأن السوبرنوفا ليس نجما وإنما هو نجم قد انفجر.

والتفسير الحديث أن الطارق هو البَلْسار (Pulsar)، وهذا الاسم جاء نحتا من Pulsating Star، وترجمتها الحرفية هي: "النجم النَّابض". وهو نجم نيوتروني شديد اللمعان ويتميز بإرسال نبضات كهرومغناطيسية ذات توقيت ثابت دقيق. وكلمتي الطَّارق والنَّابض متكافئتان في وصف هذا النجم، فعندما يقوم الحداد بطرق سبائك الحديد فإنَّ طرقه يكون على شكل نبضات (ومن المناسب التنويه أن الخليل بن أحمد قد انتبه لعلم العروض في الشعر من خلال انصاته لطرقات الحدَّاد). وقد تم تحويل هذه النبضات إلى أصوات وتم وضعها في صفحات الإنترنت ومنها موقع لجامعة مانشستر في إنجلترا (المرجع: Manc) بعنوان "أصوات البلسار" (The Sounds of Pulsars).

4.8 "فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ" (16-التكوير).

وفي لسان العرب: "الخنوس: "الانقباضُ والاستخفاء. وفيه كذلك: "والكواكبُ الخُنَّسُ: الدَّراري الخمسةُ تَخْنُسُ في مَجْراها وترجع وتَكْنِسُ كما تَكْنِسُ الظباء وهي: زُحَلٌ والمُشْتَرِي والمِرِّيخ والزُّهَرَة وعُطارِدُ".

والمسلمون قد عرفوا أن المقصود بالخُنَّسِ الكُنَّس هي الكواكب (زحل والمشتري وغيرها)، ولكن المعنى الحقيقي للخَنْس لم يتم معرفته إلَّا حديثا، وأما الكَنْس فَلَمْ يتم معرفته إلَّا حديثا جدا:

والخَنْسُ هو الانقباض والاختفاء ثم الرجوع. والكواكب في المجموعة الشمسية يكون فيها الأطوار كما القمر: فأطوار القمر هي المحاق والهلال والتربيع الأول والبدر والتربيع الثاني والهلال. وهذه الأطوار تحدث كذلك للكواكب، وهذه هو تفسير الخُنَّس، أي أنها تنقبض وتختفي ثم ترجع.

وأما الكُنَّس فلم يتم الانتباه لها إلا عندما قام العلماء الغرب بتعريف الكواكب (وهو التعريف الذي أدى إلى إخراج بلوتو من قائمة الكواكب عام 2006). وكان أحد الأوائل الذين انتبهوا لمعنى الكُنَّس هو "حسين كتَّاب" (المرجع: كتَّاب).

والتعريف الذي استقر عليه علماء الفلك عام 2006 أنَّ الكوكب يتميز بالتالي:

1. أنه يدور حول نجم.

2. كبير بما يكفي أن يكون مستديرا بقوة جاذبيته.
3. كبير بما يكفي أن يكنس (Clear away) الكُوَيْكِبات حوله.

والتعريف التالي مأخوذ من موقع ناسا (المرجع Nasa-Solar):

The most recent definition of a planet was adopted by the International Astronomical Union in 2006. It says a planet must do three things:

- It must orbit a star (in our cosmic neighborhood, the Sun).
- It must be big enough to have enough gravity to force it into a spherical shape.
- It must be big enough that its gravity cleared away any other objects of a similar size near its orbit around the Sun.

#4.9 "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ" (40-النور).

وفي لسان العرب: "لُجَّةُ البَحْر: حيث لا يُدْرَكُ قَعْرُه". وغلبة الظن أن "سحاب" هنا تعني "الضباب" ولا يستطيع الإنسان الرؤية من خلال الضباب الكثيف. والأعجوبة هنا هو ثبوت وجود الأمواج داخل البحار العميقة: أمواج فوق بعضها البعض، وهذه تُسَمَّى علميا بـ الأمواج الداخلية (Internal Waves/ Underwater Waves).

ولكن توجد عبارة في الآية ليست مفهومة تماما: "إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا"، والسؤال هنا هل المقصود: أخرجها في أعماق البحر أم أخرجها فوق سطح البحر؟، والنقطة الثانية أن هناك خلافا بين المفسرين في التوفيق بين "الظلمات" و"لم يكد يراها" لأن المتوقع في الظلمات أن لا ترى شيئا. ونستطيع هنا اقتراح التفسير التالي للآية:

فالآية التي سبقتها قد شبهت أعمال الكفار بشخص ظمآن فوجد سرابا وظنه الماء، وبذل الجهد للوصول إليه حتى إذا وصل تبين له أن جُهده (أي عَمَلَه) قد ذهب سُدًى. وبنفس الطريقة نستطيع تفسير الآية التي تليها: وهو ذهاب الشخص بالسفينة إلى عمق البحر وإذا بالضباب الكثيف يغطي سطح البحر بأكمله والبحر يتلاطم بالأمواج (أمواج فوق بعضها البعض) وإذا بهذا الشخص في ذلك الموقف يسقط منه شيئا ثمينا إلى البحر، وهو في هذه الحالة قد خسر ذلك الشيء تماما إذ بينه وبين ذلك الشيء ظلمات كثيرة فوق بعضها البعض. وفي هذا الضباب الكثيف فإنه إن أخرج يده فإنه لا يكاد يراها. وفي هذا التفسير فإن أعمال الكافر في الدنيا تشبه ذلك الشيء الثمين الذي سقط ولم يعد بالإمكان استرجاعه. والآية تنتهي بـ "وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ" والنور هنا (على غلبة الظن) هي الهداية.

#4.10 "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ" (43-النور).

وقد وصف الله بعض السَّحاب أنها جِبالا،، ولا تستطيع أن تُقَدِّرَ هذا الوصف إلا إذا كُنْتَ في طائرة وكان في السماء قِطَعٌ من سحاب أبيض دون ضباب، وعندها سترى السَّحاب وكأنها جبال بيضاء ضخمة، كما في الصورتين التاليتين.

Ref: Pxhere.com-A

Ref: Pxhere.com-B

وإذا أردت صور أكثر فضع في الجوجل: Bright blue sky with white clouds.

#4.11 "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ" (73–الحج).

والكائنات الحية عموما تقوم بتناول (أكل أو إدخال) الطعام إلى جوفها ثم يتم إفراز المواد اللازمة لهضمه وتحويله إلى المواد الأولية اللَّازمة، ولكن الذباب له طريقة أخرى مختلفة: فهو يقوم أولا بإفراز المواد الهاضمة على الطعام لتحويلها إلى المواد الأولية ومن ثم يقوم بتناولها. وبالتالي فإن الطعام يتم تغييره قبل أن يدخل إلى جوف الذباب، ولهذا لن يستطيع أحد أن يستنقذ شيئا قد أخذه الذباب.

#4.12 "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا" (63–الكهف).

الآن ... مفهوم الآية أن سيدنا موسى كان يريد الوصول إلى مجمع البحرين، وأنه يوجد على مجمع البحرين صخرة (إمَّا أنَّها صخرة أو أن أهل تلك المنطقة يُسَمُّونَها الصخرة).

ومجامع البحار في المنطقة التي كان يعيش فيها موسى عليه السلام هي: إلتقاء النيل مع البحر الأبيض، وباب المندب، ومضيق هرمز، وشط العرب، ومضيق البسفور في تركيا، ومضيق جبل طارق.

وإذا بحثنا في جميع هذه المجامع عن صخرة أو مكان اسمه صخرة فستكتشف أن المكان الوحيد الذي يحوي صخرة واسمه صخرة هو مضيق جبل طارق: والعرب تسميه جبل طارق، واليونان كانت تسميه "عمود هرقل" وأما الغرب فيسمونه: The Rock of Gibraltar، أي أن "جابرالتر" هو اسم المدينة على السهل، وأما الجبل نفسه

فيسمونه "صخرة جابرالتر". والصورة التالية تجعلك تشعر بغرابة المكان؛ فهي صخرة وحيدة في المضيق فوق سهل كبير (مرجع الصورة: Designinglife.biz).

#4.12 "الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" (5–الروم).

وقد غلب الفرس الروم وانتصروا عليهم، ولم يتوقع أحد (بمن فيهم مشركي مكة) أن يرجع الرومان لقوتهم. وكان أول انتصار للروم على الفرس بعد 9 سنوات (بضع سنين) من هزيمتهم.

ولكن نقطة الانتباه هي للآية 4: ففرحة المؤمنين ليست لأن الروم قد غَلَبَت، وإنما كان الرسول وقتها قد وصل إلى المدينة سالما.

ولنضع خط الزمن في هذا الموضوع:

- انتصر الفرس على الروم انتصارا حاسما في معركة انطاكية (Battle of Antioch) عام 613 ميلادية، وعلى إثرها احتل الفرس دمشق عام 613 ميلادية، والقدس عام 614 ميلادية، ومصر عام 618 ميلادية.
- وأول انتصار للروم على الفرس كان في عام 622 ميلادية في "معركة إيسوس" – (Battle of Issus). ولم أجد مرجعا يُحَدِّد اليوم والشهر لهذه المعركة وإنما المُسَجَّل في المراجع أن هرقل (Heraclius) قد خرج من القسطنطينية باتجاه الفرس في شهر إبريل عام 622 ميلادية. والطَّريف هنا أن علماء التفسير القدامي لم ينتبهوا ولم يعلموا هذه الواقعة. ونحن لم ننتبه لهذه الواقعة إلا حديثا.
- وهجرة الرسول عليه السلام إلى المدينة كانت في شهر سبتمبر عام 622 ميلادية.
- والانتصار الحاسم الأخير للروم على الفرس كان في معركة نينوى (Battle of Nineveh) عام 627 ميلادية. وهذا الذي انتبه له علماء التفسير القدامى، وكان قريب الوقت من صُلح الحديبية.

- وفي عام 628 تم عقد معاهدة سلام بين الروم والفرس، واسترجع الرومان أراضيهم المحتلة وأسراهم وممتلكاتهم.

وللاطلاع على الموضوع ضع في الجوجل: The Byzantine and Persian war.

ويأتي هنا سؤال:هل ذهاب الرسول إلى المدينة يُعتبر نصرًا؟

والجواب: نعم بالتأكيد؛ فإن هذه الهجرة كانت سَنَة الابتداء للدولة الإسلامية بعد 13 سنة من الكفاح. ولهذا السبب تم اعتمادها بداية التَّأريخ للمسلمين.

#4.13 "وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ" (22-الحجر).

ولم ينتبه المفسرون لمعنى اللواقح إلا حديثا؛ ففي تفسير القرطبي: "معنى لواقح حوامل لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع". وأما التفسير الحالي فإن الرياح تحمل حبات الطَّلع لتلقيح الأزهار.

#4.14 "وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ" (32-الأنبياء).

وقد ثبت أن الأرض محفوظة بطبقة الأوزون التي تمنع ضرر الأشعة فوق البنفسجية للشمس، وكذلك فإن الأرض محفوظة بالمجال المغناطيسي الذي يحمي الأرض من الأيونات المشحونة التي تنبعث من الشمس.

#4.15 "وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ" (37-يس).

وفي هذه الآية أعجوبتان: الأولى أنها تدل أن الأصل هو الظلام وأن النهار هو استثناء. وأما الأمر الثاني فهو تشبيه جميل جدا، فالغلاف الجوي (وهو الذي يظهر فيه النهار) رقيق جدا بالنسبة للأرض؛ فسمك الغلاف الجوي يصل إلى حوالي 100 كم، في حين أن قطر الأرض يصل إلى 12742 كم، وبالتالي فإن النهار يظهر وكأنه جلد رقيق يُحيط بالأرض، وكأنَّ تَغَيُّر النهار كمن يَسْلَخ ذلك الجلد عن الأرض.

#4.16 "فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ" (125-الأنعام).

وكلما صعد الإنسان إلى الجبال والسماء كلما نقص الضغط الجوي ونقصت نسبة الأوكسوجين الموجودة في الهواء.

#4.17 "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (38-يس).

وبالطبع فإن العرب الأقدمين كانوا يظنون أن الشمس تدور حول الأرض، ولكن ثبت للإنسان أن الشمس ثابتة في مكانها بالنسبة للأرض وأن الأرض تدور حولها. وبعد ذلك ثبت (في بداية القرن العشرين) أن الشمس تدور حول مركز المجرة وبسرعة تقدر بحوالي 220 كم في الثانية. وللمقارنة فإن الأرض تتحرك حول الشمس بحوالي 30 كم في الثانية، وإذا اعتبرنا أنَّ حركة الأرض مَشْيٌ فإنَّ حركة الشمس تكون جَرْيًا.

وهناك نقطة متميزة في الآية وهي: "لمستقر لها" وليس "إلى مستقر لها"، وهذا الاختلاف مهم جدا؛ فهو الذي مَكَّنَ اسحق نيوتن من استنتاج قوانين الجاذبية:

فقد ثبت لعلماء الغرب قبل ظهور نيوتن أن الأرض تدور حول الشمس وأن القمر يدور حول الأرض، ولكن لم يكن أحد يفهم لماذا! لماذا تدور الأرض حول الشمس في حين يدور القمر حول الأرض؟

والظاهر أن نيوتن كان يأكل تفاحة على الطريق وبعد أن انتهى منها رمى باقيها بعيدا، وهنا (على غلبة التخمين) انتبه نيوتن للحل: إذ لو رمى التفاحة بقوة أكبر لسقطت التفاحة إلى مسافة أبعد، ولو رماها بقوة أكبر وأكبر لسقطت التفاحة إلى مسافة أبعد وأبعد ... ولكن إلى متى؟

وقد وضع نيوتن رسما مشابها للشكل التالي. وقد افترض فيه وجود جبل مرتفع جدا، وهناك شخص فوق هذا الجبل، وأنه يرمي الحجارة من الجبل. وبالتالي فإن الشخص إذا رمى الحجر بقوة خفيفة فإن الحجر سيبتعد مسافة قليلة، وكلما يرمى الحجر بقوة أكبر فإن الحجر سيبتعد مسافة أكثر. ولكن إلى متى؟

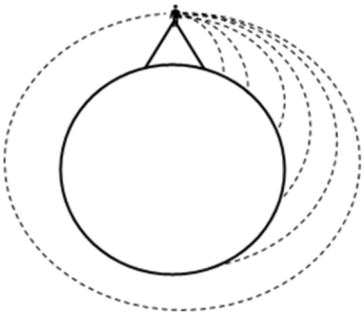

وهذه هي نقطة... فإذا رَمَيْتَ الحجر بقوة كافية فإنه سيصل إلى يدك من الجهة الأخرى. وهنا جاء الحل: وهو أن القمر يسقط إلى الأرض، ولكن عنده السرعة الكافية كي يرجع إلى نقطة البداية. والأرض تسقط إلى الشمس ولكن عندها السرعة الكافية كي ترجع إلى نقطة البداية. ومن هذه الاستنارة قام نيوتن بتطبيق معادلات السقوط لاستنتاج معادلات الجاذبية.

وهنا نرجع إلى الآية ... فالشمس لن تصل إلى مستقرها، ولكنها تجري لها، أي أن الشمس تحاول السقوط نحو المجرة ولكنها لا تسقط وإنما ترجع (بسبب سرعتها) إلى نقطة البداية. وهذا هو الفرق (على غلبة الظن) بين "تجري لمستقر لها" و"تجري إلى مستقر لها".

#4.18 "فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ" (37-الرحمن).

وهذه الآية تتحدث عن يوم الدين. والسماء هي كل ما علاك؛ فالنجوم والكواكب كلها تكون من "السماء". وضمن المعلومات العلمية الحالية فإن الذي ينفجر (ينشق) في السماء هي النجوم. وبالتالي فإن الآية تتحدث عن انفجارات النجوم يوم القيامة. وأما الدِّهان فهو الطلاء والألوان (Paints)، وما زلنا نستخدم هذه الكلمة: دهان الحائط. وأما شكل الوردة فهي دوائر في دوائر. فيكون معنى الآية: عندما تنشق السماء فتصبح وردة كالألوان. أي أن التشبيه هنا عن شخص يرسم وردة على الحائط باستخدام الألوان.

وانظر إلى الشكل التالي فإنه لـ نابولا الكراب Crab Nebula التي نتجت من انفجار نجم في كوكبة الثور قبل حوالي ألف سنة (مرجع الصورة: Wiki-Nasa).

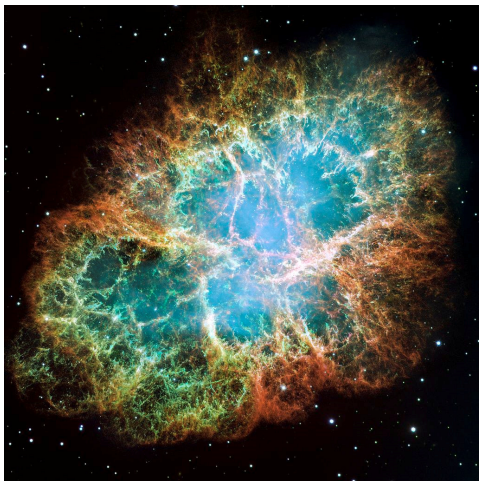

#4.19 "وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا" (7–الإسراء).

وهذه الآية لم يتم تفسيرها بشكل مريح إلا حديثا. وكانت البداية من الشيخ الشعراوي، فقد قال إن "عبادا لنا" تقتضي أن يكون هؤلاء مسلمين. وهذا انتباه ذكي جدا؛ فهناك فرق بين "عباد" وعباد الله" و"عباد لله": فالأولى تنطبق على كل عابد بمن فيهم المسلمين واليهود والهندوس إلخ. والثانية تنطبق على كل من يعبد الله بشكل صحيح أو خاطئ، وهذا ينطبق على المسلمين واليهود والنصارى. وأما الثالثة فهي تَخُصُّ العبادة لله وحده، فهي أعلى من الثانية، وبالتالي فإن غلبة الظن أنها تتعلق بالمسلمين.

ثم أخذ "ثابت الخواجا" كلمة الشعراوي وبنى عليها كتابا جميلا بعنوان "حتمية زوال دولة بني إسرائيل" وذلك في عام 1995، وفيه استطرد ثابت في الموضوع، وبَيَّنَ أن الوعد الأول كان يتعلق بخيبر (وهذا تفسير قول الله تعالى: وكان وعدا مفعولا)، وأما الوعد الثاني فهو الظرف الحالي واحتلال اليهود لفلسطين. وقد أيد ثابت نظريته بالآية " ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ"؛ إذ لم ينتصر اليهود في كُلِّ تاريخهم على من غلبهم إلا المسلمين، فقد انتصر المسلمون على اليهود وطردوهم من الجزيرة العربية، والآن عادت لهم الكرة على المسلمين.

والطريف هو الآية التي تليها ("وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا")؛ إذ إنِّي لم أجد تفسير ثابت مريحا لها. والتتبير تعني التدمير والتكسير. ولكن هذه الآية قد أصبحت واضحة تماما عام 2002 (وذلك بعد تأليف ثابت لكتابه بسبع سنوات) إذ قام اليهود ذلك العام ببناء الحائط الضخم الذي يقطع فلسطين. وإذا استرجع المسلمون الأرض فإن هذا الحائط لن يبقى منه أي حجر وإنما سيتم تدميره بالكامل ("وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا").

#4.20 "وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ" (12–الطارق).

وقد ثبت وجود صدوع كبيرة في البحار (Mid–Ocean Ridge)، وأهمها صدع في أعماق المحيط الأطلنطي طوله هو نصف محيط الأرض، ويسمى علميا بـ Mid–Atlantic Ridge. وتتحرك القارات على القشرة الأرضية بسبب خروج الحمم البركانية من هذه الصدوع إلى المحيطات (مرجع الصورة: USGS).

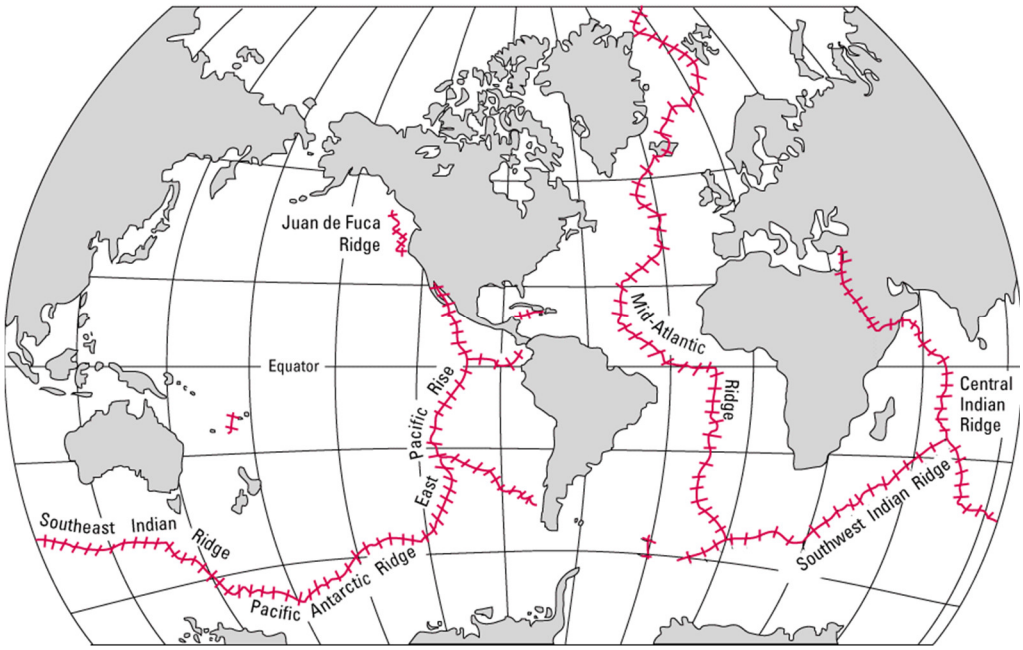
Juan de Fuca
Ridge
Equator
Pacific Rise
East
Mid-Atlantic
Ridge
Central
Indian
Ridge
Southeast Indian Ridge
Pacific Antarctic Ridge
Southwest Indian Ridge

الفصل الخامس – آيات ننتظر تتابع المعلومات لها

سنعرض في هذا الفصل بعض الآيات التي لم يَتَوَضَّح معناها حتى الآن أو التي لها تفسير ولكن تفسيرها لم يثبت بعد. وهذا الفصل مفيد جدا في تعزيز المناعة التي تحدثنا عنها؛ فعندما ترى الآيات ولا تستطيع تفسيرها بشكل مريح، فاعلم أن تفسيرها سيأتي في يوم لاحق (عاجل أو آجل) كما جاء التفسير المريح للآيات الأخرى.

#5.1 "فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" (59–الشعراء).

وكنت أشعر سابقا بالضيق من هذه الآيات وذلك قبل عام 2000، وقد كُنْتُ مقتنعا تماما أنَّ القرآن هو كتاب الله، ولكن المفاهيم التي شرحناها في الفصل الثالث (معالجة الضيق) لم تكن واضحة وقتها، ولهذا السبب فقد كانت هناك بعض الآيات التي كنت أشعر بالضيق منها، وكانت هذه الآيات منها. وسبب الضيق هنا أن الثابت في التاريخ أن اليهود لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها، والآيات تقول إنَّ بني إسرائيل قد ورثوا الأرض من قوم فرعون، وهذا كان تعارضا ظاهرا غير مريح.

وفي عام 2000 شاهدت برنامجا وثائقيا في الـ BBC يتحدث عن آثار فرعونية مكتشفة في غزة، وهنا انتبهت إلى التفسير الممكن للآيات السابقة: فقد أخذ موسى عليه السلام جزءا من قومه وخرجوا إلى سيناء، ومن المستبعد أن يقوم فرعون بجمع قواته المنتشرة في النوبة وليبيا لمطاردتهم لأن ذلك سيأخذ وقتا طويلا، والحل الأمثل هو أن يُرسل فرعون إلى قواته الموجودة في فلسطين ويطلب منهم موافاته في الطريق كي يقضي على المتمردين من بني إسرائيل. فالآيات السابقة كانت تتحدث عن جنود فرعون المرابطين في فلسطين، وهذا يتفق مع التاريخ حيث إن فلسطين قد كانت تحت حكم الفراعنة. وهذه القصة قد شرحناها بتفصيل في كتاب "رمسيس السادس هو فرعون موسى".

#5.2 "حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86–الكهف). حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (90–الكهف). حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا" (93–الكهف).

وقد شرحنا هذه الآيات بتفصيل في كتاب "ذو القرنين وأهل الكهف"، وسنضع هنا النقاط الرئيسية:

- يوجد في الصحراء الغربية (شمال موريتانيا) عين حمئة (ينبوع ماء حار) على مسافة قليلة من مدينة الداخلة وعلى بعد 8 كم من المحيط الأطلنطي وذلك على الاحداثيات: 15.7114 غرب 23.89975 شمال.
- وإذا أخذنا الاحداثيات السابقة ومَسَكْنا خط عرضها (23.89975 شمال) وانتقلنا إلى الشرق فإن آخر مكان في هذا الخط في العالم القديم هو تايوان، ويقطع هذا الخط قمة لأحد الجبال في تايوان (وارتفاعها 2972 متر) وإحداثياتها: 121.26317 شرق 23.89975 شمال. والجبال في هذا

الارتفاع تكون فوق السَّحاب، ولا تنمو الأشجار هناك ولا يوجد ظل على قمم الجبال ولهذا السبب فإن الشمس لا يسترها ساتر. وانتبه أن البيوت وأغطية الرأس هي من صنع الإنسان، وأما السحاب والجبال والشجر فهي مما خلق الله،، والناس في تلك القمة لا يسترهم الشمس (فلا سحاب ولا جبال ولا شجر). ولا دليل على وجود قرية على تلك القمة، ولكن هذه القمم تكون هدفا للزيارات؛ حيث إنها أبرد من السَّهل وقت الصيف، وأدفأ من السَّهل وقت الشتاء؛ حيث إن القمة فوق السحاب وبالتالي تكون الشمس ساطعة عليها.

- وأقرب مكان يُمكن وصفه أنه بين السدين هو منطقة أذربيجان وجورجيا: فهذه المنطقة هي سهل يُحيطه من الشمال جبال القوقاز الكبرى ويصل ارتفاعها إلى 5600 متر، ويحيطه من الجنوب جبال القوقاز الصغرى والتي يصل ارتفاعها إلى 4000 متر. والمسافة بين الجبلين هو حوالي 100 كم. وهذه الجبال طويلة شاهقة الارتفاع وتشبيهها بالسَّدين هو تشبيه جميل، كما في الخارطة التالية (المرجع: freeworldmaps).

والشركس هم أهل المنطقة في جبال القوقاز الكبرى، وهم شعب عريق كريم ذكي في هذه المنطقة، ويغلب على الظن أنهم هم من اخترع العجلة قبل 5 آلاف سنة، ولكن منطقتهم كانت وعرة التضاريس، ولهذا فقد استقلت القرى عن بعضها البعض رغم قربهم الجغرافي، ومع انعزالهم اختلفت لغاتهم،، وضمن شهادة بيليني (المؤرخ الروماني) وابن الفقيه (المؤرخ الفارسي) والمسعودي (المؤرخ العربي) فإن هذه المنطقة على صغرها كانت تحوي ما يزيد عن 70 لغة مختلفة. وهذا ما يغلب على الظن تفسير الآية: "لا يكادون يفقهون قولا".

#5.3 "أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا" (9-الكهف).

وهناك عدة أماكن مقترحة لأهل الكهف: فهناك كهف في عَمَّان (الأردن) وهناك كهف في إفسوس (تركيا)، وهناك ادعاء بكهف في اليمن والأندلس وأذربيجان وغيرها. ولكن لا يوجد أي إثبات على الإطلاق أن هذه الأماكن قد كان اسمها الرقيم باستثناء مدينة البتراء (في الأردن)، فقد ثبت أن اسمها النبطي هو "الرَّقيم". وهذا

الاسم قد وُجِدَ في كتابات المؤرخين القدامى ووجد كذلك منقوشا في البتراء. وأما "البتراء" فهو الإسم اليوناني الذي انتشر بعد احتلال الرومان لهذه المدينة وهذا الاسم (البتراء) يعني "الصخرة". وقد شرحنا هذا الموضوع بتفصيل في كتاب "ذو القرنين وأهل الكهف".

#5.4 "أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (20–الغاشية).

وتوجد هنا مشكلة في كلمة "سُطِحَت" إذ إننا نعلم أن الأرض كروية، فكيف يتم تسطيح الكرة؟

وفي لسان العرب: "سَطَحَ الرجلَ وغيره يَسطَحه فهو مسْطوحٌ وسَطِيح: أَضْجَعَه وصرعه فبسطه على الأَرض".

وهنا نستطيع أن نقول إن المعنى اللغوي للتسطيح هو بسط الشيء على الأرض، فيصبح مستويا على الأرض كالبساط (أي السجادة).

ودعونا نسأل التالي: سطح الكرة هل هو سطح حقيقي أم سطح مجازي؟
والجواب هو سطح حقيقي له مساحة محددة.

وإذا طلبنا تسطيح ثوب على الكرة فماذا نفعل؟
نقوم ببسط الثوب على الكرة. فالتسطيح لا يتعلق بشكل الشيء إنما يتعلق بالبسط على ذلك الشيء.

دعونا نستمر في الأسئلة ... ليكن سطح الطاولة خشن جدا، فكيف نُسَطِّحها؟

نقوم بملئ الفجوات في سطح الطاولة، ونَحُتُّ الأجزاء الناشزة (الخارجة عن مستوى السطح) باستخدام المبارد (Files) وأوراق الزجاج (Sandpaper).

وكذلك يحدث إذا صنعنا كرة خشبية خشنة فإننا نُسَطِّحُها بملئ الفجوات فيها ونحت الأجزاء الناشزة باستخدام المبارد وأوراق الزجاج. فالتسطيح لا يتعلق بتحويل شكل الكرة إلى ورقة مستوية، وإنما التسطيح هو جعل سطح الشيء مستويا بالنسبة للشيء، أي أننا إذا أردنا تسطيح الكرة فإننا نجعلها مستوية بالنسبة للكرة؛ أي نملأ الفجوات فيها ونَحُتُّ النشاز بحيث تصبح الكرة ملساء.

وهنا نسأل ... كيف سُطِحَت الأرض؟

والجواب هو نفس الطريقة السابقة: فالرياح والأمطار تقوم بتفتيت الجبال وتحويلها إلى رمال وأتربة، ثم تقوم الرياح بنقل هذه الرمال إلى الفجوات في الأرض.

وهناك أمور واضحة في ما يتعلق في تشكيل الأرض:

- يصغر حجم الجبال يوما بعد يوم بسبب عوامل التعرية المختلفة، ويظهر هذا التأثير عبر الآلاف من السنين.

- ويرتفع مستوى الأرض يوما بعد يوم بسبب ترسب الرمال والأتربة الناتجة من عوامل التعرية. ويظهر هذا التأثير عبر المئات من السنين.
- وبسبب زحزحة القارات وضغطها على بعضها البعض فإنه تظهر وترتفع جبال جديدة. ويظهر تأثير ذلك عبر الملايين من السنين.

وهنا نرجع إلى الجواب: يتم تسطيح الأرض (أي جعلها ملساء أكثر ومستوية أكثر بالنسبة لشكلها الكروي) عن طريق الرمال والأتربة الناتجة من عوامل التعرية والتي تملأ الفجوات في الأرض.

#5.5 "خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ" (6–الزمر).

وكذلك: "وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (142) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (144–الأنعام).

وهنا يأتي سؤال ... كيف أنزل الله الأنعام لنا؟

وضمن التشبيه فإن الله قد أنزل الحديد (وقد شرحنا تفسير ذلك في الفصل السابق)، فهل أنزل الله الأنعام بنفس الطريقة، أي أنه خلقهم في مكان غير الأرض وأنزلهم؟

وهل جميع الأنعام في الأرض هي ثمانية أزواج فقط؟

ومع انتباهنا أن الخلق في بطون الامهات يُخُصُّ البشر جميعهم إلا أن غلبة الظن أن الخطاب في هذه الآيات السابقة مُوَجَّهٌ للعرب وذلك في قوله تعالى: "وأنزل لكم". وإذا اعتمدنا هذا الافتراض فإن هناك تفسيرا ممكنا لهذه الآيات: فإن الأنعام السابقة هي الأزواج الموجودة في جزيرة العرب، وأصول هذه الأنعام ليست من الجزيرة العربية وإنما نَزَلَتْ إليها من جبال آسيا. وأوضح مثال على ذلك هي الإبل: فالموطن الأصلي لها هو أمريكا الشمالية ومنها انتشرت إلى آسيا قبل حوالي 3 ملايين سنة من خلال ألاسكا وروسيا. وكذلك انتشرت الإبل إلى أمريكا الجنوبية وتطورت هناك لتصبح حيوان اللَّاما، واللَّاما والإبل هما من أصل واحد ويستطيعان التزاوج.

وقد انقرضت الإبل في أمريكا الشمالية قبل حوالي 15 ألف سنة وذلك بسبب الصيد، فقد استطاعت مجموعة من البشر الهجرة إلى تلك الأراضي (والذين تم تسميتهم لاحقا بالهنود الحمر)، وكانت الإبل فريسة سهلة فاصطادوها حتى انقرضت.

فالجزيرة العربية ليست موطن الإبل الأصلي وإنما نزلت إليها من آسيا، وكذلك الأنعام الأخرى؛ أي أن موطنها هو خارج الجزيرة العربية ونزلت هناك لاحقا.

وهناك تفسير آخر ممكن قد ذكرناه في كتاب "قائمة الثمانية من قوم نوح إلى قوم تبع" وهو أن هذه الأزواج الثمانية هي مما حمل نوح معه في السفينة (وهو موضوع طويل فراجعه في ذلك الكتاب).

#5.6 "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" (30–الأنبياء).

الآن ... كلمة "كل شيء" لا تعني بالضرورة الحرفية (أي كل شيء بالتمام) وإنما قد تعني الكثرة، والدليل على ذلك هو آية بلقيس: " وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ" (جزء من 23–النمل)، وذي القرنين: " وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا" (جزء من 84–الكهف). و"كل شيء" في هذه الآيات لا يعني المعنى الحرفي وإنما يعني الكثرة.

ويجب التنبيه أن القرآن يتضمن المواضيع المختلفة ولكنَّ هناك موضوعين رئيسيين فيه: "الوعظ والقصص" و"الأحكام الشرعية". والصياغة المستخدمة في الوعظ والقصص هي الصيغة القصصية التي يستخدمها العرب في الوصف. وأما الصياغة المستخدمة في الأحكام الشرعية فهي الصيغة القانونية. والآية السابقة لا تتعلق بالأحكام الشرعية وإنما بالوعظ والقصص، ولهذا فإنها تقع ضمن الصيغة القصصية والتي يكون فيها الكثير من المجاز والتشبيه والاستعارات إلخ. وللتذكير فإن العرب في بلاغتهم واختصاراتهم كانوا يَذكرون الجزء ويقصدون الكل، ويذكرون الكل ويقصدون الجزء.

ولهذا نقول إن "كل شيء" لا تعني (بالضرورة) حرفية النص وإنَّما تعني الكثرة؛ أي أن معظم الكائنات الحية مخلوقة من الماء.

والتفسير الحالي لهذه الآية أنَّ الماء يُمَثل نسبة عالية في أجسام جميع الكائنات الحية، وهذا التفسير ممكن إلا أننا لا نراه متوافقا تماما مع الآية.

ونستطيع تقديم تفسير آخر ربما يكون أكثر توافقا مع الآية، ولكن يجب أولا التنبيه أن الإسلام لا يتعارض مع نظرية التطور إلا في خصوصية الإنسان: فنظرية التطور تقول إن الإنسان والقرد لهما أصل واحد، وهذا لا يتوافق مع الإسلام،، ولكن في غير ذلك فإن نظرية التطور لا تتعارض مع الإسلام: فلا يوجد مشكلة في الإسلام أن نقول إن الفأر والفيل لهما أصل واحد قبل ملايين السنين، وإن الشجر والأسد لهما أصل واحد قبل مئات الملايين من السنين (وقد شرحنا هذا الموضوع بتفصيل أكبر في كتابين: "أصل الإنسان" و"مناقشة في علم التطور وأصل الإنسان").

ولنبدأ بالسؤال ... ما الفرق بين "خَلَقَ" و"جَعَلَ"؟

وغلبة الظن أن للخَلْق معنيان: العام والخاص. والمعنى العام هو عُمومية الإيجاد، ومثال ذلك: " اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" (62–الزمر). والمعني الخاص هو تحويل الشيء إلى شيء آخر جديد ومختلف، ومثال ذلك خَلْقُ الإنسان من طين وخَلْقُ الجان من نار. وأمَّا الجَعْلُ فهو تطوير الشيء في عدة مراحل متعاقبة، ومثال ذلك الآية: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (13–الحجرات).

الآن ... هناك خلاف عند العلماء في أصل الحياة ولكن لا خلاف بينهم أن الحياة الأولى على الأرض قد نشأت في الماء ومن الماء. وللاطلاع ضع في الجوجل: Origin of Life.

وإذا ثبت هذا التفسير للآية فإننا نحصل على ثلاثة معلومات:

- خُلِقَ الإنسان من طين.
- خُلِقَ الجان من نار.
- وتم تطوير باقي الكائنات الحية من الماء.

وهنا فإن الله قد خلق آدم من الطين، والبنية في سلالته لم تتغير، ولهذا فإن وصف الخَلْق له دقيق. وأما الكائنات الحية فقد تطورت وتغيرت كثيرا عن أسلافها، ولهذا فإن وصف الجَعْل لها كذلك دقيق.

ولكن هنا تأتي ملاحظة ... قال تعالى: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (45–النور).

وغلبة التخمين أنَّ الماء هنا هو المَني، وهذا شبيه بالآية "أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ" (20–المرسلات). ومثلها قول الله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا" (54–الفرقان).

وقد يأتي سؤال ... لماذا لا يكون المَني هو المقصود بالماء في الآية " وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"؟
والجواب أن هذه الآية تتعلق بكل الكائنات الحية من بكتيريا وطحالب ونباتات وحيوانات، وبالتالي يُستبعد أن يكون المني هو المقصود فيها.

وبالطبع فإن الدواب مخلوقة من الحيوانات المنوية من الرجل ومن البويضة عند الأنثى (ومن الغذاء الذي يأتي إلى البويضة). ومع أن الحيوانات المنوية تتساوى (من حيث الأهمية) مع البويضة إلا أن ذِكْر الحيوانات المنوية في الآية هو من باب ذكر الجزئية الأهم في عملية الخلق؛ وهو **نقل** الحيوانات المنوية إلى الرحم.

وكذلك فإن "كل دابة" (في قوله تعالى "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ") لا تعني "الكل بالتمام" وإنما تعني "الكل بالتغليب"؛ أي أن معنى "كل" هنا للتغليب وليس القطع. وضمن النظرة العلمية فإنَّ المعظم الأعظم من الدواب قد خُلقت من الحيوانات المنوية والبويضة، ولكن هناك دوابا يتم خلقها من غير الحيوانات المنوية وإنما تنشأ البويضات في تلك الدواب مُلَقَّحة،، ومن هذه الدواب نوع من السحالي يُسمى "الويبتيل" (Whiptail Lizards). وللزيادة في هذا الموضوع راجع: "التوالد العذري/البكري" (Parthenogenesis).

#5.7 "أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا" (46–الفرقان) .

وأفضل تفسير وجدناه لهذه الآية حتى اللحظة هو تفسير "حسين كَتَّاب" (المرجع: كتَّاب): وهو أن الكواكب عموما تنتهي في دورانها حول نفسها وحول الأجرام إلى "حالة القفل" (Gravitational Lock)، وفيها يكون الزمن

لدوران الكوكب حول نفسه (بالنسبة للنجوم) يُساوي الزمن لدورانه حول الجُرم. فمثلا: قد وصل القمر إلى "حالة القفل" مع الأرض، وهذا معناه أن زمن دوران القمر حول نفسه (بالنسبة للنجوم وليس الأرض) يساوي زمن دورانه حول الأرض، ولهذا السبب فإننا نرى وجها واحدا للقمر لا يتغير. وكذلك عطارد؛ فقد وصل إلى "حالة القفل" مع الشمس، ولهذا السبب فإن الظل في عطارد لا يتغير وإنما يبقى ذا طول ثابت.

وقد أورد الكَتَّاب دليلا أن الأرض ربما قد وصلت إلى "حالة القفل" مع الشمس قبل مليارات السنين، وهناك نظرية علمية تكتسب ثقة عالية (Giant impact hypothesis) أنه قبل 4.5 مليار سنة (أي بعد حوالي 50 إلى 100 مليون سنة من ظهور النظام الشمسي) اصطدم جرم كبير بالأرض وبقوة شديدة أَدَّى إلى انخلاع صخور ضخمة من الأرض ولتتجمع لاحقا لتُصبح القمر الذي نراه (إذ إنَّ القمر كان جزءا من الأرض حسب تحليلات العلماء)، وهذا أدى كذلك إلى دوران الأرض حول نفسها.

وتفسير حسين الكتَّاب أن الله كان يُمكن أن يجعل الظل ساكنا، أي أن تبقى الأرض في "حالة القفل" مع الشمس، وهذا معناه انتفاء امكانية الحياة في الأرض،، ولكن الله قد مَدَّ الظل.

وبالنسبة للآية: "ثم جعلنا الشمس عليه دليلا" فإن المعنى الظاهر للآية: جعلنا الشمس دليلا على الظل. وهذا المعنى غير واضح؛ فالظاهر أنَّ الظل هو المؤشر إلى الشمس (أي أننا نحدد ارتفاع الشمس واتجاهها بالنظر إلى الظل)، ولكن الآية تقول إنَّ الشمس هو الدليل على الظل. وكذلك الآية: "ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا" فتفسيرها غير واضح حاليا في الذهن، وننتظر تتابع المعلومات. ولكن لا بأس؛ فسيظهر تفسير هذه الآيات لاحقا عاجلا أو آجلا، كما جاء التفسير للآيات الأخرى.

#5.8 "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ" (5–الملك).

وكذلك: "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا" (9– الجن).

وكذلك: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا" (12–الطلاق).

وكذلك: "أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا" (16– نوح).

وكنا قد وضعنا نموذجا للسماوات السبع في كتاب "الجن" وكتاب "أصل الإنسان"، ولكننا نظن الآن أن هذا النموذج غير صحيح وذلك لملاحظات انتبهنا لها مؤخرا، واستعضنا عن هذا النموذج بآخر جديد.

والنموذج السابق كان كالتالي:

السماء الأولى: وهي الغلاف الجوي. وكان الدليل على ذلك: الآيات التي تتعلق بالشُّهُبِ الرَّواصد. والشهب هي حجارة صغيرة تسقط إلى الأرض وتحترق في أعلى الغلاف الجوي بسبب الاحتكاك بينها وبين الهواء، مما يؤدي إلى ذلك الوميض الذي نراه، وقد ذكرت الآيات أن هذه الشهب تقع في السماء الدنيا.

السماء الثانية: وهي الرياح الشمسية التي تحيط بالأرض من كل جانب. وهذه الرياح هي آيونات مشحونة ذات طاقة عالية تأتي من الشمس وتملأ النظام الشمسي بأكمله.

السماء الثالثة: وهي الحَيِّز في مجرة درب التبانة الذي يحيط بالنظام الشمسي.

السماء الرابعة: وهي الفراغ الكبير الذي يحيط بجميع المجرات.

ولم يكن عندي أي علم للسماوات الخامسة إلى السابعة. وبالنسبة إلى قول الله تعالى "وجعل القمر فيهن نورا": فقد كان التخمين أن القمر أكثر لمعانا من الأرض وذلك لأننا كنا نظن صخور القمر قريبة إلى البياض.

وأما النموذج الجديد فإن هناك غلبة ظن عالية أن السماوات السبع هي طبقات الغلاف الجوي، وأن الطبقة الأخيرة من الغلاف الجوي هي السماء الدنيا لأنها الطبقة الأقرب إلى عرش الله. بمعنى آخر فإن الطبقة الأخيرة في الغلاف الجوي هي الطبقة الأبعد لنا نحن البشر لكنَّها الطبقة الأقرب إلى السماء، وبالتالي عندما يقول تعالى: "إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6 الصافات) فإن السماء الدنيا هي الطبقة من الغلاف الجوي الأقرب إلى عرش الله.

و"سبعة" عند العرب لها معنيان: فهي إمَّا تعني العدد سبعة وإما تعني التعدد. فالسماوات السبع إما تعني العدد (أي أن عدد السماوات سبعة)، أو تعني "السماوات المتعددة الطبقات".

و"السبعون" لها كذلك معنيان عند العرب: فهي إما العدد سبعون، وإما عدد كبير جدا. والآية "ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ" (32–الحاقة) لها معنيان: فهي إما طول السلسلة سبعون ذراعا بالتمام، أو أن السلسلة طويلة جدا.

وكذلك في تفسير الآية: "وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ" فهي إما تعني أن عدد طبقات الأرض يساوي سبعة (مثل طبقات السماء)، أو أن الأرض لها طبقات متعددة كتعدد طبقات السماء.

وإذا أخذنا معنى السبعة أنها "التعدد" فإن تفسير الآيات يُصبح واضحا تماما:

العلماء مختلفون في طبقات الأرض ولكنهم يتفقون أنها من خمسٍ إلى تسع طبقات، وهذا يتوافق مع المعنى المجازي للسبعة عند العرب (وهو التعدد)، وللاطلاع ضع في الجوجل: Layers of earth.

والعلماء مختلفون في طبقات الغلاف الجوي، ولكنهم يتفقون أنها من ستٍّ إلى تسع طبقات، وهذا كذلك يتوافق مع المعنى المجازي للسبعة، وللاطلاع ضع في الجوجل: Layers of earth atmosphere.

وبالنسبة للآية "وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا" فهي الإثبات لصحة هذا النموذج: فالقمر يُرى داخل الغلاف الجوي ساطعا منيرا، ولكنه خارج الغلاف يظهر وكأنه صخرة رمادية باهتة (انظر الشكل التالي). والسبب هو أن

الغلاف الجوي يقوم بتشتيت الأشعة الداكنة (كالأشعة الزرقاء والبنفسجية) وتبقى الأشعة الساطعة في حزمة الضوء للقمر (كالأشعة الصفراء)، ولهذا نرى السماء زرقاء لأن الأشعة الزرقاء هي الأكثر تشتتا في الغلاف الجوي، ولهذا كذلك نرى القمر ساطعا منيرا لأن الأشعة الداكنة في ضوءه قد تتشتت منه.

صورة التقطتها ناسا للجزء الخلفي من القمر أمام الأرض، والشمس تُنير كلاهما. وانتبه أنَّ الأرض تظهر لامعة جدا مقارنة بالقمر، وأنَّ القمر يظهر خارج الغلاف الجوي وكأنه صخرة رمادية داكنة باهتة.
مرجع الصورة: Nasa-Moon

#5.9 "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" (30-الأنبياء).

ومرادفات "رَتْقَ" هي: ألصق ولَحَمَ. ومرادفات فَتَقَ هي: فَرَّقَ وفَرَجَ. وهناك من يظن أن هذه الآية تتعلق بالانفجار العظيم (Big Bang) والذي تسبب بنشوء الكون، ولكن هذا مستبعد جدا؛ لأنَّ الآيات قد استخدمت كلمة انشقاق ("فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ") والانفطار ("إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ") في وصف الانفجار. وكذلك فإن الانفجار لا يتفق معناه مع الفَتْقِ لأن الانفجار العظيم (أو انفجار النجوم) ينتج عنه الدخان والغبار والدقائق من الأجزاء، وأمَّا ناتج الفتق فهو أجزاء صلبة كبيرة. ولهذا السبب فإنه من المستبعد أن تتعلق هذه الآية بالانفجار العظيم أو حتى انفجار النجوم.

ودعونا هنا نضع المعاني الموجودة للسماء والسماوات:

- في لسان العرب: "السماء في اللغة يقال لكلّ ما ارتَفع وعَلا".
- وهي تعني الكون كما في قوله تعالى "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ" (47-الذاريات)، وقوله: "وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" (جزء من 255 البقرة).
- وهي تعني (على غلبة الظن) الغلاف الجوي كما شرحنا في الباب السابق.

وكما ذكرنا فإنه مستبعد جدا أن يكون المقصود في السماوات هو الكون (لأن الكون قد بدأ بانفجار عظيم)، ولكن قصة القمر والأرض ينطبق عليهما تماما وصف "رتق وفتق"؛ فكما شرحنا في الباب 5.7 فإن هناك جُرما اصطدم في الأرض في قديم الزمان مما تسبب بخلع أجزاء من الأرض لتُصبح القمر.

وبالتالي نستطيع أن نقول إنَّ المقصود بهذه الآية هو القمر والغلاف الجوي والأرض، حيث إن الغلاف الجوي قد نشأ في معظمه من داخل الأرض كما سنشرح لاحقا. وانتبه أن القمر هو ضمن السماوات (بمعناها المجرد) فوق الأرض، ولكنَّ القمر ليس ضمن السماوات السبع الطِّباق.

#5.10 "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (12–فصلت).

وهذه الآية ليست واضحة تماما إلا إننا نستطيع أن نضع لها تفسيرا ذا غلبة تخمين جيدة، والأيام اللاحقة سَتُحَسِّنُ أو تُعَدِّل في هذا التفسير.

وهنا نبدأ الأسئلة:

هل السماء والأرض لهما إرادة وإدراك للتحدث معهما؟

وغلبة الظن أن ذلك غير صحيح. ولكن غلبة الظن لا تكفي، وإنما إذا وجدنا آية في القرآن تتعارض مع ما نراه من قوانين كونية فإننا نحاول التوفيق (أي نحاول أن نجد تفسيرا يتوافق مع الآية والقوانين)، ولكن تبقى الآية هي الحَكَم. وبالتالي إذا وجدنا تفسيرا يتوافق مع قوانين الكون وتقبله الآية (أي أن نص الآية يتسع لذلك التفسير) فَنِعِمَّا به، وإلا فإننا نرفض التفسير ونؤمن بالآية كما هي وننتظر الأيام كي تأتينا بمعلومات جديدة تسمح لنا بتفسيرها. وهذا ما حدث في كثير من أعاجيب القرآن: فهناك الكثير من الآيات التي لم يستطع السابقون أن يُفسروها بشكل صحيح وذلك لأن المعلومات لم تكن متوفرة، وعندما توفرت المعلومات ظهر التفسير المريح الواضح لتلك الآيات.

ولكننا نستطيع القول هنا إنَّ حديث الله مع السماء والأرض كان مجازا ضمن طبيعة العرب في شرح الأمور. وهناك شاهد من اللغة على ذلك:

قال الشاعر: امتلأ الحوض وقال قطْني مهلا رويدا قد ملأت بَطْني (راجع تفسير القرطبي). ومعنى البيت أن الشخصَ ملأ الحوض حتى قال الحوض لقد امتلأت. وقطني تعني حسبي، أي يقول الحوض: حسبي. وقال عنترة عن فرسه: فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم، وشكوى الفرس هنا مجاز. وقد زاد هذا النوع من الأدب في أول العهد العباسي، ومنه مثلا كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع.

كيف تأتي السماء والأرض طوعًا، وكيف تأتيا كرهًا؟

وهنا سنشبه هذا الأمر بما يحدث معنا (وانتبه هنا أن الله قد شبه نوره كضوء الزيت وذلك للتوضيح، ولله المثل الأعلى):

لنفترض أنك ميكانيكي سيارات، وأن السيارة كانت بها مشكلة، فمتى تقول إن التصليح كان طَيِّعًا أو كُرْهًا؟

إذا كان التصليح شَدًّا للبراغي فإننا نستطيع أن نقول إن التصليح كان طَيِّعًا، ولكن إذا تطلب الأمر قَصًّا ولُحامًا فإننا نستطيع أن نقول إن التصليح كان كُرهًا (أي فرضنا التصليح على السيارة).

وأظن أن الأمور قد بدأت تتَّضح الآن ... فإن للوجود أربعة أسباب، وكلها جاءت بأمر الله:

1- الصدفة. وهي النتائج التي تأتي بسبب التعارض والتوافق بين قوى الطبيعة المختلفة. ومن هذه الصدف تأتي تشكيلات كثيرة جميلة في الطبيعة، ولكننا نعرف تماما أنها قد جاءت بالصدفة وذلك من خلال عوامل التعرية كالرياح والأمطار. وقد وضعنا مثالين تاليين على هذه التشكيلات التي جاءت صدفة: "أميرة الأمل" (Princess of Hope) وهو تشكيل صخري موجود في باكستان، "وامرأة لوط" وهو تشكيل صخري يُرى في الطريق إلى غور الصافي في الأردن. وكلاهما تشكيل جاء بالصدفة من خلال عمليات التعرية المختلفة للرياح والأمطار، ولكنهما يُشبهان كثيرا التماثيل الواقفة.

امرأة لوط (تشكيل صخري) في الأردن
Ref: M. Disdero – Wiki

أميرة الأمل (تشكيل صخري) في باكستان.
Ref: Discover-Pakistan

2- التصميم العام. وهو تعاون قوى الطبيعة وأنظمتها في الإيجاد المتكرر للشيء (مثل نزول الأمطار وهبوب الرياح وفيضانات الأنهار إلخ). ولو كان تشكيل "أميرة الأمل" موجود في كل منطقة وبالشكل نفسه فإن هذا لا يكون صدفة وإنما جاء من خلال تصميم عام لقوى الطبيعة ذات العلاقة. ونقول عن التصميم العام أنه تعاون بين قوى الطبيعة، ولكن هذا القول هو من باب المجاز؛ فَقُوى الطبيعة ليست ذات ذكاء وإرادة، ولهذا فإن هذا التصميم العام قد جاء من خارج الكون، وهذا ما بحثناه في الباب 2.1 (إثبات وجود الخالق).

ونتائج التصميم العام تكون روتينية إلى الدرجة أن الناس ربما لا تنتبه لوجود التصميم فيه. وإذا فرضنا على سبيل المثال وجود هيئة حكومية تقوم بخدمة الجمهور من خلال معاملاتها، ولنفترض أن الأنظمة في هذه الهيئة لم تتغير منذ عشرات السنين، فربما لا ينتبه الناس لوجود التنظيم والتصميم في معاملات هذه الهيئة وإنما سينظرون إليها أنها روتين طبيعي.

3- التصميم الخاص. وهو تصميم وعمل خارج عن "التصميم العام" ولكنه ليس خارجا عن قوانين الكون. وإذا استخدمنا المثال السابق فإنه إذا جاء مقرب لأحد الموظفين بمعاملة فإن ذلك الموظف سيحاول جهده تسريع المعاملة له، وهو هنا لم يخالف قوانين الهيئة، ولكن إنجاز المعاملة قد تم بشكل مخالف للرُوتين.

4- التصميم الخارج عن نظام الكون. ومثال ذلك ناقة سيدنا صالح وثُعبان سيدنا موسى، فهذه الأمور لم تأتي صدفة ولا تصميما عاما ولا تصميما خاصا وإنما جاءت بإرادة خارجة عن قوانين الكون.

وكل ما سبق هو بأمر الله تعالى.

وبالنظر إلى الآية السابقة وباستخدام النموذج السابق فإننا نستطيع أن نقول إن الكواكب قد خُلِقَت من خلال التصميم العام (كما تُخْلق الكواكب في كل المجرات). ولكن الشيء المميز هو الغلاف الجوي للأرض الذي نشأ بتصميم خاص وربما ليس له مثيل في الكون كله.

وهنا توجد نقطة أخرى أخبرتنا بها الآية وهو: إذا لم تكن قوانين الطبيعة كافية لإنشاء الغلاف الجوي فإن الله تعالى كان سَيُنشِئُها بالأسلوب الرابع؛ أي بطريقة خارجة عن قوانين الكون (وهذا الذي سمته الآية بـ الإكراه) ولكنَّ الله قد خلق الغلاف الجوي (والأرض) بشكل لا يُخالف قوانين الطبيعة (وهذا الذي سمته الآية بالطَّوع).

وبالنسبة إلى الدُّخان (في الآية السابقة) فإن هناك بحثا قيما لـ "عز الدين كزابر" عن معنى الدخان لغويا (راجع صفحة المراجع) ومنه أنَّ الغاز هي كلمة مُعَرَّبة من الغرب، وأما الدخان عند العرب الأقدمين فإن له عدة معاني ومنها: بخار الماء، والغازات التي تخرج من صَهْرِ المعادن، والغازات والجزئيات التي تخرج من حرق الأشياء، والروائح الطيارة، إلخ.

وبالتالي فإننا نستطيع أن نقول عن الغلاف الجوي الذي يُحيط بكوكب الزهرة إنه دخان.

وإذا ثبت هذا التفسير فإن الغلاف الجوي في بداية خلق الأرض كان دخانا (أي غازات وغبار وأبخرة إلخ بالضبط كما هو الحال في الزهرة حاليا) ولكن الله (ضمن التصميم الخاص) قد حَوَّلَها إلى عدة سماوات متتالية.

وبالنسبة للآية " وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا" فإنَّ الرواسي في التفاسير هي الجبال الثوابت، وتفسيرهم أن الله قد نصب الجبال فوق الأرض. ولكننا نستطيع وضع تفسير آخر: فالأرض في بداية حياتها قد تعرضت لزخَّات كثيرة من النيازك. وربما كانت هذه النيازك من الضخامة أنها استطاعت أن ترسو وتُثَبِّت القشرة الأرضية.

وبالنسبة للآية "وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا" فإن هناك تفسيرا في الطبري أنها تعني "وقدر فيها ما يُصلحها"، وهذا تفسير جميل؛ فليس من الضروري أن تكون البحار والسهول والوديان قد نشأت في تلك الأيام الستة، وإنما تم تصميم الأنظمة الكفيلة بإنشاء هذه البحار والسهول والوديان.

الآن ... بالنسبة لقول الله " ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ" فإن الاستواء ليس له معنًى واضحا حتى الآن، وإنما نؤمن به كما هو دون تفسير، وننتظر تتابع المعلومات.

وانتبه أن كثيرا من الأعاجيب التي ذكرناها في الفصل السابق قد انتبهنا إليها لحصولنا على المعلومات الكافية (والتي لم تتوفر لنا إلا في العصر الحديث). وبالتالي فإنه ليس من الحكمة "حرق الذهن" و"الاستغراق في التفكير" لحل مواضيع لا يمكن حُلها إلا بتوفر المعلومات ذات العلاقة، وإنما علينا أن ننتظر المعلومات اللازمة والتي إذا جاءت فإننا سننتبه من خلالها لتفسير هذه الآيات.

#5.11 "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (54-الأعراف).

وهنا نسأل ... ما هو اليوم؟

اليوم عند العرب كان يُمَثّل دوران الأرض حول نفسها بالنسبة للشمس. وأما اليوم عندنا في الوقت الحاضر فهو 24 ساعة ذرية (وللتسهيل سنسميها يوما ذريًّا). و"الساعة الذرية" تعتمد على ذبذبة الذرات في تحديد الوقت. واليوم الذَّري يساوي المُعَدَّل الحالي لدوران الأرض حول نفسها بالنسبة للشمس.

ما الفرق بينهما؟

دوران الأرض حول نفسها بالنسبة للشمس لا يكون 24 "ساعة ذرية" يوميا، وإنما قد يزيد قليلا أن ينقص قليلا خلال السنة، ولكن المعدل الحالي لدوران الأرض حول نفسها بالنسبة للشمس هو 24 ساعة ذرية.

وبالتالي يكون لليوم معنيان:

- ستة أيام وتعني 6 أيام ذرية كما نحسبها في الوقت الحاضر.
- ستة أيام أرضية، أي ستة دورات للأرض حول نفسها بالنسبة للشمس.

وقد ذكرنا في الباب 5.7 أن هناك احتمالا أن الأرض كانت في بداية حياتها في حالة قفل (أو قريبة من تلك الحالة) مع الشمس. وبالتالي فإن ستة أيام قد تعني ستة أيام ذرية (ضمن المعنى الأول) وقد تعني عدة ملايين سنة ذرية (ضمن المعنى الثاني). وسنقوم في الباب التالي بمقارنة نشأة الأرض من النظرة العلمية ومن ثم نقارنها بما يُمكن فهمه من النظرة الغيبية.

وبالنسبة لآية "يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا": فانتبه أن الليل والنهار هما مفعول به ومفعول به، وبالتالي فالآية تقول: يُغشي الله الليل النهار. ويُغشي جاءت من الغشاء (الغلاف والغطاء). ولتشبيه الآية: تَخَيَّل معك صفحة سوداء وحركتها فوق صفحة بيضاء. ولم يتم ذكر دخول النهار على الليل اكتفاءً بذكر الشيء عن الآخر (راجع القرطبي)، ومثال ذلك: "وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ" (جزء من 81 – النحل)، والسرابيل هي الثياب، وذكر الله الحَرَّ ولم يذكر البرد، مع أن البرد أشد حاجة للثياب من الحر وإنما هو اكتفاء بذكر الشيء عن الآخر لوضوحه.

وبالنسبة للآية "اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ" فقد ذكرنا أن مفهوم الاستواء ما زال غير واضح حتى اللحظة، وكذلك فإنه من غير الواضح حتى اللحظة مفهوم العرش، وننتظر تتابع المعلومات. وللتذكير فإن ما نعلمه من الكون ما زال حتى اللحظة ضحلا جدا بالنسبة للأمور التي لا نعلمها منه.

#5.12 "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (12–فصلت).

سنقوم هنا بوضع النظرية العلمية الحالية في نشأة الأرض، ثم سنقارنها بما يُمكن فهمه في الآيات ذات العلاقة.

النظرة العلمية في نشوء الأرض:

- كانت هناك سحابة جُزَيْئِيَّة (Molecular Cloud) من غازات وغبار، وبدأت المادة تتجمع في مركزها.
- وبسبب موجة صادمة (Shockwave) لانفجار نجم قريب فإن هذه السحابة قد بدأت الدوران حول نفسها (Spinning).
- وينتج عن دوران السحابة حول نفسها ظاهرة "الطرد المركزي". ومع وجود الجاذبية الناتجة عن الجرم الكبير في مركز السحابة، فإن كِلا الأمرين (الطرد المركزي والجاذبية نحو المركز) قد أدى إلى تراكم المادة (الغبار والجزيئات والغازات) في السحابة إلى شكل قرص كبير (Disc). ويدور هذا القرص حول الجرم الكبير.
- الأجزاء البعيدة عن الجرم المركزي قد استطاعت أن تحافظ على المسافة بينها وبينه وذلك بسبب الدوران. وأما الأجزاء القريبة من الجرم المركزي فقد انجرفت تجاهه، وهذا ما جعل الجُرم يزداد كتلة. وعندما وصل الجرم إلى الحد الكافي من الكتلة فإنه استطاع اشعال الهيروجين فيه نوويا (وذلك بسبب الضغط الهائل للكتلة فيه)، والذي أدى إلى ظهور الشمس في مركز القرص.
- واشتعلت الشمس، وهذا أدَّى إلى ابتعاد الغازات الخفيفة (الهيدروجين والهيليوم) إلى مسافات أبعد عن الشمس، وذلك بقوة الرياح الشمسية (والتي هي آيونات مشحونة ذات طاقة عالية).
- وبدأت الجزيئات التي تدور حول الشمس التراكم فيما بينها مما أدى إلى ظهور أجرام ذات كتلة كافية "لكنس" مداراتها (راجع الباب 4.8). وأول أربعة أجرام كانت صخرية السطح، وأما الأجرام التالية لها فقد كانت صخرية في مركزها ولكنها استطاعت أن تكنس الغازات الخفيفة حولها. والمشتري وزحل ونبيتون وأورانس هما كواكب غازية ذات نواة مصهورة.
- وفي هذه المجموعة فإن الأرض والزهرة كانتا توأما، وكان يحيط بالأرض غلافا جويا مماثلا للغلاف الجوي الحالي للزهرة. ولكن اصطدم جرم بحجم المريخ بالأرض (Giant impact hypothesis) بعد حوالي 50 إلى 100 مليون سنة من ظهور الشمس. وهذا أدى إلي شق وتشتت كتل كثيرة أخذت تدور حول الأرض، وهذه الكتل قد استطاعت لاحقا التراكم حول بعضها البعض لتقوم بتشكيل القمر. وكذلك فقد بدأت الأرض تدور حول نفسها مرة واحدة كل حوالي 5 ساعات (أي أن اليوم الأرضي بعد

الاصطدام مباشرة كان خمس ساعات)، وانحرف محورها بشكل يسمح لظهور الفصول الأربعة في السنة (وهذا كان ضروريا لاستقرار الماء على سطح الأرض). وأما الغلاف الجوي فإن جزءا كبيرا منه قد خرج إلى الكون، وأما الغلاف الحالي فقد جاء من داخل الأرض نفسها وذلك من جراء الاصطدام الهائل الذي حدث بين الجرم والأرض.

لننظر الآن إلى آيات "فُصِّلت" ولنرى كيف يُمكن تفسيرها ضمن نموذج في المقاربة:

- نستطيع أن نقول وبدرجة تخمين جيدة أن الأرض قبل اصطدام الجرم به قد كان في حالة قفل بينه وبين الشمس (راجع الباب 5.7)، وربما مع حركة ضئيلة جدا من دوران الأرض حول نفسها بسبب زخات النيازك التي كانت تضرب الأرض وقتها. وبالتالي فإننا نستطيع أن نفترض (في نموذج المقاربة) أن الزمن بين نشوء الأرض وبين اصطدام الجرم لم يزد عن دورتين للأرض حول نفسها بالنسبة للشمس، أي أنه لم يزد عن يومين أرضيين، وهذان اليومان استمرا حوالى 50 إلى 100 مليون سنة ذرية ("قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ").
- اصطدام الجرم على الأرض جعل الأرض تدور حول نفسها مرة واحدة كل خمس ساعات. ونستطيع كذلك أن نقول (ضمن نموذج المقاربة) أن سطح الأرض نفسه قد انشق إلى كتل تكتونية (tectonic) ضخمة كانت تسبح وتتلاطم فوق نواة الأرض المنصهرة، ومن هذه الكتل تشكلت القارات على الأرض.
- وكذلك فإن اصطدام الجرم بالأرض قد شَقَّ وشتَّتَ الكثير من الصخور الضخمة من الأرض، وبعضها أفلت من الأرض إلى الكون، وبعضها استطاع الاستقرار في مدار حول الأرض، وبعضها ارتفع عاليا ليسقط على سطح الارض. وهذه الصخور الأخيرة قد شَكَّلت أوتادا ورواسيا والتي أدت لتخفيف حركة وسباحة الكتل التكتونية ("وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا").
- وكذلك فقد انحرف محور الأرض حوالي 23 درجة عن الشمال الكوني مما سمح بظهور الفصول السنوية وهذا كان ضروريا لاستقرار الماء على سطح الأرض. وخلال أربعة أيام أرضية (أي حوالي 20 ساعة ذرية) فقد تشكلت الأنظمة اللازمة على الأرض لظهور واستقرار الحياة فيها ("وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ").
- وجزء كبير من الدخان الذي كان يحيط بالأرض قد أفلت إلى الكون، وظهر الغلاف الجديد من خلال غازات خرجت من الأرض بعد الاصطدام. وقد أدى الاصطدام إلى تشكيل عدة طبقات من الغلاف الجوي فوق بعضها البعض، وهذا كله قد تم في يومين أرضيين، أي 10 ساعات ذرية ("ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ").

وهذا التفسير يتطلب القول بوجود التقديم والتأخير في الآيات السابقة، ويكون أصل المعنى كالتالي:
خلق الله الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين، وجَعل في الأرض رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام.

وبالتالي تكون هناك ثلاث مراحل في تشكيل الأرض: أول يومين أرضيين (وهذه استمرت بين 50 إلى 100 مليون سنة ذرية) ثم جاءت مرحلتان متوازيتان إحداهما وهو تشكيل الغلاف الجوي، وهذه أخذت يومين أرضيين من لحظة الاصطدام، وتكافئ 10 ساعات ذرية،، والمرحلة الثالثة قد بدأت كذلك من لحظة الاصطدام وفيها تم تشكيل الأنظمة اللازمة على الأرض، وهذه أخذت أربعة أيام أرضية وتكافئ 20 ساعة ذرية.

وما سبق هو فرضية مقاربة لما يُمكن فهمه من الآيات الغيبية. ومن المؤكد وجود مسافة (Gap) بين هذه المقاربة والنظرية العلمية. ومن المؤكد في بعض المواضيع أن المسافة بين الغيب والعلم قد لا تختفي؛ وذلك لأن الغيب ليس فيه جميع التفاصيل، وكذلك العلم ليس فيه جميع المُدخلات (Data)، وبالتالي لا يُمكن (في هذا الحالة) أن يتوافق العلم مع الغيب،، ولكن إذا كانت المسافة بين الغيب والعلم في تناقص مستمر عبر الأيام فهذا يكفينا. ومن الواضح تماما أن المسافة بين النظرية العلمية في نشوء الأرض وبين فرضية المقاربة هي أقل بكثير جدا من المسافة بينهما قبل 50 سنة، فقد كانت النظرة للآيات أنها تتعلق بنشوء الكون، أما وقد أصبح الموضوع يتعلق بنشوء الأرض والغلاف الجوي فقد تضاءلت المسافة وبشكل كبير بين المقاربة والنظرية العلمية.

وهنا يجب توضيح المفهوم المتعلق بـ "المقاربة" (وقد شرحنا هذا الموضوع بتفصيل في كتاب" الفلسفة الألفية ومنهج المقاربة"): فقد ذكرنا في النقطة الرابعة في الباب الأول موضوع الفلسفة الألفية، وذكرنا أن فيها خطَّين:

الخط الأول: وهو أن نؤمن بالنصوص الغيبية الصريحة الثابتة.
والخط الثاني: وهو أن نمشي ونتماشى مع المنهج العلمي حتى يفرجها الله تعالى.

ولكن يوجد في هذه الفلسفة كذلك خط ثالث وهو منهج المقاربة، وهذا الخط ليس غيبا ولا علما وإنما هو أمر مشترك بينهما، وفيه نحاول أن نضع نموذجا يشرح الغيب من خلال العلم ولكننا نضع هنا الأولوية للغيب. وهذا النموذج ليس غيبا وإنما "الغيب الذي نفهمه" (وربما يكون فهمنا غير صحيح)، وهو كذلك ليس علما لأننا وضعنا الأولوية للغيب فوق العلم وبالتالي قد نضطر إلى هندسة العلم ليتلاءم مع الغيب. ولهذا السبب فهناك احتمالية عالية لنماذج المقاربة أن تكون خاطئة، ولكنَّ هذه النماذج مفيدة لأنها تفرض علينا النَّظر إلى "خارج الصندوق"، كما أنها قد تُخفف قليلا من شعور الضيق الذي يحدث في الصدر بسبب التعارض بين الخط الأول والثاني إلى أن يفرجها الله تعالى.

والفرق بين منهج المقاربة و"الخيال العلمي" أن منهج المقاربة هو ذو جدية عالية وبالتالي يجب أن يكون هناك صدق في التحليل وأمانة في النقاش تقتضي الاعتراف بوجود هامش كبير من الخطأ في فَرَضيات المقاربة.

#5.13 "لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ" (115–آل عمران).

وهذا مدح كبير جدا لأهل الكتاب في ذلك الوقت (أي في وقت نزول القرآن)، فمن هم؟

وهناك من يظن أن أهل الكتاب هنا هم المسلمون، ولكن هذا مستبعد جدا لأن "أهل الكتاب" هو وصف تم استخدامه للتعبير عن الديانات السماوية غير الإسلامية.

وتوجد فرقة من أهل التوراة لم يدرسها المؤرخون العرب بشكل دقيق وهم السامريون في فلسطين (Samaritans)، ويغلب على الظَّن أن هؤلاء هم المقصودون بهذه الآية.

وتاريخ السامريين عجيب فعلا: فقد كان عددهم قبل الإسلام حوالي المليون نسمة، وعددهم الآن لا يزيد عن 700 نسمة،، ولم يتناقصوا بسبب الحروب أو المجاعات أو انقطاع الخلفة، وإنما تناقصوا لأن جزءا كبيرا منهم قد أسلم واندمج مع العرب اندماجا كاملا.

وهذه النقطة تستحق التنويه ... فاليهود قد شاهدوا الرسول عليه السلام وعاشروه ولكنهم كَذَّبوه وحاولوا التَّخريب عليه بل وحاولوا اغتياله. وأمَّا السَّامريون (وهم أهل التوراة مثلهم مثل اليهود) فإنهم لم يُشاهدوا الرسول ولم يعاشروه ولكن معظمهم قد آمن به وأسلموا له، وهذا أمر يستحق التقدير.

وهذا قد يُفَسِّر السبب الذي لم يهتم فيه المسيح عليه السلام بدعوة السامريين (مع أنهم من أهل التوراة) فَهُم لم يكونوا بحاجة لدعوته إذ ما أن جاء الإسلام إلا وقد دخلوا فيه أفرادا وجماعات. وهذا يتوافق مع قول منسوب للمسيح في الأناجيل المسيحية: "لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ" (متَّى 15.24)، وكذلك: "إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا، بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ" (متَّى 10.6).

#5.14 "أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ" (48-النحل). وكذلك: "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ" (15-الرعد).

وهذه الآية ليست واضحة تماما بعد؛ فالظلال ليست مادة، فكيف تسجد هذه الظلال؟ ولكن كما ذكرنا فإن تفسيرها سيأتينا يوما من الأيام كما أتت التفاسير للآيات الأخرى.

ولكننا نستطيع هنا تقديم "فرضية مقاربة" متطرفة جدا في الخيال ولكنها ستكون مفيدة في توضيح حجم الأمور التي ما زلنا نجهلها عن الكون:

فالنظريات العلمية توحي بوجود بُعْدٍ مكانيٍّ رابع. ونحن نعلم ثلاثة أبعاد مكانية: يمين/يسار وأمام/خلف وفوق/أسفل. ولا يوجد عندنا القدرة لتخيل البُعد المكاني الرابع، ولكن النظريات العلمية والمعادلات الرياضية تفترض وجوده. ومن المفيد هنا التنبيه أنَّ علماء النسبية وعلماء الفيزياء الكمية لم يعودوا يهتمون بمنطق الأمور في دراستهم للفلك والفيزياء وإنما يفهمون الأمور من خلال الرياضيات بِغَضِّ النظر عن نتائجها؛ وذلك لأن العلم قد وصل إلى أمور لا يستطيع مَنْطِقنا أن يَتَخَيَّلَها، فمثلا: جميع الأجهزة الإلكترونية تعتمد على الترانزستور (والشرائح الإلكترونية التي جاءت بعده) وقد تطورت حياتنا باستخدام هذه الشرائح، ولكن لا يوجد عندنا منطق واضح للكيفية التي تعمل فيها وإنما نفهمها ونتحكم فيها من خلال المعادلات الرياضية المتعلقة بها.

وكذلك الحال في موضوع البُعد المكاني الرابع، فلا يستطيع مَنْطِقنا تخيله ولكنه مفهوم ضمن المعادلات الرياضية ذات العلاقة. وهناك تجارب في الفيزياء الكمية والتي لا يُمكن تفسيرها إلا بافتراض البُعد الرابع، ولكن هذه التجارب ليست كافية حتى اللحظة لإثبات وجوده.

ولتسهيل تَخَيُّل البُعد الرابع فإن العلماء قد وضعوا وصفا كلاسيكيا لشرحه: لنفترض وجود كائن في الدائرة في الشكل التالي، ولنفترض أن هذا الكائن لا يحس إلا بِبُعْدٍ مكاني واحد: أمام/خلف.

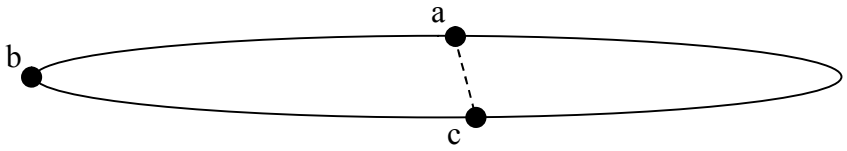

ولنفترض أن هذا الكائن كان في النقطة a وأراد أن يذهب إلى النقطة c فإنه سيذهب إليها بخط مستقيم (بالنسبة له) من خلال النقطة b. ولكنه لن ينتبه إلى الطريق المباشر بين a وc؛ وذلك لأن هذا الطريق يقع في بُعد آخر لا يَحُسُّه.

ونستطيع رفع درجة التشبيه ولنفترض وجود كرة، وعليها كائن لا يحس إلا ببُعدين اثنين على سطح الكرة: يمين/يسار وأمام/خلف. وبالتالي فإنه لن يحس بوجود البعد الثالث (فوق/أسفل) والذي يستطيع من خلاله الانتقال من نقطة على سطح الكرة إلى نقطة أخرى في الطرف الآخر من الكرة وبشكل مباشر دون التحرك على سطح الكرة.

ونستطيع هنا رفع درجة التشبيه إلى مستوانا نحن البشر: فنحن لا نحس إلا بثلاثة أبعاد مكانية، وبالتالي لا نحس بالبُعد المكاني الرابع والذي يُمكن من خلاله الانتقال من مجرتنا (مثلا) إلى مجرة أخرى خلال ساعة من الزمن، وهذه يُمكن تسميتها بـ أنفاق الكون (ترجمة غير حرفية لـ Wormholes). وهذه الأنفاق لم يتم إثبات وجودها بَعْد ولكنها ظاهرة في المعادلات الرياضية.

والسؤال ... إذا ثبت وجود البُعد الرابع فهذا معناه أن جزءا من جسمنا يقع فيه، فهل هذا هو المقصود بالظلال في الآية السابقة!

وكما ذكرنا سابقا فإن هذه هي "فرضية مقاربة" متطرفة جدا في الخيال. وللتنبيه فإن هذه الفرضية قد ربطت أمرا ليس مفهوما تماما (وهو الظلال) مع أمر آخر غير مفهوم على الإطلاق (وهو البُعد الرابع) للخروج بالنتيجة. ولهذا السبب نقول إن هذه النتيجة ليست غيبا ولا علما ولا حتى فلسفة وإنما هي "فرضية مقاربة" وقَلَّما تكون هذه الفرضيات صحيحة ولكنها مفيدة جدا إذا ساعدتنا في النظر إلى الأمور من زوايا مختلفة؛ فربما تُنَبِّهُنا إلى الفرضيات الصحيحة (راجع الباب 5.12).

وهناك فرضية أخرى متطرفة في الخيال كذلك فيما يتعلق بأنفاق الكون:

فضمن ما نعلمه فإن الرسول عليه السلام قد سرى إلى المسجد الأقصى ومنه عرج إلى السماء. وضمن التكنولوجيا الحالية فإن رحلة الرسول عليه السلام من مكة إلى المسجد الأقصى ليست مخالفة لقوانين الكون،

فيوجد عند البشرية الآن الطائرات السريعة جدا، ولهذا نقول إنَّ رحلة الرسول من مكة إلى الأقصى ليست مخالفة لقوانين الكون. ولنأخذ هذا القياس إلى مداه: فإنَّ رحلة الرسول من مكة إلى الأقصى لم تُخالف قوانين الكون، وهذا يتطلب (قياسا على ما سبق) أن الرحلة من الأقصى إلى السماء لا تُخالف كذلك قوانين الكون.

وهذا يُرجعنا لموضوع "أنفاق الكون"، أي أن الرسول في عروجه إلى السماء قد استخدم أحد أنفاق الكون.

وهنا نسأل .... هل هي صدفة أن المكان الذي عرج منه الرسول عليه السلام هو المكان نفسه الذي عرج منه المسيح عليه السلام!

وكما ذكرنا فإن كل ما سبق هي "فرضيات مقاربة": أي أنها ليست غيبا ولا علما ولا فلسفة وإنما مزيجا مما سبق. ولهذا فإن فرضيات المقاربة قَلَّما تكون صحيحة، ولكنها تكون مفيدة إذا جعلتنا نرى الأمور من خلال زوايا مختلفة.

#5.15 "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (1–فاطر).

ولا يوجد وضوح لماهية الملائكة ولا للكيفية التي يستخدمون فيها الأجنحة، ولكننا نستطيع وضع عدد الأجنحة في الكائنات الحية التي نعرفها والطائرات التي صنعها الإنسان:

- جناحان اثنان: وهذه موجودة في بعض الفراشات. وكذلك فإن الهليكوبتر لها شفرات أفقية (وهذا جناح) وشفرات عمودية خلفية (وهذا جناح آخر للتوازن).
- ثلاثة أجنحة: وهذه موجودة عند النسور والطيور الأخرى: اثنان في الأمام، وواحدة في الخلف وهو الذي نسميه الذيل ويتم استخدامه من أجل التوازن. وإذا نظرت بدقة إلى هذا الذيل فإنه أقرب للجناح منه للذنب؛ فشكله يتغير حسب الحاجة.
- أربعة أجنحة: وهذه موجودة عند النحل وبعض النمل.
- خمسة أجنحة: وهذه موجودة في طائرات نقل الركاب: جناحان أماميان، وجناحان خلفيان، وجناح خلفي عامودي.
- إلخ.

#5.16 "سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (21–الحديد). وكذلك: "وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ" (133–آل عمران).

ومن المستبعد تماما أن تكون السماء هي الغلاف الجوي وإنما هي الكون بأكمله. وبالتالي توجد هنا نقطة غير واضحة تماما: عرض الأرض هو صفر مقارنة بعرض الكون، بل إن عرض الأرض هو صفر مقارنة بعرض

المجرة التي نعيش فيها، بل إن عرض الأرض هو صفر مقارنة بعرض النظام الشمسي. فلماذا يتم ذكر الأرض في هذا القياس؟

وغلبة التخمين أن هذا الأمر جاء مراعاة لإدراك العرب ذلك الوقت، فإنه إذا تم ذكر السماء فقط فإن بعض العرب (ذلك الوقت) قد يشعر أن هذا العرض قليل: فهم يرون القمر ويرون النجوم من مدينتهم، ولكنهم لا يَرَوْن القدس (مثلا) ولو صعدوا إلى أعلى الجبال،، وبالتالي ربما يكون عرض الأرض بالنسبة لهم أكبر من عرض السماء.

ويوجد شاهد على مثل هذا الأمر، فعندما فتح الرسول عليه السلام مَكَّة فإنه أرسل الأمان لأهلها: "مَن دخل دارَ أبي سفيانَ فهو آمِنٌ، ومن أغلق بابَه فهو آمِنٌ، ومن دخل المسجدَ فهو آمِنٌ". وكان ذِكْرُ بيت أبي سفيان مراعاة لأبي سفيان ليس إلَّا.

#5.17 "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" (41-الرعد).

دعونا هنا نضع المعاني المستخدمة للأرض في القرآن:

- فالأرض تعني الكوكب، ومثال ذلك قول الله تعالى: "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (9-فصلت).
- وكذلك تعني منطقة، مثال ذلك قول الله تعالى: "وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ" (71-الأنبياء).

ولكن آية الرعد لا يصلح معها معنى الكوكب، لأن كوكب الأرض ليس فيه أطراف. وربما نستطيع أن نعتبر القطب الشمالي والجنوبي طرفا الكوكب، ولكن يغلب على التخمين أن هذا لا يصلح للآية لأنها ذكرت الأطراف (أي بالجمع). وغلبة الظن هنا أن الأرض في آية الرعد تعني اليابسة، وهذا معناه أن أطراف الأرض هي الشواطئ.

وباستخدام هذا المعنى فإننا نستطيع تقديم تفسير مريح للآية: فمنذ حوالي 12 ألف سنة دخلت الأرض في حالة إنتيرجلاسيال (Interglacial) وهي فترة دافئة في العصر الجليدي، وما زلنا في هذه الفترة. وللتنبيه فقد كان الجليد في شمال أوروبا (الدول الاسكندنافية وإنجلترا) يصل في بعض المناطق إلى ارتفاع 5 كيلومتر وذلك قبل 12 ألف سنة.

وضمن النظريات العلمية فإن مستوى البحر قد بدأ يرتفع منذ حوالي 20 ألف سنة، ولكن حدة الارتفاع قد زادت منذ حوالي 12 ألف سنة، ثم استقر مستوى البحر مع ارتفاع طفيف سنويا منذ حوالي 6 آلاف سنة وحتى القرن الأول الميلادي. واستقر مستوى ارتفاع البحر بعد ذلك إلى عام 1880 ميلادية، وبعدها بدأ مستوى البحر في ارتفاع تصاعدي. وللاطلاع ضع في الجوجل: "Past Sea Level" أو "history of sea level rise".

وهنا يجب التنبيه لأمرين:

- يوجد نقطة ضعف في التفسير السابق للآية وذلك لأن مستوى ارتفاع البحر منذ القرن الأول الميلادي إلى 1880 كان مستقرا، وجاءت حدة الارتفاع بعد 1880 ميلادية. ولكن إذا أخذنا النظرة العامة فإن مستوى ارتفاع البحر كان في حالة ارتفاع منذ حوالي 20 ألف سنة، وخلال هذه المدة ارتفع البحر حوالي 130 مترا.

وكذلك نستطيع هنا القول إنَّ المخاطب في هذه الآية هم البشر في وقتنا الحالي، إذ في وقتنا (ومنذ 1880) واليابسة في تناقص سريع بسبب ارتفاع الماء.

- ومستوى البحر يرتفع في عموم أطراف الأرض باستثناء شمال أوروبا. وسببه أن الأرض نفسها ترتفع هناك من خلال ظاهرة تُمسى Land Uplift وذلك بسبب ذوبان كمية هائلة من الجليد قبل 12 ألف سنة، وهذا قد خَفَّفَ الوزن على تلك المنطقة. والقشرة الأرضية هي لَيِّنَة (مجازا) ولكن ارتفاعها وانخفاضها يأخذ عدة آلاف من السنين. ولكن على العموم فإن أطراف الأرض الآن تنقص (أي أن اليابسة تنقص) وذلك للارتفاع المستمر لمستوى البحر.

#5.18 "الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3–الروم).

التفسير الحالي المشهور عن "أدنى الأرض" أن معناها أخفض نقطة في الأرض. وفي هذا التفسير فإن القرآن قد عَبَّرَ عن الكُلِّ (بلاد الشام) بالجزء (البحر الميت)، وهذا مقبول في لغة العرب.

ولكن هناك اعتراض عند البعض أن العرب الأقدمين لم يستخدموا "أدنى" بمعنى "الأخفض" وإنما من معانيها: الأقرب والأقل إلخ. وهذا مفهوم تماما، ولكننا نستطيع تفسير "أدنى الأرض" أنها تعني ما سبق وذلك من خلال المناقشة التالية:

كما ذكرنا في الباب السابق فإن الأرض في القرآن قد تعني المنطقة أو الكوكب أو اليابسة. وإذا أخذنا معنى الأرض في سورة الروم أنها تعني المنطقة فإن المعنى المحتمل لـ "أدنى" هو الأقرب. ونستطيع أن نستبعد المنطقة أن تكون مكة، وذلك لأن هناك مدن أخرى أقرب لمكة من بلاد الشام. وإذا افترضنا أن المنطقة تعني جزيرة العرب فهذا يجعل "أدنى الأرض" غير محدد لأن أقرب الأرض للجزيرة العربية هي العراق وبلاد الشام وسيناء وجيبوتي. وبالتالي يُمكننا استبعاد منطقة معنًى للأرض في الآية.

وإذا أخذنا معنى الأرض أنها الكوكب فإنَّ معنى "أعلى الكوكب" واضح وهو قمة الهيمالايا، ولكن ما هو المعنى المباشر لعبارة "أدنى الكوكب"؟ والمعنى لها هو "أخفض نقطة في الكوكب" وهو الصَّدع في قاع المحيط الأطلنطي. وبالتالي فإن الكوكب ليس هو المعنى الصحيح للآية.

وإذا أخذنا معنى الأرض أنها اليابسة فإنَّ معنى "أعلى اليابسة" واضح كذلك وهو قمة الهيمالايا، وبالتالي نستطيع الاستنتاج أن معنى عبارة "أدنى اليابسة" هو أخفض نقطة فيها وهو البحر الميت.

وإذا استخدمنا النماذج الحالية المتعلقة بالارتفاعات ووضعنا سلَّمًا يُمَثِّل الارتفاع على اليابسة فإنَّ أعلى ارتفاع في السلم هي قمة الهيمالايا، وأقل ارتفاع فيه هو البحر الميت، وهنا نستطيع أن نربط بين كلمتي: "أقل" و "أدنى".

#5.19 "وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ" (8-الطور).

وكذلك: "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ" (6-التكوير).

والمسجور يعني الملتهب، وفسر العلماء التكوير أنه ذهاب الضوء، وفسر العلماء الانكدار أنه التناثر. وفي المجمل فإن هذه الآيات غير الواضحة حاليا من حيث النظرة العلمية، وننتظر تتابع المعلومات لها.

#5.20 "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ" (5-السجدة).
وكذلك: "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (4-المعارج).
وكذلك: "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ" (47-الحج).

وليس واضحا حاليا المقصود بهذه الأيام، ولكننا ننتظر تتابع المعلومات.

#5.21 "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ" (7-هود).

ومفهوم العرش وكونه كان فوق الماء هما أمران غير واضحين حاليا، وننتظر هنا تتابع المعلومات.

وختاما ... فإننا قد وضعنا هذا الفصل للتنبيه أن هناك الآيات التي لم تتوضح لنا بعد، بل ربما تفسيراتنا الحالية لها غير صحيحة. ولكننا يجب أن نكون قد أخذنا المناعة في ذلك. وكما شرحنا في الفصل الثالث (معالجة الضيق) فإن هناك الكثير من الأعاجيب في القرآن والتي زادتنا اطمئنانا على اطمئنان، وبالتالي يجب أن لا نتأثر بما لم نفهمه بعد من الآيات الأخرى. وكما أن المعلومات قد جاءتنا في عصرنا وساعدتنا أن نضع التفاسير المريحة للكثير من الآيات التي لم يكن لها تفسير سابق، فإن المعلومات المتعلقة بالآيات الأخرى ستأتي لاحقا في وقتنا أو في وقت أجيالنا.

وكما ذكرنا فإن هناك الكثير جدا من الأمور التي نجهلها في هذا الكون، وعلومنا الحالية ما زالت في بداياتها. ولننظر إلى هذه الأمور بنظرة واقعية: فقد اكتشف لجيلنا الحالي الكثير من الأعاجيب في القرآن، ومن الطبيعي أن تقوم الأقدار بترك الأعاجيب الأخرى للأجيال اللاحقة ليتعجبوا منها كما تعجبنا نحن.

الفصل السادس – أعاجيب الأعداد بين الاعتماد والتأجيل

بدأ موضوع "الاعجاز العددي" في القرآن عندما وضع "رشاد خليفة" فرضيته التي تتعلق بوجود نظام عددي في القرآن يعتمد على الرقم 19 وذلك في عام 1974. وما فعله رشاد كان فتنة كبيرة إذ إنَّ مؤلفاته في هذا الموضوع لم تكن أمينة، ولكن ... من كان يستطيع وقتها أن يَعُدَّ وراءه. وكثير من المسلمين قد اقتنع بفرضياته ثقة به دون تَحَقُّق إلى أن تم الإثبات أن رشاد لم يكن أمينا في حساباته وأنه أهمل بعض المعطيات كي تأتي الفرضيات كما يُريد. ولكن ما فعله رشاد قد فتح باب الانتباه للآخرين كي ينظروا في القرآن من خلال الأنماط العددية.

ولكن تبقى هناك المشكلة: من سَيَعُدُّ وراء الذين يضعون أفكارهم في هذا الأمر. ولنفترض جدلا المثال التالي: إذا جاء شخص وأعلن أن عدد الحرف "س" في السورة الفلانية هو كذا حرفًا، وهو يطابق رقم السورة مضروبا بآياتها. فمن سيأتي ويُجْهِدُ نفسه كي يَعُدَّ الحرف "س" في تلك السورة. وفي هذه الحالات فإما أن تقتنع بالكلام دون تَحَقُّق أو ترفضه. وهنا نرجع إلى مشكلة رشاد نفسها: من سَيَعُدُّ وراء أولئك الناس!!

وهنا الفرق الشاسع بين الأعاجيب في الفصل الرابع وبين "الإعجاز العددي"، فالتحقق من تفسير الأعاجيب في الفصل الرابع سهل وموجود ومتوفر، في حين أنَّ التحقق من عدد الأحرف والكلمات في القرآن ليس سهلا للجميع.

ولوضع مثال حقيقي فقد نَظَرنا إلى صفحة في الويكيبيديا متعلقة بالاعجاز العددي وفيها أنَّ لفظة "دنيا" ذُكِرَت في القرآن 115 مرة وأنَّ لفظة "آخرة" (وهي الكلمة المضادة لـ دنيا) قد ذكرت كذلك 115 مرة. وذهبنا للتحقق من خلال موقع "الباحث في القرآن" فإذا بهم يقولون إنَّ "دنيا" مذكورة في القرآن 111 مرة وأن "آخرة" مذكورة في القرآن 113 مرة.

وهنا نسأل ... من المخطئ؟

وربما من وضع المعلومة في الويكيبيديا هو المخطيء وربما موقع "الباحث" هو المخطئ. ولكن تبقى المشكلة كما ذكرنا ... كيف سنتحقق من ادعاء الآخرين في ما يتعلق بالإعجاز العددي!!

والحل لهذه المشكلة هو أن تقوم جهة أكاديمية رسمية إسلامية عالمية بالتحقق من الأعاجيب العددية ضمن لجنة يتم انتدابها لهذا العمل. وفي هذه الحالة فقط نستطيع أن نأخذ كلامهم على محمل الجدية. وأما الادعاءات الحالية المتعلقة بالأعاجيب العددية فإنَّ مصدرها أفرادٌ لا نعلمهم ولا يوجد عندنا الطاقة كي نَعُدَّ وراءهم.

وإذا افترضنا وجود أعاجيب عددية في القرآن فإنه من الخطأ الشديد أن يتم وصفها بالإعجاز: فإذا صدق أحدهم في وضع أنماط عددية للتقابل في القرآن (مثلا: دنيا وآخرة، نهار وليل، ملائكة وشياطين) وتم اعتبار أنَّ هذه هي معجزات عددية فإنه يحق للمستشرقين أن يسألوا عن العدد المتعلق بـ أعلى وأسفل، وأمام وخلف، ويمين ويسار، إلخ. فهذه كذلك كلمات متقابلة،، وإذا كان الموضوع إعجازا فلا بد أن يشملهم ذلك الإعجاز. ولكن إذا قلنا إنها أعاجيب وأنها تَدُلُّ على مصداقية القرآن فإنه ليس من الضروري أن تكون الأعاجيب شاملة.

وبالنسبة للادعاء بوجود نظام عددي في القرآن فإن هذا الادعاء لم يَثْبُت، ولا يحق لأحد الادعاء بشيء في القرآن دون دليل!

وهناك من يعتبر أن آيات المُدَّثِّر دليل على وجود النظام العددي وهي: "سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ" (31–المدثر).

ولكن لا توجد أي إشارة للنظام العددي في هذه الآيات، وأما آية "لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ" فإنَّ معناها حتى اللحظة غير واضح بعد، ولكن إذا كان المقصود هو النظام العددي فإن جميع الكفار سيستيقنون من ذلك وليس بالضرورة أهل الكتاب فقط!

ونستطيع إلقاء بعض الضوء على هذه الآية:

فمعظم "أهل الكتاب" الذين ذُكروا في القرآن كان يُقْصَد بهم اليهود، وبعض الآيات كان يُقْصَد بها المسيحيون. ونستطيع (كتحليل ابتدائي) أن نفترض أن أهل الكتاب في آيات المدثر هم اليهود.

الآن ... ما الذي سيستيقنه اليهود من شيء يتعلق بالعدد 19؟

- هل سيأتي شيء يتعلق بالعدد 19 ويجعل اليهود يستيقنون أن القرآن هو كتاب الله؟
- أم سيأتي شيء يتعلق بالعدد 19 ويجعل اليهود يتحققون من شخصية عيسى عليه السلام عندما يرجع إليهم؟
- أم سيأتي شيء يتعلق بالعدد 19 ويجعل اليهود يستيقنون الهزيمة التي وعدها الله لهم في آية الإسراء: "فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا" (7).

والأمثلة السابقة تدل أن موضوع الاستيقان ليس واضحا، ولكنها ستتوضح في يوم من الأيام.

والآية بعد ذلك واضحة: فإن الآية " وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ" تقول (ما معناه) إن أهل الكتاب لن يعترضوا هذه الآية ولن يسألوا عنها، وهذا الذي حدث: فلم يأت أحد من أهل الكتاب وسأل الرسول عليه السلام عن هذه الآية ولم يستخدموا هذه الآية مادة استخفاف على القرآن، وإنما الذي فعل ذلك هم المنافقون والكافرون (كما في تكملة الآية).

وهناك مشكلة أخرى تتعلق بموضوع الحساب والعدد: بأي قراءة سيتم حساب الحروف والكلمات، إذ يوجد عدة قراءات متواترة للقرآن، واختلاف القراءات يؤدي إلى اختلافات في العدد.

ختام الفصل: لا يوجد أي دليل على وجود نظام عددي في القرآن، ولا يحق لأحد أن يَدَّعي على القرآن شيئا دون دليل.

الخاتمة

كان الهدف في هذا الكتاب هو تقديم الأجوبة لشبهات المستشرقين والملحدين. وبالطبع فإن هذا الكتاب لم يضع جميع الشبهات، ولكننا نظن أننا قد وضعنا ما يكفي من الأمثلة التي يُمكن استخدامها في الرد على معظم الشُّبهات.

وكذلك وضعنا بعضا من الأعاجيب في القرآن، ونظن أن ما وضعناه منها كان كافيا لبناء الاطمئنان فوق الاطمئنان فيما يتعلق بأن القرآن هو كلام الله تعالى.

وكذلك وضعنا بعضا من الآيات التي لم يثبت تفسيرها أو التي لم يَتَّضِح تفسيرها بعد. ونَظُن أن ما وضعناه منها كان كافيا للتنبيه أنَّ المسلمين يجب أن يكونوا قد وصلوا إلى المناعة اللازمة كي يقرأوا الآيات التي لم يَتَّضِح معناها دون أن يشعروا بالضيق. وهذه المناعة قد جاءت من الانتباه للأعاجيب في القرآن (والتي وضعنا بعضًا منها في الفصل الرابع) وكذلك من الانتباه لأدلة وجود الخالق وصحة الرسالة المحمدية (والتي تحدثنا عنها في الفصل الثاني).

الملحق الأول – الطرق المستخدمة في إثبات وجود الخالق

هناك عدة إثباتات يتم استخدامها للدلالة أن الكون مخلوق لخالق، ولكن في مجملها تكون ضمن الطرق التالية:

 # الطريقة الأولى وهي الطريقة اليونانية القديمة والتي بدأت من سقراط، وتتضمن أكثر من نموذج ولكنها في العموم تكون كالتالي: كل شيء له سبب في وجوده، وهذا السبب له كذلك سبب آخر في وجوده، وهكذا. ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية، وبالتالي لا بد من وجود سبب ليس له سبب في وجوده. أي أن هذا السبب (والتي سماه اليونانيون "الأول") هو واجب الوجود، وهو الذي تسبب في الوجود الذي نراه حولنا. وهذا التحليل له نهاية حتمية وليست تخمينة، فالاستنتاج "أن هناك سببا ليس له سبب" هو استنتاج غير منطقي ولكنه حتمي وضروري لسلامة التحليل المنطقي.

وحيث إن كل شيء في الوجود مقيد بقوانين وأنظمة، فمستبعد جدا أن يكون "الأول" مقيد بأي قانون أو نظام وإلا سيكون السؤال: من قيده وكيف تم تقييده. أي أن "الأول" واجب الوجود وهذا يتطلب أن يكون فوق وقبل القيود والأنظمة (وسنعود لمناقشة هذه الفكرة من خلال "مبدأ الغزالي"). ولهذا كان استنتاج الكثير من فلاسفة اليونان أن "الأول" واجب الوجود ولا حدود لقدرته.

وهذا كان عملا رائعا من الفلاسفة اليونان، ولكنهم بعد ذلك دخلوا في خطأ فلسفي كبير؛ فقد بدأوا يُحللون الصفات لهذا "الأول". والمشكلة الفلسفية هنا أنه ليس من الضروري أن تكون القوانين في منظومة مطابقة للقوانين في منظومة مجاورة، وكذلك ليس من الضروري أن تكون مطابقة للقوانين في منظومة محيطة. وهذا الادعاء ليس بحاجة لإثبات وإنما بحاجة لأمثلة؛ وذلك لأن هذا الادعاء لا يدعي الحتمية وإنما يدعي "عدم الضرورة": وقوانين المجتمع ليست بالضرورة مطابقة لقوانين المجتمع المجاور، والقوانين في لعبة ليست بحاجة أن تكون مطابقة للقوانين في لعبة أخرى. ولهذا السبب نستطيع الادعاء أن قوانين الكون ليست بالضرورة أن تكون مطابقة للقوانين خارج الكون.

ولكن ... أول شيء استنتجناه عن "الأول" أنه واجب الوجود، وهذا مخالف تماما لقوانين وبديهيات الكون، وبالتالي نستطيع أن نقول وبثقة أنه لا يمكن تطبيق القوانين والبديهيات التي نعرفها في الكون لتحليل الصفات الموجودة في "الأول" (وذلك لأن أول صفة استنتجناها عن الأول كانت مخالفة لقوانين وبديهيات الكون). ولهذا السبب كانت أبحاث الفلاسفة اليونانيين في الصفات الذاتية "للأول" أقرب إلى العبث لأنهم يحاولون تطبيق البديهيات المستنتجة في الكون على الأمور الخارجة عن الكون.

 # الطريقة الثانية تتعلق بالتنبيه لدقة التنظيم في الكون والحياة، وأن التنظيم لا يمكن أن يأتي من الكون نفسه؛ فالكون مقيد بهذه الأنظمة. وموضوع "التعيير الدقيق" (Fine-tuned Universe) هو أحد الإثباتات المستخدمة في هذه الطريقة. وحتى الملحدون من علماء الفيزياء يعتقدون أن الكون مُنَظَّم بمعادلات رياضية "جميلة جدا"، فمثلا ديراك (Paul Dirac) هو أحد العلماء المشهورين في علم الكوانتم وقد كان واضحا أنه "غير مؤمن بوجود

الخالق" ولكنه قال في عام 1963 (بتصرف): من الواضح أن قوانين الطبيعة يمكن وصفها بمعادلات رياضية في غاية الجمال ...

It seems to be one of the fundamental features of nature that fundamental physical laws are described in terms of a mathematical theory of great beauty and power (Ref: Wiki-Dirac).

 # الطريقة الثالثة تتعلق بـ "مبدأ الغزالي"، وهذا المبدأ هو خلاصة الفلسفة التي وضعها "أبو حامد الغزالي" في كتابه "تهافت الفلاسفة"، وسنشرح هذا المبدأ بتصرف وباستخدام المصطلحات الحديثة:

تدور الأرض حول الشمس مرة واحدة في السنة، في حين يدور زحل حول الشمس مرة واحدة كل حوالي 30 سنة. وبالتالي نستطيع وصف دورات الأرض وزحل من خلال المعادلة التالية: ض = 30ز، حيث "ض" هو عدد دورات الأرض، و"ز" هو عدد دورات زحل. وبالتالي إذا دار زحل حول الشمس 10 مرات فإن الأرض تكون قد دارت 300 مرة.

وهذه المعادلة لا تقبل اللانهائية في الماضي (الأزل الماضي)؛ لأننا إذا اعتبرنا أن "ز" تساوي اللانهائية (أي الأزل الماضي) فإن عدد دورات الأرض (منذ الأزل) تساوي اللانهائية وعدد دورات الزحل (منذ الأزل) تساوي اللانهائية، وبالتالي فإن "ض تساوي ز" وكذلك فإن "ض تساوي 30ز" في الوقت نفسه، وهذا غير مقبول.

وبالتالي فإن الأرض وزحل (والكواكب الأخرى) قد بدأوا الدوران حول الشمس في وقت محدد في الماضي. وهذا (باختصار) هو الإثبات الذي وضعه الغزالي في أنَّ السلسلة من الأحداث (والسلسلة هنا هو دوران الأرض وزحل) لا يمكنها أن تكون موجودة منذ الازل، وإنما بدأت هذه السلسلة من نقطة محددة في الماضي.

وهنا نستطيع وضع المبدأ والذي سنسميه بـ "مبدأ الغزالي": لا يمكن لمنظومة حقيقية أن تبدأ منذ الأزل. والمنظومة الحقيقية هي مجموعة من الأجسام الحقيقية والتي ترتبط مع بعضها البعض بعلاقات يُمكن وصفها بمعادلات رياضية.

الآن ... المعادلة الرياضية السابقة ليست دليلا قطعيا على صحة "مبدأ الغزالي"، ولكنه يجعل للمبدأ الأولوية في الافتراض؛ أي أن "مبدأ الغزالي" يكون هو "الفرضية الأساس"، وأن أي فرضية أخرى بديلة ستكون بحاجة للإثبات.

وقد نجح هذا المبدأ في الملاحظات العلمية؛ فقد كان الرأي عند الفلاسفة الملحدين أن النظام الشمسي أزلي في الماضي، وقد ثبت أن النظام الشمسي ليس أزليا في وجوده، بل ثبت أن المجرات نفسها ليست أزلية في وجودها، وقد ثبت كذلك أن الكون نفسه ليس أزليا في وجوده. وهذه الملاحظات تضع لـ "مبدأ الغزالي" المصداقية العالية في اعتباره "الفرضية الأساس".

وهنا نرجع إلى مفهوم "الأول" عند الفلاسفة اليونان (في النقطة الأولى)، فلا يمكن أن يكون "الأول" مقيدا بمنظومات ومعادلات رياضية وإلا فإن "الأول" ليس أزليا في وجوده، وهذا يتطلب أن يكون "الأول" فوق القوانين والمنظومات والمعادلات.

 # الطريقة الرابعة تعتمد على مفهوم البرمجة؛ فكل العمليات التي نراها تحدث في الكون تنقسم إلى نوعين اثنين:

- عمليات تحدث بسبب تكاتف وتعارض وتوالي القوى المختلفة في الظواهر الكونية، وينتج عن ذلك الأحداث المختلفة في الكون: فانفجار النجوم ثم نشأتها، وسقوط الأمطار، وتزحزح القارات كلها تقع ضمن هذا النوع من العمليات.
- عمليات تحدث بسبب وجود برنامج عمل لها. والبرنامج هو قائمة (List) من التعليمات على شكل: افعل كذا ثم افعل كذا وإذا حدث كذا فافعل كذا. والأعمال التي يقوم بها الكمبيوتر هي نتاج البرامج فيه، ومنهجيات العمل (Business Manuals) في الشركات هي برامج عمل، وعمليات الصيد التي تقوم بها الحيوانات المختلفة (مثل الأوركاس والكلاب البرية والأسود إلخ) تتطلب برامج عمل، وبناء الأعشاش والبيوت عند النمل والنحل والطيور المختلفة تتطلب برامج عمل. وكل برامج العمل الموجودة في الكون لها مُبرمج: فبرامج الكمبيوتر ومنهجيات العمل جاءت من الانسان، والعمل الجماعي الذي أنتج خلية النحل قد جاء من النحل نفسه، وأعشاش الطيور قد تم بناؤها من الطيور نفسها. ولهذا فإنه ليس غريبا القول إن "كُلَّ برنامج بحاجة لمبرمج." وهنا يأتي السؤال المهم: من الذي بَرْمَجَ الحمض النووي (DNA)؟

وبالطبع من الممكن أن تتطور البرامج بالصدفة، فهناك الكثير من الأخطاء التي قام بها المُبرمج نفسه في برامج الكمبيوتر، وهذه الأخطاء قد أعطت للمبرمج الفرصة لتطوير برنامجه. ولكن البرامج نفسها لا يمكنها أن تنشأ من الصفر بالصدفة. وبالتالي يبقى السؤال ... من الذي برمج الحمض النووي؟

وسنشرح هذا الموضوع بالتفصيل في الملحق الثاني.

 # الطريقة الخامسة تعتمد على تحديد احتمالية الصدفة في نشوء الكون، واحتمالية الصدفة في ظهور "حمض نووي" صالح للحياة. والطرق السابقة في الاثبات تعتمد على التحليل الفلسفي للأمور، ولكن هذه الطريقة هي إحصائية بحتة، فهي تحاول تحديد مقدار الصدفة فقط، وتترك الجواب للآخرين. وهذه هي الطريقة التي استخدمناها في الفصل الأول.

 # الطريقة السادسة تعتمد على الرسالة المحمدية، فإذا ثبت (مثلا) أن إنجازات الرسول هي إنجازات خارجة عن الطبيعة البشرية، وإذا ثبت كذلك أن العجائب في القرآن خارجة عن القدرة البشرية، فهذا يكون دليلا على وجود جهة خارجة عن العالم هي التي ساعدت في تحقيق هذه الإنجازات وهي التي وضعت القرآن. وهذا قد شرحناه في الفصل الأول.

الملحق الثاني – أصل الحياة دليل على وجود الخالق

هذا الموضوع قد شرحناه بتفصيل في كتاب "أصل الإنسان" وسنقوم هنا بشرحه باختصار.

كما شرحنا هنا في هذا الكتاب (باب 5.10) فإن كلمة "صدفة" (وكذلك كلمة "عشوائية") هي كلمة إنسانية تعبر عن معنى إنساني محدد، وبالتالي فلا يوجد مشكلة في القول إن هذا الشيء قد "ظهر صدفة" أو "خُلِقَ صدفة" أو "تم بشكل عشوائي"، فالمعنى المقصود في "صدفة وعشوائية" هو عدم وجود أي تعمد من أي إنسان أو نظام محدد في ظهور وتمام ذلك الشيء.

ودعونا نضع مثالا عمليا ... لنفترض أن زيدا يلعب "قَنَّة" العملة، وأنه رماها بإبهامه والتقطها وتبين أن العملة كان صورة (وليس كتابة).

الآن ... ظهور العملة صورة في تلك العملية تكون "صدفة"؛ ونعني هنا أن هناك احتمالان لوجه العملة: إما صورة أو كتابة. ويأتي هذا الوجه بشكل عشوائي ليس لزيد تحكم فيه، وبالتالي زيد لا يعرف ما سيكون وجه العملة بعد "قَنِّها". ونحن هنا استخدمنا كلمتي صدفة وعشوائية بشكل طبيعي وواضح.

ولكن ... لنفترض أن ملاكا متمكنا يرى زيدا يَقُنُّ العملة، وينتبه هذا الملاك لضغط الإبهام على العملة أثناء رميها، وينتبه الملاك لدرجة الحرارة والرطوبة وحركة الهواء (إلخ) في تلك اللحظة. وبالتالي فإن الملاك يعرف تماما وجه العملة قبل سقوطها، وبالتالي فإن "فن" العملة ليس نتاج الصدفة له، ولا هي نتيجة عشوائية.

ولكن هذا بالنسبة للملاك وليس بالنسبة لنا؛ إذ إننا (حتى اللحظة) لا نستطيع إدراك القيم اللحظية للمعطيات المحيطة بنا لتحديد النتيجة من "فنة" العملة، ولهذا فإنه حتى اللحظة فإن فنة العملة تأتي صدفة وضمن عملية عشوائية (بالنسبة لنا).

ولكن ... بغض النظر إن ظهر الشيء صدفة أو جاء نتيجة لعمليات عشوائية أو جاء لمنظومة واضحة أو جاء تعمدا فإنه في جميع الحالات فإن هذا الشيء قد ظهر بأمر الله. والهدف من الفقرات السابقة هو أن نقول إن مفهوم الصدفة والعشوائية ليس مفهوما مخالفا للعقيدة الإسلامية.

ولكن ... مفهوم الصدفة مهم في الإثباتات المتعلقة بوجود الخالق؛ فإذا ظهر (مثلا) أن نشأة النجوم من الغبار الكوني كانت عن طريق الصدفة فإننا (نحن المسلمين) نكون على ثقة أن هذه الصدفة قد جاءت بأمر الله وأنَّ الصدفة هنا تعني أن نشأة النجوم لم تتم بناء على منظومة محددة المعالم (بالنسبة لنا). ولكن إن استطعنا مثلا أن نقول عن أمر كوني أن احتمالية الصدفة في تنظيمه هي ضئيلة جدا جدا فإن هذا يكون دليلا على وجود قوة من خارج الكون هي التي قامت بالتنظيم، وهذا الذي وضعناه في الباب 2.1 وهو التوضيح أن احتمالية نشأة الكون بالصدفة هي ضئيلة جدا جدا.

وهنا سنضع أمرا آخر نرى أن احتمالية الصدفة في نشوئه هي ضئيلة جدا جدا، فالعلماء يقولون "إن الحياة قد نشأت صدفة"، ولا يوجد في العبارة السابقة أي مشكلة مع العقيدة الإسلامية؛ فإذا نشأت الحياة صدفة أو نشأت

تعمدا فإنها في كلتا الحالتين تكون قد نشأت بأمر الله، وبالتالي فنحن هنا لا نُناقش قول العلماء من أجل الدفاع عن المفاهيم الإسلامية، وإنما نقاشنا سيكون ضمن إطار منطقي بحت:

وجميع العمليات التي نراها في هذا الكون تنقسم إلى نوعين:

- عمليات تأتي نتيجة لتوافق وتضارب القوانين الكونية. فمثلا عملية سقوط الأمطار تأتي لتوافق وتضارب مجموعة من القوانين الكونية:
  - يتبخر الماء من البحار بسبب حرارة الشمس.
  - يتجمع البخار في السماء.
  - حرارة الشمس تؤدي كذلك إلى ظهور الضغط الجوي المرتفع في بعض المناطق والضغط المنخفض في المناطق الأخرى.
  - من الاختلافات في الضغط تظهر الرياح والتي تحمل بخار الماء معها.
  - وضمن ظروف من البرودة يتكثف بخار الماء ويسقط إلى الأرض على شكل أمطار.
- عمليات تأتي بسبب برامج عمل محددة وأنظمة تنفيذ. وبرنامج العمل هو عبارة عن تعليمات تكون على شكل: "افعل كذا" و"إذا حدث كذا فافعل كذا". وتكون هناك أجهزة تنتظر التعليمات من البرنامج وتقوم بتنفيذها. وهناك الكثير من البرامج ومنها: البرامج الكمبيوترية والبرامج الميكانيكية ومناهج وأنظمة العمل (Business Manuals) إلخ. وأحد البرامج الميكانيكية (مثلا) هو مُحَرِّك السيارة، ويقوم المحرك من خلال برنامج ميكانيكي بفتح صمامات محددة وإغلاق أخرى من أجل تكملة دورة المحرك، وهذه البرمجة تكون من خلال "حزام التوقيت" (Timing Belt).

الآن ... جميع عمليات البرمجة قد جاءت من الكائنات الحية؛ فالبرامج الكمبيوترية والإلكترونية والميكانيكية قد جاءت من الإنسان (وهو كائن حي)، وبرامج الصيد عند الكلاب الأفريقية قد جاءت من هذه الكلاب (وهم كائنات حية)، وبرامج العمل والتنظيم في بيت النمل قد جاءت من النمل (وهم كائنات حية). ولا يوجد في كل هذا الكون (ضمن نظرتنا إليه) أية برنامج عمل ليست من الكائنات الحية.

ولكن ... الكائنات الحية جميعها تقوم على برامج داخلية فيها، فالإنسان مثلا له عدة مستويات من البرمجة والتي تتم فيها الحياة: وفي المستوى الأساس هناك برمجة الـ د.ن.إي (الحمض النووي DNA) وهو الذي يقوم ببرمجة الحياة داخل الخلية الحية. وهناك البرمجة في المُخيخ والتي تقوم بتنظيم الأجهزة المختلفة داخل جسم الإنسان، وهناك البرمجة في الدماغ والتي يتم من خلالها التَّعرف على المحيط والتعامل معه.

وجميع الدَّواب والأسماك (التي تبيض والتي تلد) تمتلك الثلاث برمجيات السابقة، في حين أن البكتيريا والنباتات لا تملك سوى برمجة واحدة وهي الـ د.ن.إي.

ولهذا قلنا أن البرمجة الأساس هي الـ د.ن.إي، بل إن بداية البرمجة في المخيخ والدماغ تكون مبنية على الـ د.ن.إي، ولكن يُمكن للمخيخ والدماغ القيام بتطوير البرمجة فيهما حسب الظروف المحيطة.

الآن ... ما هو الـ د.ن.إي؟

الـ د.ن.إي عبارة عن مجموعة من الكروموسومات، وكل كروموسوم يحتوي على مجموعة من الجينات، وكل جين يحتوي على مجموعة من الخانات، وكل خانة تتكون من إحدى أربعة مُرَكَّبات كيميائية، وقد تم اختصار هذه المركبات بـ A، T، C، G،، وللتسهيل فسنجعل الأرقام: 1، 2، 3، 4 تمثل تلك المُرَكَّبات بالترتيب. وبالتالي عندما ننظر إلى خانات الكروموسوم فربما تكون مرتبة كالتالي: ...123432341232211 .

وللتشبيه فإن نظام التشغيل في الكمبيوتر (Windows) يتكون من عدة فولدرات (Folders)، وكل فولدر يتكون من عدة ملفات (Files)، وكل ملف يتكون من عدة خانات، وكل خانة تكون إما صفر أو 1.

وهذه الخانات في ملفات الويندوز (Windows) تضع مجموعة من التعليمات والتي يتم من خلالها تشغيل الكمبيوتر. وكذلك الحال في خانات الـ د.ن.إي؛ فهي تضع مجموعة من التعليمات والتي تتم الحياة من خلالها؛ فلا يوجد حياة من غير الـ د.ن.إي؛ فأي كائن حي (أي خلية وأي جرثومة وأي حياة) بحاجة لبرنامج يتم من خلاله أخذ الطاقة اللازمة من المحيط، وبرنامج آخر يتم من خلاله توزيع الطاقة، وبرنامج آخر يتم من خلاله التخلص من مخلفات الطاقة، وبرنامج آخر يتم من خلاله التكاثر، إلخ،، ومن غير هذه البرامج فلا يوجد حياة.

وعدد الخانات في الـ د.ن.إي عند الإنسان تبلغ حوالي 3 جيجا خانة (والجيجا تساوي ألف مليون)، وأما الكائن الحي الذي يملك أقل عددا من خانات الـ د.ن.إي فهو بكتيريا الرودي (Carsonella ruddii) والتي تحوى على 180 ألف خانة.

ولنفترض جدلا أن الحياة بحاجة إلى 10 ألاف خانة فقط (وهو عدد قليل غير منطقي على الإطلاق ولكننا وضعناه احتياطا)، فما هي احتمالية الصدفة في نشوء هذه الخانات؟

> وانتبه هنا ... الحياة بحاجة إلى الـ د.ن.إي وبحاجة كذلك لأجهزة التنفيذ، ولا يوجد حياة من غير الـ د.ن.إي، وكذلك لا يوجد حياة من غير أجهزة التنفيذ،، ولكننا نريد أن نعرف احتمالية الصدفة للبرمجة في الـ د.ن.إي لأن أمره أكثر وضوحا.

الآن ... العلماء يقولون إن الحياة قد ظهرت صدفة، وكلامهم مفهوم ولكن الأدق أن نقول (أولا) إن الحياة قد ظهرت فجأة؛ فالحياة نفسها لا تتطور وإنما الذي يتطَوَّر هو الكائنات الحية، وأما الحياة فهي إما أنها موجودة أو غير موجودة، فلا يوجد نصف حياة؛ وإنما حياة أو لا حياة.

وهنا نرجع إلى سؤالنا السابق ... على افتراض أن 10 آلاف خانة من الـ د.ن.إي كافية لوضع البرامج اللازمة للحياة، فما هي الاحتمالية لنشوء هذه البرمجة بالصدفة؟

بمعنى آخر أكثر وضوحا ... ما هي الاحتمالية لنشوء هذه البرامج اللازمة للحياة بالصدفة؟

والسؤال السابق يتشابه مع السؤال التالي: لنفترض أننا وضعنا عشرة قرود في غرفة تحوي عشر آلات كاتبة (Typewriters) فما هي احتمالية الصدفة في قيام القرود بوضع برنامج عمل يتكون من 10 آلاف حرف ويكون ناجحا وفعالا تماما في إدارة جزئية عمل في الشركة؟

وقد سهلنا الأمر في كتاب "أصل الإنسان" ووضعناه ضمن المسئلة التالية: لنفترض وجود خزنة (safe) رقمها السري يتكون من 100 خانة، وكل خانة لها 4 احتمالات (1,2,3,4) فما هي احتمالات الصدفة لتخمين الرقم السري الصحيح؟

وكان الجواب هو 6 ضرب 10 للقوة (ناقص 63) وهو عدد ضئيل جدا جدا جدا بالنسبة لرقم سري يتكون من 100 خانة فقط، وهو عدد أكبر بكثير من احتمالية الصدفة لنشوء برامج عمل صحيحة تتكون من 10 آلاف خانة.

وهنا نقول إن الاحتمالية نشوء "برمجة الحياة" بالصدفة هي ضئيلة جدا جدا إلى الدرجة التي لا يقتنع المؤلف أنها ممكنة، وبالتالي فإن برمجة الحياة (بالنسبة للمؤلف) لا يُمكن أن تكون قد جاءت صدفة وإنما قد جاءت من خارج الكون.

الملحق الثالث – الشُّبهات في الفيزياء الكمية

هناك من يستخدم ظواهر وقواعد الفيزياء الكمية (علم الكوانتم – Quantum mechanics/physics) لدحض وجود الخالق. والحقيقة فإن للفيزياء الكمية إنجازات ضخمة جدا ومع ذلك فهي لا تزال علما غامضا، وقد شرحنا هذا الموضوع بتفصيل في كتاب "الفيزياء الكمية ووجود الخالق"، وسنضع هنا الشبهات ذات العلاقة وسنناقشها باختصار.

1- هناك عشوائية حقيقية داخل الذرة، ولو كان هناك خالق للكون لما كانت هناك أي عشوائية، وبالتالي فليس هناك خالق للكون.

الجواب: لنفترض وجود العشوائية داخل الذرة، فكيف يكون هذا دليل على عدم وجود الخالق؟ فمثلا جميع الألعاب الكمبيوترية تحتوي على المُوَلِّدات العشوائية (Random Functions) وكثير من عمليات التشفير (Cryptographic) تتطلب المُوَلدات العشوائية، وهذا لا يعني أن هذه الألعاب والتشفير قد نشأت لوحدها بالصدفة، وإنما قد وضعها المُبَرْمِج،، وكذلك وجود العشوائية في الذرة فهذا لا يعني عدم وجود الخالق؛ وإنما إن ثبت وجود العشوائية في الذرة فهذا يعني أن الذي خلق المنظومات في الكون هو الذي خلق كذلك العشوائية في الذرة، وهو كذلك الذي وضع الحدود القيود والأنظمة حول عشوائية الذرة كي ينتج عنها هذا الكون شديد التنظيم.

2- مبدأ هايزنبرغ يُؤكد عدم اليقين، وهذا معناه أنه لا يمكن معرفة موقع الإلكترون وسرعته في الوقت نفسه. وإذا كان هناك خالق للكون فهذا معناه أن الخالق لا يستطيع معرفة موقع الإلكترون وسرعته في الوقت نفسه، وبالتالي فهذا الخالق لا يعلم كل شيء.

الجواب: إذا ثبت مبدأ هايزنبرغ بشكل قطعي فهو يكون أحد قوانين هذا الكون، وقوانين الكون لا تنطبق بالضرورة على ما هو خارج الكون.

3- هذا الكون منظم بدرجة عالية وبالتالي لا يوجد أي داعي لافتراض الخالق في إدارته.

الجواب: كون السَّاعة الدقيقة ذي البطارية طويلة العمر لا تحتاج إلى الصيانة فإن هذا لا يعني أنها قد نشأت وتنظمت وظهرت لوحدها، وإنما المؤكد وجود جهة صَنعتها، وكذلك الكون؛ فعدم ظهور الحاجة لديه لا يعني أنه قد نشأ لوحده بالصدفة.

4- ثبت أن المادة تظهر من العدم وتختفي إلى العدم، وهذا دليل أننا لسنا بحاجة لخالق كي ينشأ الكون.

الجواب: جُسَيْمات المادة (في علم الكوانتم) لا تَفنى ولا تُستحدث وإنما يُمكن أن تتحول إلى موجات كهرومغناطيسية أو تظهر من موجات كهرومغناطيسية. وأما الجُسَيْمات الافتراضية فهي (في علم الكوانتم) تظهر وتختفي في "اهتزازات الكوانتم"، وهذه الاهتزازات ليست هي العدم. ومن الممكن ضمن النظريات أن

يتم إنشاء المادة من الجُسَيمات الافتراضية ولكن هذا بحاجة لجاذبية هائلة (أي أن هذا الأمر بحاجة لمؤثر خارجي).

5- هناك عدد كبير جدا من "الأكوان المتعددة"، وأن محاسن الصدف أن كوننا هو الكون الذي ظهر أنه منظم من بين هذه الأكوان حولنا. وبالتالي فإن "التعيير الدقيق" (Fine-tuned Universe) ليس بسبب وجود الخالق وإنما بسبب التباين والاختلاف في "الأكوان المتعددة" حولنا.

وسنناقش هذا الادعاء بتفصيل في كتاب "الفيزياء الكمية ووجود الخالق"، وسنقوم هنا بوضع جواب مختصر:

لنفترض وجود عدد كبير جدا جدا من "الاكوان المتعددة" فإن الطرق الستة التي وضعناها في الملحق الأول (في إثبات أن الكون لا يمكنه أن يكون أزليا) يُمكن استخدامها كذلك في إثبات أن "الكون الثاني" لا يمكنه أن يكون أزليا. و"الكون الثاني" هو المجموعة التي تمثل الأكوان المتجاورة (والتي من بينها الكون الذي نعيش فيه). فقديما كان النقاش يدور حول الكون أنه أزلي وأن محاسن الصدف هي التي وضعت الحياة في كوكب الأرض في مجرة درب التبانة، ولكن ما أن ظهر أن الكون كله يقع ضمن "تعيير دقيق" حتى انتقل النقاش من كوننا إلى الأكوان المجاورة لنا،، وإذا افترضنا أن الأكوان المتعددة تزيد في العدد فهذا يعني أن الكون الثاني يتسع وهذا يتطلب أن يكون الكون الثاني كان صغيرا جدا في الماضي السحيق، وأما اذا افترضنا أن الكون الثاني متوازن فهذا معناه أن هناك علاقات وأنظمة تدير هذا الكون الثاني وبالتالي (حسب مبدأ الغزالي) فإن الكون الثاني لا يمكنه أن يكون منذ الأزل.

الملحق الرابع – القراءات المختلفة في القرآن ومصحف صنعاء

لقد تم وضع عدة شبهات فيما يتعلق بالقراءات القرآنية، والأولى قبل مناقشة هذه الشبهات أن نضع الحدود لهذه القراءات كما هي في واقعها.

وهناك عدة قراءات في القرآن، وقد صمد منها عبر الزمن إلى الآن عشر قراءات للقراء التاليين: عاصم الكوفي، ونافع المدني، وابن كثير المكي، وأبو العلاء البصري، وعبد الله الشامي، وحمزة الكوفي، وأبو الحسن الكوفي، وأبو جعفر المدني، ويعقوب البصري، وخلف بن هشام.

ونقول "صمدت" لأن هناك قراءات لم تنتشر، فمثلا هناك روايات متعددة ذكرها أبو بكر بن أبي داود في كتابه "المصاحف" أن عمر بن الخطاب في سورة الفاتحة كان يقرؤها: "غير المغضوب عليهم وغير الضالين"، وهذه القراءة لم تنتشر.

واشتهرت قراءتان في العالم الاسلامي: قراءة عاصم وهي المعتمدة في المشرق العربي، وقراءة نافع وهي المعتمدة في المغرب العربي.

وهناك اختلافات في جميع هذه القراءات، ونستطيع تصنيفها الى التالي:

1- رسم واحد يعبر عن كلمتين. ومثال ذلك في سورة الفاتحة: ملك يوم الدين، وتُنطق في قراءة: مَلِك، وفي قراءة أخرى: مالك. وكذلك في سورة البقرة (2:125): "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى"، وتُقرأ "اتخذوا" في عاصم بكسر الخاء (وبالتالي هي طلب)، وفي قراءة أخرى بفتح الخاء (وبالتالي هي خبر).
2- رسمتان لكلمتين مختلفتين. ومثال ذلك: في سورة الزخرف (جزء من 43:19): "وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا" وهذه قراءة عاصم، ولكن في قراءة نافع: "وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عند الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا".
3- زيادة أحرف في الكلمة. ومثال ذلك في سورة الكهف (جزء من 18.35) في قراءة عاصم: " وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا" وفي قراءة نافع: " وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا منهما مُنقَلَبًا".
4- كلمات زائدة. ومثال ذلك في سورة الحديد (57.24) في قراءة عاصم: "الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"، وفي قراءة نافع: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ".
5- الاختلاف في الشكل القواعدي. فمثلا في قراءة عاصم: "لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ" (البقرة 2:177)، وفي قراءة أخرى: "لَّيْسَ الْبِرُّ". والبر في الأولى "خبر ليس"، وفي الثانية "اسم ليس". وكذلك في قراءة عاصم: "قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" (البقرة 2:124)، وفي قراءة أخرى: "قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمونَ"، و"الظالمين" في الأولى مفعول به، وفي الثانية فاعل. والذي نقوله هنا

أن كلمة "البر" متفق عليها في جميع القراءات، ولكن هناك خلاف في شكلها القواعدي. وكذلك في "فاعل الظلم" في الآية الثانية فهو متفق فيه وإنما الخلاف في شكله القواعدي.

6- الاختلاف في عدد الآيات في القراءات المختلفة. فالجُمَل (جمع جملة) في القرآن هي نفسها في جميع المصاحف (مع الانتباه للاختلافات السابقة) ولكن تقسيم هذه الجمل إلى الآيات يختلف من مصحف إلى آخر، ومثال ذلك سورة البقرة في المصحف حسب قراءة عاصم: "الم (1) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2)"، وأما المصحف في قراءة نافع: الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (1)". وكذلك في سورة البقرة في عاصم: "وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201)، وأما في نافع فإن هذه الآية هي جزء من الآية السابقة لها. وكذلك فإن آية الكرسي فهي واحدة في عاصم، ولكنها في نافع آيتين. وبالتالي فإن عدد الآيات لسورة البقرة في مصحف عاصم هو 286، وفي نافع: 285. ولكن يجب الانتباه أن الاختلاف هنا هو في تقسيم الجُمَل وليس في زيادتها أو نقصانها.

وهناك عدة كتب قديمة تم وضعها لتبيان الاختلافات في القراءة للقرآن، وقد أورد ابن النديم (380 هـ) في فهرسه بعض هذه الكتب القديمة:

- "اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة" للكسائي.
- "اختلاف المصاحف" لخلف [بن هشام].
- "اختلاف المصاحف وجمع القرآن" للمدائني.
- "اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف" للفراء.
- "كتاب اختلاف المصاحف" لأبي بكر بن أبي داود السجستاني.
- "اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق" لابن عامر اليحصبي.
- "اختلاف المصاحف" لمحمد بن عبد الرحمن الأصفهاني.

ولم يصمد عبر الزمن إلا كتاب أبي بكر بن أبي داود السجستاني، ونتمنى أن لا تكون الكتب السابقة قد ضاعت نهائيا.

ولنبدأ المناقشة هنا بشرح موضوع الخلاف في عدد الآيات. ولنأخذ أقدم الصفحات المكتشفة للقرآن وهي نسخة بيرمنجهام (شكل 4.1م)، وتعود هذه النسخة لأول العهد الأموي، وهي في عمومها مطابقة للرسم الحالي للقرآن، ولكن هناك خلافات في تقسيم الجمل إلى الآيات، فسورة طه في المصحف الحديث: "طه (1) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى" (2). وأما في نسخة بيرمنجهام: "طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى". وانتبه أن الطريقة في تقسيم الآيات في نسخة بيرمنجهام هي بوضع النقاط الثلاثة، وهذا غير مستغرب فرموز الأعداد لم تظهر في العالم الاسلامي إلا في منتصف العهد الأموي. وقد ذكر أبو بكر بن أبي داود (حوالي 250هـ) في كتابه "المصاحف" هذا الموضوع في الباب: "النقط الثلاث عند رؤوس الآي" وقد بيَّن أبو بكر وجود خلاف عند العلماء في موضوع النقط الثلاث (وفي موضوع التنقيط وإشارات الحركة عموما) في القرآن، وهناك بعض العلماء الذين لم يُعجبهم وضع هذه النقاط في القرآن.

والذي نستطيع استنتاجه هنا أن تقسيم الجمل إلى آيات فيه بعض الاجتهاد من القُراء وليس بالضرورة أن يكون كُلُّه توقيفيا من الرسول عليه السلام؛ وذلك لأن المصاحف الأولى لم يكن فيها أي اشارة على رؤوس الآيات، وهذا قد يفسر الاختلاف في عدد الآيات من قراءة إلى أخرى.

وبالنسبة للخلافات الأخرى فسنقوم بتحليلها أولا من خلال النظرة العلمية البحتة (ولا يحق في النظرات العلمية أن يكون فيها مُدخلات غيبية)، ومن ثم سنقوم بإدخال النتائج العلمية إلى البحث الغيبي.

ولنضع المقياس التالي:

لنفترض أن هناك الروايات التالية لنص (والأحرف هنا ترمز للكلمات):

1. أ ب ج د ه و.
2. أ ب م د ه و.
3. أ ب ط د ه و.

فهذا النص له ثلاث روايات ولكن هناك نقطة خلافية واحدة في هذه الروايات الثلاثة: وهي الكلمة الثالثة في النص، ولهذه النقطة الخلافية ثلاثة خيارات: ج، م، ط. ونحن هنا قد فرَّقنا بين عدد الروايات المختلفة وبين نقاط الاختلاف. والهدف من إحصاء الخلاف بهذا الأسلوب هو تحديد نسبة الكلمات المتفق عليها والتي لا يوجد فيها خلاف، وبالتالي يوجد في الروايات الثلاثة في المثال السابق خمس كلمات ثابتات وكلمة واحدة خلافية.

شكل 4.1م: مصحف بيرمنجهام، المرجع: Wiki– Birmingham

ومن مراجعة كتاب أبي بكر فإننا نستطيع (وبطريقة سريعة في الإحصاء) القول إن هناك 1000 نقطة خلافية فيما يتعلق بقراءة القرآن. ولنضرب هذا العدد باثنين احتياطا (حيث إن طريقة الحساب كانت سريعة ومختصرة، وتاركين تحديد العدد الصحيح للمختصين) وبالتالي نقول بوجود 2000 نقطة خلافية. وبالتالي فإن 2000 نقطة خلافية هو إحصاء احتياطي أعلى بكثير مما هو موجود في كتاب أبي بكر.

وعدد الكلمات في القرآن هو 77,437 كلمة. وبالتالي فإن نسبة الاختلاف للمجموع العام هو 2.6%، وسنقربها إلى 3%، وبالتالي يوجد 97% (على الأقل) من كلمات القرآن والتي لا خلاف فيها في القراءات المختلفة.

ولنتحقق من دقة العدد السابق وذلك من خلال النظر لنسخة بيرمنجهام ونسخة صنعاء. ونسخة بيرمنجهام هي أقدم نسخة تم اكتشافها حتى الآن للقرآن، وهي عبارة عن رقّيْن من الجلد مكتوب عليها من الجهتين، وبالتالي يوجد فيها أربع صفحات، وتتضمن أجزاء من سورة الكهف ومريم وطه. وهذه الصفحات تكاد توافق تماما مع رسم المصاحف الموجودة حاليا.

وأما نسخة صنعاء فهي ملفوفات (folios) كُتب عليها القرآن. وقد تم تحديد الملفوفة نفسها (وهي من الجلد) بأنها كانت بين حوالي عام 44 قبل الهجرة إلى 49 بعد الهجرة. ويَدل وجود النقاط في تمييز بعض الأحرف أن الكتابات في هذه الملفوفات كانت في بداية العهد الأموي.

والأمر المثير في نسخة صنعاء أنها تحمل كِتابتَيْن: الأولى قديمة (وتم تسميتها بـ النسخة السفلية) وقد تم محيها ثم جاءت الكتابة الثانية فوقها (وتم تسميتها بـ النسخة العُلوية). وهنا يجب التنبيه أن أوراق الكتابة (من جلود وخشب إلخ) كانت مرتفعة الثمن ذلك الوقت، ولهذا كانت الأولوية في عدم إتلافها وإنما معالجتها ثم الكتابة عليها مرة أخرى. والكتابتان تعودان للعهد الأموي الأول وذلك لوجود بعض النقاط فوق الأحرف ورؤوس الآيات، ولكن ليست كل الأحرف بنقاط، وإنما بعضها، وهذا يدل أن هذه الكتابات كانت على الأغلب في أول العهد الأموي.

الآن ... نحن لا نعلم من كَتَبَ نسخة بيرمنجهام، ولا نعلم من كَتَبَ النسخة السفلية والعلوية من مصحف صنعاء، ولكنَّ نسخة بيرمنجهام متوافقة مع القراءات المعروفة، وكذلك النسخة العلوية لنسخة صنعاء فهي متوافقة مع القراءات المعروفة، وكلاهما مكتوبتان بشكل منظم وجميل، وبالتالي فإننا نستطيع القول إن ناسخيهما كانا دقيقين ومجتهدين في النسخ.

وأما النسخة السفلية فهي غير منظمة وتدل أن ناسخها لم يكن محترفا في الكتابة. وكثير من نقاط الاختلاف في النسخة السفلية متوافقة مع القراءات المعروفة ولكن بعضها جديد. وسنعتمد هنا على دراسة بهنام صادقي -- (Behnam Sadeghi) ومحسن جودارزي (Mohsen Goudarzi) – (المرجع: Sadeghi)، واللذان درسا النسختين السفلية والعلوية ووضعا نقاط الاختلاف، وكذلك فقد قاما بتحديد المواضيع التي تتوافق فيها النسخة السفلية مع القراءات المعروفة. ومعظم الدراسات في هذا الموضوع تعتمد على نتائجهما.

وعند النظر في دراسة صادقي يتبين وجود 39 ملفوفة (folios) مكتوب عليها من الجهتين (الأمامية والخلفية) وبالتالي يوجد عندنا 78 صفحة. وفيها 22 صفحة مقروءة بشكل كامل للكتابة السفلية (وذلك باستخدام طرق

تكنولوجية متقدمة)، و14 صفحة مقروءة بحوالي 75%، و11 بحوالي 50%، و4 بحوالي 33%، و10 بحوالي 25%، و4 بحوالي 10%، وتبقى 13 صفحة في الملفوفات غير مقروءة على الإطلاق. ونستطيع هنا القول إن المعدل لعدد الصفحات لما قد تم قراءته هو 42.22 صفحة.

وكما ذكرنا سابق فإن النسخة السفلية لم تكن منظمة بشكل جيد، فعدد السطور غير ثابت في الصفحات، وإذا نظرنا إلى الـ 22 صفحة كاملة فإن عدد السطور يتراوح بين 23 إلى 35 سطرا وبمعدل 27 سطرا للصفحة الواحدة. وإذا افترضنا أن عدد الكلمات في كل سطر هو حوالي 9 كلمات (ومثال ذلك شكل 4.2م) فإن نستطيع القول إن عدد الكلمات في الملفوفات السابقة (للصفحات المقروءة) هو حوالي: 42.22 * 27 * 9 ويساوي 10259 كلمة.

وقد قام صادقي وصاحبه بتحديد مواضع الخلاف بين الكتابة السفلية والمصحف المشهور (قراءة عاصم) وتبين أن الاختلاف يقع في 60 موضعا. وفي العموم فإن كل موضع يتعلق بنقطة خلاف واحدة، وفي بعض الأحيان يتعلق بنقطتين خلافيتين (مثلا: وجود كلمتين خلافيتين بدلا من كلمة واحدة)، وفي أحيان قليلة فإن بعض المواضع تتعلق بثلاث نقاط خلافية. وللاحتياط فسأضع ثلاث نقاط خلافية لكل موضع قاما بتحديده، وبالتالي يكون عندنا 180 نقطة خلافية.

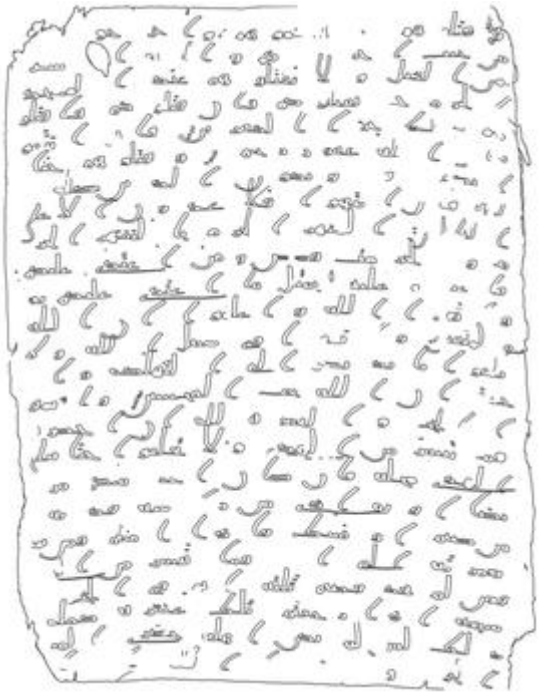

شكل 4.2م: نسخة سفلية من مصحف صنعاء (المرجع: Wiki– LowerText).

ولتحديد نسبة الخلاف بين الكتابة السفلية وقراءة عاصم (بناء على البيانات السابقة) فإنها تكون 180 تقسيم 10259 وتساوي 1.75%. والنسبة الحقيقية أقل من ذلك بكثير جدا لأننا بالغنا في الاحتياط، وسنترك تحديد النسبة الحقيقية للمختصين.

وهذه النسبة هي أقل من النسبة التي وضعناها لنقاط الاختلاف في كتاب أبي بكر.

وهنا يجب التنبيه أننا وجدنا قائمة بنقاط الاختلاف بين الكتابة السفلية وقراءة عاصم في الويكيبيديا (المرجع: Wiki-SanaaM) وتبين أنها حوالي 108 نقطة خلافية، وقد ادعى كاتبها (وهو مجهول) أن هذه القائمة مأخوذة من دراسة صادقي، ولكن عند مراجعة دراسة صادقي تبين أن القائمتين مختلفتين فهناك نقاط موجودة في الويكيبيديا غير موجودة في صادقي والعكس صحيح. وهذا ما جعلنا نبالغ هنا في الاحتياط ونضع نقاط الخلاف في صادقي بـ 180 نقطة.

وبالنسبة للكتابة العلوية فيوجد بينها وبين قراءة عاصم 60 نقطة خلافية، 48 منها متوافقة مع القراءات الأخرى، و12 نقطة جديدة. ويجب التنبيه أننا قد جعلنا قراءة عاصم هي القراءة المرجعية وليس لأنها الأفضل وإنما لأنها الأكثر انتشارا.

الآن .... نقاط الاختلاف بين قراءة عاصم والقراءات الأخرى (نافع وابن كثير إلخ)، وكذلك نقاط الاختلاف بين قراءة عاصم وبين النسخة السفلية والعلوية في مصحف صنعاء هي نقاط متوافقة وليست متناقضة، أي أن المعاني التي نأخذها من الآيات ضمن هذه القراءات هي معان متوافقة وليست متناقضة. وقد تضع القراءات المختلفة معان أخرى جديدة ولكنها ليست متناقضة مع المعاني التي نستنتجها من القراءات الأخرى.

فمثلا: في قراءة عاصم (جزء من الزخرف 43:19) "وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا"، وفي قراءة نافع: "وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عند الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا". والمعاني هنا متوافقة وليست متناقضة.

وكذلك في قراءة عاصم في آية الوضوء: (جزء من 5.6 المائدة): " وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ" (بفتح اللَّام) وهنا تم عطف القدمين على غسل اليدين، وفي قراءة أخرى: وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ" (بجر اللَّام) وهنا تم عطف القدمين مع مسح الرأس. فهل يوجد هنا تناقض؟

والجواب: لا تناقض ... فهاتان القراءتان قد وضعتا لنا خيارين: إما غسل القدمين إلى الكعبين وإما مسحهما إلى الكعبين، وفي الحالتين فإن الغسل أو المسح هو ركن من أركان الوضوء.

وهذه هي النقطة هنا ... نقاط الاختلاف بين القراءات لا تضع معان متناقضة وإنما تضع معان متوافقة.

ولنضع المقارنة مع الكتب القديمة الأخرى:
فقد تم اكتشاف حوالي 5000 نسخة من الأناجيل المسيحية القديمة (متَّى ومرقص ولوقا ويوحنا والكتب المسيحية المقدسة الأخرى) ونقاط الاختلاف في هذه النسخ تزيد عن 400 ألف نقطة خلافية وبالتالي فإن نقاط الاختلاف بين هذه النسخ يزيد بكثير عن عدد الكلمات في الأناجيل والتي تقدر بـ 130 ألف كلمة (المرجع: Daniel Wallace).

والمعظم الأعظم في هذه الاختلافات متوافقة (كلمات مختلفة بمعاني متوافقة، أو أخطاء النسخ، إلخ)، ولكن توجد نسبة قليلة من هذه النقاط تضع معان متناقضة أو زيادات جوهرية. ونحن هنا لا نتحدث عن التناقضات بين الأناجيل المختلفة (أي أننا لا نتحدث مثلا عن الاختلافات بين إنجيل متَّى ويوحنا) وإنما نتحدث عن نقاط الاختلاف في النسخ الموجودة للإنجيل الواحد (مثلا الاختلافات في النسخ الموجودة لإنجيل متَّى). فمثلا: القصة

المشهورة للمسيح عندما قاموا بتحكيمه في امرأة قد زنت، وأجابهم: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها أولا بحجر (8.7 يوحنا)، فإن هذه القصة غير موجودة في النسخ المتوفرة من القرن الثالث الميلادي، وإنما بدأت هذه القصة بالظهور لأول مرة في النسخ المتوفرة من القرن الرابع الميلادي (المرجع: Keith).

وهنا نرجع إلى الموضوع في هذا الملحق: من النظرة العلمية البحتة فإنه توجد نقاط اختلاف بين القراءات المختلفة بنسبة تقل كثيرا عن 3%، وهذه النقاط ليست متناقضة وإنما متوافقة في المعاني. وهذا يدل (من النظرة العلمية البحتة) أن 100% من معاني القرآن قد وصلنا من محمد، و97% (على الأقل) من الألفاظ في القرآن قد جاءنا من خلال محمد نفسه.

والسؤال (ضمن النظرة العلمية البحتة): هل تسمح لنا هذه النسبة من الحفظ (97%) أن نقول إن القرآن قد تم حفظه عبر الأجيال اللاحقة؟

والجواب هو نعم، فضمن المقارنة للكتب الأدبية والقانونية والتاريخية والتي قد تم نسخها يدويا وبشكل متواصل عبر الأجيال المختلفة منذ أكثر من 1500 سنة (بما فيها التوراة والأناجيل) فإنها تحوي نسبة نقاط اختلاف أكبر مما سبق. وحيث إنَّ نقاط الاختلاف في القرآن هي أقل من 3%، وهي نقاط متوافقة وليست متناقضة ولا تضع زيادات جوهرية، وحيث إنَّ نسبة التوافق في اللفظ والنطق تزيد عن 97% فإن هذا الأمر هو فريد لكتاب قد تم نسخه يدويا وبشكل متواصل عبر الأجيال. ولهذا قلنا في الفصل الثاني أن المصاحف في العالم الإسلامي متطابقة: فتوافق المعاني في القرآن، وتطابق 97% (على الأقل) من ألفاظه في المصاحف يسمح لنا بهذا القول.

وأما السبب في وجود الـ 3% فإننا نستطيع تخمينه (من خلال النظرة العلمية البحتة) إلى الأسباب التالية:

- خطأ في النسخ أو الذاكرة.
- أن يكون الرسول قد قرأ النص بعدة قراءات للآخرين.
- أن يكون القُرَّاء المختلفي الألسن من العرب قد سمَّعوا قراءتهم للرسول، وقد رضي الرسول بها.

وبالتالي فنسبة الخطأ في 3% تقل إلى الثُّلث في هذا التحليل.

وما سبق كان بحثا من خلال "النظرة العلمية البحتة"، وسندخل الآن إلى البحث الغيبي في هذا الموضوع:
روى البخاري (وغيره) عن عمر بن الخطاب: "سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ ، فَلَبَبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَقُلْتُ : مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ ؟ قَالَ : أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : كَذَبْتَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَرْسِلْهُ ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ ، ثُمَّ قَالَ : اقْرَأْ يَا عُمَرُ ، فَقَرَأْتُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ".

وهذا الحديث صحيح ولكنه غير متواتر. والأحاديث غير المتواترة تحمل هامشا من الخطأ المحتمل بسبب أنها قد تم نقلها من آحاد إلى آحاد حتى توثقت في الكتب، وهذا الهامش يكون قليلا إذا كان هؤلاء الآحاد ذوي عدل وحفظ وثقة، ولكن يبقى هناك هذا الهامش من الخطأ، وبالتالي فإن خبر الآحاد لا يكون حجة قطعية في الأبحاث التي تتطلب التواتر، ولكنها تكون تفسيرا مقبولا للنصوص المتواترة. وهناك نصوص قرآنية ذات علاقة بالموضوع المطروح:

قوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (الحجر 15:9).

وقوله تعالى: "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (القيامة 75:19)

ويوجد في النص الأول تَعَهُّد بحفظ القرآن، ويوجد في النص الثاني تَعَهُّد بجمع القرآن وتحديد قراءته ("قرآنه") وتفسير معانيه ("بيانه"). ومع أن المفسرين (الطبري والقرطبي وغيرهما) قد خصصوا آيات القيامة للرسول، فقال الطبري: "إن علينا جمع هذا القرآن في صدرك يا محمد حتى نثبته فيه ... وقرآنه حتى تقرأه بعد أن جمعناه في صدرك"، إلا أنه لا يوجد في الآيات ما يدل أنها تتعلق بالرسول وحده على وجه الخصوص، وإنما هي آيات عامة تتعلق بجمع القرآن وقراءته وتبيانه.

ونستطيع هنا الاستشهاد بحديث البخاري للتوفيق بين هذا التعهد في الجمع والحفظ وبين نقاط الاختلاف الظاهرة في القراءات المختلفة.

ولكن لننظر إلى المناقشة التالية:
لا تقع آية "إنا له لحافظون" ضمن المواضيع التشريعية وإنما هو إخبار، وبالتالي فإن تفسيرها لا يخضع للأسلوب القانوني، وإنما للأسلوب الوصفي والأدبي في التفسير. وفي الأسلوب الأدبي فإنه من الممكن الحديث عن الكل ويكون المقصود هو الجزء، ويُمكن الحديث عن الجزء ويكون المقصود هو الكل. فمثلا: عبارة "كل شيء" لا تعني بالضرورة "كل الأشياء" بالحرفية، وإنما قد تعني في اللغة الأدبية "الكثرة"؛ فالآية: "إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ" (النمل 27:23) لا يُقصد فيها بالضرورة التَّمام وإنما يُقصد فيها الكثرة.

وقد ثبت عن ابن مسعود أنه كان يُجيز تلاوة القرآن بالمعنى، ففي رواية ثبت سندها أنَّ " ابن مسعود أقرأ رجلاً: "إن شجرة الزقوم طعام الأثيم" فقال الرجل : "طعام اليتيم" ، فرددها عليه ، فلم يستقم بها لسانه ، فقال: أتستطيع أن تقول : طعام الفاجر؟ قال : نعم ، قال: فافعل". وكذلك ذكر الطبري في تفسيره للآية 4:162 في النساء: "حدثنا ابن حميد قال، حدثنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أنه سأل عائشة عن قوله: "والمقيمين الصلاة"، وعن قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ [سورة المائدة: 5:69]، وعن قوله: إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ [سورة طه: 20:63]، فقالت: يا ابن أختي، هذا عمل الكاتب أخطئوا في الكتاب".

وبالتالي ربما يكون الوصف في آية الحجر (وإنَّا له لحافظون) أنها تعني المعظم ولا تعني بالضرورة تمام الكل. وهذا قد يؤيده وجود هذه النسبة والتي لا تزيد عن 3% من نقاط الاختلاف.

ولا أجد مشكلة كبيرة في هذه المناقشة، فالنص المروي عن ابن مسعود صحيح السند. ولكن هذا الرأي لابن مسعود هو رأي مخالف لغالبية الصحابة والتابعين، وبالتالي نستطيع أن نقول إنه رأي استثنائي. وبالنسبة للرواية عن عائشة، فإن الطبري ثقة ولكن لم يتم التحقق من صحة السند في الرواية، ولكن دعونا نفترض صحته، فإن هذا يكون رأيا خاصا لأم المؤمنين عائشة وليس بالضرورة أن يكون صحيحا. ونستطيع هنا التدليل على عدم الصحة في هذا الرأي: فالآية 4:162 في سورة النساء "وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ" فإن "المقيمين" قد تم نصبها على المدح، وكذلك الآية 5:69 في المائدة "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ" فإنَّ "الصابئون" قد تم رفعها على المدح. والنصب والرفع على المدح هو أحد الأمور التي أثبتها سيباويه في كتابه. وأما الآية 20:63 في طه "إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ" ف "إنْ" هنا هي إن المخففة التوكيدية والتي لا عمل لها، ويتم تمييزها عن "إنْ" النافية بوجود "لام المزحلقة" في الخبر (لساحران). وبالتالي ربما يثبت الرأي السابق عن السيدة عائشة ولكن ليس بالضرورة أن يكون هذا الرأي صحيحا.

الآن ... إذا كانت الآية في الحجر: "ونحن له حافظون" فإن معناها ربما يكون للتمام أو الكثرة، ولكن الآية جاءت "وإنَّا له لحافظون" وهذه الصيغة للتأكيد، وبالتالي فإن معنى التمام له الأولوية هنا على الكثرة. ووجود آية أخرى بصيغة التأكيد "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ" (القيامة 75.17) فإن الرأي الغالب هو أنَّ المعنى "للتمام" وليس الكثرة.

على أية حال، فإن الهدف من هذا الملحق هو الرد على المستشرقين والمشككين. وإذا أخذنا النظرة العلمية البحتة فإن 100% من معاني القرآن قد جاءنا من محمد، ومنها 97% (على الأقل) من الألفاظ قد جاءنا من خلال محمد نفسه، وأما الـ 3% (على الأكثر) من نقاط الاختلاف فإنه لا يوجد فيها تناقض وإنما هي نقاط متوافقة، وبالتالي نستطيع أن نقول (ضمن النظرة العلمية البحتة) إن القرآن قد تم حفظه وهو أمر فريد مقارنة مع الكتب الأخرى التي تناقلتها الأجيال عبر الزمن.

الملحق الخامس – منهجية التحليل للأحاديث النبوية

كثير من المستشرقين والمشككين من يلجأ لبعض كتب الحديث (ككتاب الهندي أو الطبراني) ويختار أحاديث فيها ثم يسخر قائلا: أنظروا ماذا يقول محمد! ولهذا فإنه من المفيد النظر في المنهجية المتعلقة بتحليل الأحاديث التي يتم نسبتها إلى الرسول عليه السلام. وقد شرحنا هذا الموضوع بتفصيل في كتاب "تحليل الأدلة والقرائن" وسنشرحه هنا بطريقة مختلفة.

وهناك تحليلان لأي رواية: تحليل السند وتحليل المتن. والسند هو سلسلة الرواة الذين نقلوا الرواية (الخبر، الحديث) من الحادثة وحتى تم توثيقها في الكتب المعتمدة. وأما تحليل المتن فهو يتعلق بموضوع الرواية.

وفي تحليل السند فإننا ننظر إلى الرواة ونحدد حالتهم من حيث العدالة والثقة وقوة الذاكرة. وقد قام علماء الحديث بتفصيل حالات الرواة إلى: ثقة حافظ ثبت حجة، ثقة حافظ ثبت، ثقة ثبت، ثقة، ثقة حافظ لكنه تغير قبل موته، ثقة حافظ لكنه يُرسل ويدلس، صدوق حسن الحديث، صدوق، مأمون، لا بأس به، مقبول، سيء الحفظ، ضعيف، متروك، مجهول. والأحاديث الصحيحة هي بين الثقة وفوقها، والأحاديث الحسنة هي بين الثقة إلى المقبول، والأحاديث الضعيفة هي ما أقل من المقبول.

وأما في تحليل المتن فإننا ننظر إلى المعنى المفهوم في الرواية، وننظر كذلك إلى الروايات الأخرى ذات العلاقة؛ حيث إن الإسلام يُفهم من خلال مجموع الروايات وليس بالضرورة من خلال رواية واحدة مفردة. وكذلك ننظر في تحليل المتن إلى التناقض أو التعارض بين الروايات المختلفة "إن وجدت" (وقد شرحنا في 1.6 الفرق بين التناقض والتعارض). وإذا ظهر لنا التناقض بين رواية ثقة وبين روايات أخرى ثقة فإننا لا نقوم فورا برد الرواية (أي عدم اعتمادها)، وإنما نبذل الجهد في محاولة التوفيق، وإذا لم نستطع التوفيق فعندها (وفقط عندها) نقوم برد الرواية.

وأول شيء يجب النظر فيه عند تحليل الحديث هو "تحليل السند"، والأحاديث التي يتم اعتمادها في تحليل السند فإننا ننقلها إلى تحليل المتن. وأما الأحاديث التي لا يتم اعتمادها في تحليل السند فإنها تسقط من الاعتبار. ولهذا السبب فإن هناك بعض الأحاديث التي هي مقبولة سندا ولكنها مردودة مَتْنًا.

وفي تحليل السند فإنه يجب أن ننتبه إلى الراوي والمحقق والجامع:

والراوي هو أحد الأشخاص في سلسلة نقل الرواية. وهناك قول إن الأحاديث لم يتم كتابتها إلا بعد 200 سنة من وفاة الرسول، ولكن هذا غير دقيق، حيث إن الأحاديث قد بُدئ في كتابتها منذ عهد الرسول عليه السلام، وقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص أحد الناس الذين كانوا يكتبون الأحاديث. ولكن هذه الكتابات لم تكن بهدف النشر والتوزيع وإنما كانت كتابات شخصية (Private Notes) بهدف الحيطة من النسيان، وهناك الكثير الذين كانوا يكتبون ما يسمعون من الأحاديث ولكنها كانت كلها كتابات شخصية.

وأما المحقق فهو شخص ثقة قد أخذ على عاتقه توثيق الأحاديث المروية عن الثقات في كتاب تم وضعه للنشر والتوزيع. والمحققون "المشهورون" هم سبعة ضمن ثلاث مجموعات: اثنين وأربعة وواحد. وأما الاثنان فَهُما

البخاري ومسلم، والأربعة هم الترمذي والنَّسائي وأبو داوود وابن ماجه، وأما الواحد فهو أحمد بن حنبل. وأحمد ابن حنبل كان أول المحققين وقد كان القدوة في هذا العمل، ولكن المعايير في التوثيق لم تكن واضحة تماما في عهده. وأما الأكثر حزما في المعايير فقد كانا الاثنين، وأما الأربعة فكانوا أقل حزما فيها.

وهنا يجب التنبيه أن هؤلاء المحققين لم يكونوا يهتمون بتحليل المتن، ولم يكن هذا هدفهم، وإنما كان الهدف هو توثيق الروايات من الثقات. وأما تحليل المتن فهو عمل الفقهاء وليس المحدثين. وهذه نقطة مهمة: المحققون لم يهتموا بتحليل المتن للأحاديث التي جمعوها ولم يكن هذا عمل لهم.

وكذلك لم يقم المحققون بتمييز الإرسال والإدلاس في الرواة، ولم يكن موضوع الإرسال والإدلاس موضوعا مهما وقت هؤلاء المحققين وإنما أصبح هذا الموضوع مهما جدا بَعْدَهُم وأخذ موقعا واضحا في كتابات علماء الجرح والتعديل لاحقا. وبالتالي فإن معظم الرواة في صحيحي البخاري ومسلم هم ثقات، ولكنَّ بعضهم موصوفون بالإرسال والإدلاس، وهاتان صفتان لا تجرحا الراوي ولكن قد تجرحا الرواية. وبالتالي فإنه من الممكن رد رواية البخاري بسبب سلسلة من الرواة في السند الموصوفين بالإرسال والإدلاس.

والإرسال: هو أن يُروى الحديث من غير تحديد الراوي. وبالتالي يكون هناك انقطاع في سلسلة الرواة. فمثلا: إذا كانت هناك رواية من أ عن ب عن ج عن د عن حادثة شَهِدَها د. وجاءتنا الرواية كالتالي: من أ عن ب عن د، فإن هناك انقطاعا في الرواية بين "ب" و"د". ونستطيع تحديد هذا الانقطاع إذا وجدنا (مثلا) أن ب لم يُقابل د أو لم يكن في زمنه.

وأما الإدلاس فإن هذه الكلمة خاطئة من حيث البناء اللغوي، ولكنَّنا اخترناها عوضا عن الكلمة المعتمدة في علم الحديث والتي هي "التدليس"، حيث إن المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة يخالف تماما معناها اللغوي. والتدليس اصطلاحا لا يجرح الراوي، ومن الممكن أن يكون الراوي ثقة وفي نفس الوقت موصوفا بالتدليس، في حين أن المعنى اللغوي لكلمة "تدليس" فيها إيحاء بالسوء. ولهذا السبب اخترنا كلمة "إدلاس" للتعبير عن المعنى الاصطلاحي لـ "تدليس".

والإدلاس يتعلق بطبيعة مقبولة عند العرب الأقدمين ولكنها غير مقبولة عند المُحققين، وهي العبارات الاعتراضية في جلسات السرد والإرشاد والتدريس؛ إذ كان من الطبيعي في سرد القصص ورود العبارات الاعتراضية (وهذا ضمن طبيعة العرب في سرد القصص). وكان يُنتبه لهذه العبارات الاعتراضية من خلال السياق. ولكن مع دخول الكثير من الناس غير العرب إلى الإسلام (وكذلك ظهور الأجيال الجديدة من أبناء العرب الذين لم يذهبوا في مهدهم وطفولتهم إلى البادية ليتعلموا اللغة فطرة) فإن الكثيرين لم يكونوا يمتلكون مهارة التمييز للعبارات الاعتراضية. وهنا جاء انتباه المحققين لهذا الأمر، فقاموا بتمييز الرواة الذين كانوا يذكرون الأحاديث الشريفة ضمن سردهم للقصص دون الانتباه لأثر العبارات الاعتراضية .

ولوضع المثال لما سبق فانظر إلى شروحات الشيخ متولي الشعراوي؛ فستجده يقرأ الآية (أو يذكر الحديث)، ثم يتوقف ويشرح (دون أن يقوم بالفصل بين الآية والحديث والشرح)، ثم يعود للآية والحديث

وهكذا. ونحن على قدرة عالية لتمييز الآيات والأحاديث عن العبارات الاعتراضية؛ وذلك لأن اللغة التي يستخدمها الشعراوي في قراءة الآيات وذكر الأحاديث تكون الفصحى، وأما في الشَّرح فتكون باللهجة العامية. وبالتالي لا توجد أي مشكلة في تمييز الآيات والأحاديث عن الشرح في دروس متولي الشعراوي. ولكن هذه الطبيعة التي يستخدمها الشعراوي هي نفسها الطبيعة التي كانت عند بعض التابعين (وتابعيهم) في السرد والتدريس، ولغتهم كانت الفصحى، وبالتالي نستطيع أن نستنتج أن الجمهور قد لا يُمَيِّز بين الأحاديث والشرح.

وهناك بعض الرواة الثقات المشهورين الذين تم وصفهم في علم الجرح والتعديل بالإدلاس ومنهم سفيان الثوري، والأعمش، والحسن البصري. وهنا يجب التذكير مرة أخرى أنَّ الإدلاس لا يجرح الراوي ولكن قد يجرح الرواية.

وكذلك قد تم وصف أبي هريرة بالإرسال والإدلاس: فهناك رواية في صحيح مسلم عن أبي بكر المخزومي ومختصرها أن أبا هريرة قد روى حديثا عن الرسول وتبين لاحقا أن الحديث غير صحيح، وهنا قال أبو هريرة: "سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْ الْفَضْلِ وَلَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ النَّبِيِّ". ولا نظن أن الفضل بن عباس قد كذب، وإنما على غلبة الظن أنَّ أبا هريرة قد أساء الفهم من الفضل، فربما كان الفضل يتحدث عن وجهة نظره الخاصة في الأمر وظن أبو هريرة أن الفضل كان ينقل حديثا عن الرسول.

وأما الإدلاس في أبي هريرة فقد روى ابن كثير في البداية والنهاية (الجزء الثامن) عن الإمام مسلم في سند إلى بشر بن سعيد أنه قال: "اتقوا الله وتحفظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثنا عن كعب الأحبار ثم يقوم فأسمع بعض ما كان معنا يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب، وحديث كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي رواية يجعل ما قاله كعب عن رسول الله، وما قاله رسول الله عن كعب، فاتقوا الله وتحفظوا في الحديث". وكما ذكرنا فإن الإرسال والإدلاس لا يجرحا الراوي وإنما قد يجرحا الرواية.

الآن ... إذا ظهر وجود التناقض (وهو اختلاف صريح) بين حديث ثابت الصحة دون شك في السند وبين نصوص ووقائع صحيحة ثابتة فإننا (كما ذكرنا سابقا) لا نرد الحديث مباشرة ولكن علينا أولا أن نجتهد في محاولة التوفيق، وإذا لم نستطع فعندها (وفقط عندها) نقوم برد الحديث (أي أننا نعتبر أن الحديث لم يروه الرسول وإنما جاءنا بالخطأ من أحد الرواة).

ومن الممكن أن نجد التعارض بين الحديث الصحيح وبين نصوص ووقائع أخرى ثابتة, والتعارض هنا (كما شرحناه في 1.6) هو الاختلاف الظني والذي ربما يكون بسبب الأفهام. وإذا ظهر هذا التعارض فإنه ليس كافيا وحده لرد الحديث (لأنه ربما يكون فهمنا غير صحيح)، وعندها يجب التعمق في تحليل السند. وإذا استطعنا مثلا أن نضع سببا في السند يُساند هذا التعارض (مثلًا أن نثبت أن أحد الرواة كان أقل من ثقة، أو أن أحد الرواة كان مشهورا بالإرسال والإدلاس) فإنه يحق لنا النظر في الحديث. وإذا استطعنا أن نضع سببين في السند (أو أكثر) يُساندان هذا التعارض فإنه سيكون هناك راحة في النظر في رد الحديث. وبالتالي فالتعارض وحده ليس كافيا لرد الأحاديث التي جمعها المحققون، وإنما الحيطة تتطلب عدة أسباب مجتمعة.

وقد ذكرنا سابقا ثلاثة: الراوي والمحقق والجامع. وأما الجامع فهو شخص ثقة قد أخذ على عاتقه توثيق جميع الأحاديث ذات السند بغض النظر عن حالة الرواة فيها. ومن هؤلاء الهندي صاحب موسوعة "كنز العمال" والطبراني صاحب "المعجم الكبير". وهؤلاء الجامعون هم أقرب إلى المؤرخين، فهم أخذوا على عاتقهم جمع الموجود عندهم من أحاديث ذات سند دون انتباه "كبير" لحالة الرواة فيها. وربما نجد في موسوعاتهم الكثير من الأحاديث الصحيحة (أي المروية عن الثقات) والتي لم يتم وضعها في كتب المحققين السبعة، ولكننا سنجد كذلك الكثير والكثير من الأحاديث الضعيفة والتي تتضمن رواة ضعافا أو متروكين أو مجهولين.

وبالطبع فإنه لا يوجد قيمة للحديث الضعيف في الفقه والسيرة، ولكن قد يوجد لهذا الحديث الضعيف قيمة في التحليل التاريخي للمسلمين؛ حيث إنه يُعبر عن مجموعة من الأفكار التي اقتنع بها بعض المسلمين بعد الرسول. ولهذا السبب فإن وجود هذه الأحاديث الضعيفة في كُتُب الجامعين له قيمة تاريخية.

وهنا يجب التنبيه لنوعين في نقل الأخبار والروايات:

نقل الأجيال (Anonymous Oral Tradition)، ونقل السند (Chain Oral Tradition). ونقل السند قد ذكرناه فهو أن تنتقل الرواية من شخص معروف ثقة إلى شخص معروف ثقة وهكذا حتى يتم توثيقها مع الرواة في الكتب. وأما "نقل الأجيال" فهو أن تنتقل الرواية عبر الأجيال إلى أن يتم توثيقها في الكتب من غير تحديد الرواة. ومعظم التاريخ المكتوب للحضارات السابقة قد تم توثيقها من خلال "النقل عبر الأجيال"؛ فالمؤرخون قد ذكروا القصص القديمة للرومان دون أن يحددوا مصادر معلوماتهم، وكذلك تاريخ اليونان. والمواقف الوحيدة في التاريخ البشري والذي تم توثيقها عبر السند هي القصص المتعلقة بالرسول وأقواله. وبالطبع فإننا لا نرفض الأخبار التي تأتينا من "نقل الأجيال"؛ لأنه ثبت أن الكثير من هذه الأخبار صحيحة أو أنَّ لها أصلا صحيحا، ولكننا كذلك لا نستطيع أن نأخذ هذه الأخبار بالثقة التامة لأنه قد ثبت كذلك أن كثيرا من أخبار "نقل الأجيال" ليس صحيحا. وبالتالي فلا بد من وجود منهجية واضحة تُحدد الكيفية التي نستطيع فيها فلترة (تمييز) الأخبار الصحيحة من الأخبار الخاطئة في "نقل الأجيال". وأحد العناصر في هذه المنهجية هو تحديد المعلومات المؤكدة لنا والتي يُمكننا من خلالها فلترة الأخبار الصحيحة الممكنة من الأخبار الخاطئة المؤكدة.

وتوجد بعض الكتب المشهورة عند المسلمين التي تعتمد على "نقل الأجيال" ومنها كتاب "سيرة ابن هشام"، ولهذا السبب فإن سيرة ابن هشام لا تُعتبر حجة أساسية في التحليل، ولكنها تُعتبر قرائن مفيدة ومساندة؛ فكما ذكرنا آنفا فإن الأخبار من خلال "نقل الأجيال" تحتوي على الكثير من الصحيح.

ولنرجع إلى كتب المحققين السبعة، فالأحاديث فيها تنقسم إلى نوعين من حيث حالة الرواة:

- الحديث الصحيح هو الحديث الذي كل رواته ثقة (أو أعلى) ولا يوجد في الحديث إرسال.
- الحديث الحسن وهو الحديث الذي أحد رواته أقل من الثقة أو كان في الحديث إرسال. وبالتالي فإن الحديث الحسن هو أقل درجة (أو درجات) من الحديث الصحيح.

وكذلك فإن الأحاديث في كتب المحققين تنقسم إلى عدة أنواع من حيث أسانيدها:

- الحديث الغريب: وهو الحديث الذي ليس له إلا سلسلة واحدة من الرواة في كتب المحققين. وسنسمي هذا النوع من الحديث بـ "وحيد السند".
- الحديث العزيز: وهو الحديث الذي له سلسلتان من الرواة الثقات بحيث لا يكون هناك إرسال ولا يكون هناك راو مشترك بين السلسلتين. وسنسمي هذا النوع من الحديث بـ "ثنائي السند".
- الحديث المستفيض: وهو الحديث الذي له ثلاث إلى سبع سلاسل من الرواة الثقات بحيث لا يكون هناك إرسال ولا يكون هناك راو مشترك في هذه السلاسل.
- الحديث المتواتر: وهو الحديث الذي له أكثر من سبع سلاسل من الرواة الثقات بحيث لا يكون هناك إرسال ولا يكون هناك راو مشترك في هذه السلاسل.
- ويوجد نوع من الحديث بين الغريب (وحيد السند) والعزيز (ثنائي السند) وهو خبر الآحاد، وفيه يبدأ الحديث وحيدا في السند ثم يتعدد بعدها. فمثلا إذا روى أحد الصحابة (أو التابعين) حديثا ثم انتشر هذا الحديث من الصحابي (أو التابعي) فإن هذا الحديث يكون وحيدا من طرف ولكنه متعدد في كتب التحقيق المختلفة. وهذا الحديث سنسميه هنا "وحيد الطرف". وسنفرق بين "وحيد الطرف" و"وحيد السند" كالتالي: إذا انتشر الحديث وتعدد رواته عن الصحابي (أو التابعي) فإنه يكون "وحيد الطرف"، وأما إذا انتشر وتعددت رواته عن تابعي التابعين (ومَن بعدهم) فإنه يكون "وحيد السند".

والحديث المتواتر أشد ثباتا من المستفيض، والمستفيض أشد ثباتا من الثنائي السند، والثنائي السند أشد ثباتا بكثير جدا من وحيد الطرف، ووحيد الطرف أشد ثباتا من وحيد السند. وما سبق يُمكن اثباته من واقع الحال، فشهادة الثلاثة أشد ثباتا من شهادة الاثنين، وشهادة الاثنين أشد ثباتا بكثير من شهادة الواحد.

ومع ذلك فإن "وحيد السند" الذي أتانا من الثقة عن الثقة فإن فيه من الثَّبات ما يكفي أن يكون دليلا شرعيا، ولكن يجب الانتباه لوجود الهامش من الخطأ فيه حيث من الممكن لأحد الرواة أن يكون قد نسي أو فهم الأمر خطأً، ومثال ذلك هو الخطأ الذي وقع فيه أبو هريرة في فهم النص عن الفضل بن عباس.

وما سبق من المعلومات يكفي لتحديد المنهجية المتعلقة بتحليل الأحاديث المنسوبة للرسول:

1- إذا جاء احد واستشهد بحديث من الكتب الجامعة (مثل كتاب الطبراني أو الهندي) فإنه عليه "هو" أن يتحقق من السند واثبات الثقة فيه (أو أن يستشهد بشخص معروف ثقة قد تَحَقَّقَ من صحة السند في هذا الحديث). فهناك الكثير والكثير من الأحاديث الضعيفة والمتروكة في الكتب الجامعة، وبالتالي هناك احتمالية أن الحديث الذي سيتم أخذه من هناك سيكون ضعيفا، ولهذا السبب فإن منطق الحال يتطلب من المستشهد للأحاديث فيها أن يتحقق من السند في الحديث ويقوم باثباته، وإنْ لم يفعل فيحق للمستمع اهمال شهادته.

وبالتالي إذا جاء المستشرقون والمشككون بحديث من الكتب الجامعة فجوابنا سريع وبسيط: تحققوا أنتم من صحة الحديث قبل أن تستشهدوا به.

2- وإذا استشهد أحد بحديث ثنائي السند (أو أكثر) من كُتب المحققين فهذا الحديث يكون معتمدا وحجة إلا إذا استطاع أحد أن يُثبت أن الحديث فيه نظر (مثلا إذا استطاع أن يُثبت أن السندين للحديث فيهما مشكلة). وبالتالي فإن الأصل في الأحاديث ثنائية السند (فما فوق) في كُتب المحققين السبعة أنها حجة إلا إذا ثبت غير ذلك.

3- وكذلك ننظر إلى الأحاديث وحيدة الطرف في كُتب المحققين، فهذه الأحاديث أقل ثباتا من العزيز ولكن فيها من الثبات ما يكفي أن تكون حجة، والذي يعترض عليها فإن عليه التحقق والإثبات.

4- وأما الأحاديث وحيدة السند فهي في المنطقة الرمادية وخصوصا أنَّ الكثير من الخلافات الفقهية ترجع إلى الأحاديث وحيدة السند. ولا يمكن إهمال هذه الأحاديث لأنها مروية من الثقات عن الثقات، ولكن إذا ظهر أن الحديث فيه تعارض مع المألوف فإنه يحق لنا طلب التحقق دون الاعتراض. وإذا استطعنا أن نثبت وجود سبب في السند (مثلا أحد الرواة كان أقل من الثقة أو أنه كان موصوفا بالإرسال والإدلاس) فإنه يحق لنا النظر فيه. وإذا ثبت وجود سببين في السند (أو أكثر) فإنه سيكون هناك راحة أعلى في النظر في رد الحديث (أي اعتبار أن الرسول لم يقل الحديث وإنما قد جاءنا بالخطأ من أحد الرواة).

ويوجد هنا تنبيه ... إذا استطاع أحد أن يثبت الخطأ في أحد أحاديث البخاري (مثلا) فهذا لا يعني أنَّ صحيح البخاري نفسه قد دخل إلى دائرة الشك.

لماذا؟

لأن هذا هو الأمر المعتمد في جميع المعارف والعلوم الإنسانية؛ فلنفترض أن أحد علماء النباتات المشهود له بالكفاءة قد استغرق السنوات الطوال في وضع موسوعة ضخمة عن النباتات، وبالتالي فإن موسوعته ستكون مرجعا في الموضوع، ولكن هذا لا يعني أنها معصومة عن الخطأ وإنما يعني أن المعلومات الموجودة فيها قد جاءت من ثقة بعد تعب. وأما الأخطاء في الموسوعة فسيتم تداركها عبر الأجيال التالية، ولكن هذه الموسوعة ستبقى مرجعا في علم النبات إلى أن يأتي شخص آخر ويضع موسوعة أفضل وأشمل منها.

وبالتالي لا يصح إذا وجدنا الخطأ في هذا المرجع أن نقول إن المرجع نفسه قد أصبح في دائرة الشك، إذ إنَّ أي انتقاد لمرجع جاء من ثقة بعد تعب يتطلب التعب في البحث والدراسة؛ "فالتعب لا يرده إلا تعب مثله".

وكذلك الحال في صحيح البخاري؛ فقد تم وَصْفُ البخاري بالثقة والورع والاحترافية العالية، وقد اجتهد في جَمْعِ الأحاديث التي رآها صحيحة ضمن منهجية واضحة. وبالتأكيد فإن عمله ليس معصوما عن الخطأ، ولكن تحديد الأخطاء يتطلب بذل الجهد في التدقيق؛ فالتعب لا يرده إلا تعب مثله.

وسنضع هنا بعض الأمثلة:

#1 قال الترمذي: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُعَاذٍ الْعَقَدِيُّ ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ ، عَنْ قَتَادَةَ ، عَنِ الْحَسَنِ ، عَنْ سَمُرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : "سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامٌ أَبُو الْحَبَشِ، وَيَافِثُ أَبُو الروم". وقد روى آخرون مثل هذا الحديث.

وهذا الحديث وحيد السند، وانتشر في الكتب المختلفة عن سعيد بن أبي عروبة. وعلى الحديث اعتراض (وليس تناقضا) حيث إنه يُخالف الفهم الممكن في تفسير الآية "أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا" (مريم 19:58)، وقد تم ذكر ذرية نوح في آية الانعام 6:84، ولكن في آية مريم فقد تم ذِكْر الذرية على غير السياق العام وذلك في العبارة: "وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ"، والتغير في البناء في الفقرة ذاتها يدل على تغيير في المعنى. والمعنى الممكن هنا أن ذرية نوح قد كانت من بناته وليس من أولاده، وهذا التفسير يتعارض مع الحديث (ولا نقول يتناقض لأن التفسير السابق ليس صريحا). ولهذا فإنه يوجد سبب لطلب التحقق من الحديث.

وسعيد وقتادة والحسن هم من أعلام العلم والدين، ولكن ابن حجر قال عن سعيد: ثقة حافظ له تصانيف، كثير التدليس. وقال عن قتادة: ثقة ثبت، ولكنه قد ذكره في الطبقة الثالثة من طبقات المدلسين، وهي التي لا يُقبل حديث أصحابها إلا إذا صرحوا بالسماع. وقال عن الحسن البصري: ثقة فقيه فاضل مشهور وكان يرسل كثيرًا ويدلس. وبالتالي عندنا سبب في المتن وثلاثة أسباب في السند تصلح أن ننظر في هذا الحديث.

#2 قال البخاري في صحيحه: "حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ سورة يس آية 38".

وقد روى الحديث كذلك مسلم في صحيحه، والحديث وحيد السند عن إبراهيم التيمي. وهناك اعتراض على متن الحديث أنه لا يتوافق مع المعتمد الحاليا من المبادئ العلمية، ونقول إنه اعتراض وليس تناقضا حيث إنه قد ثبت أن المبادئ العلمية قد لا تكون صحيحة تماما. ولكن هناك سبب في السند يُساند هذا الاعتراض وهو قول ابن حجر عن إبراهيم التيمي أنه ثقة ولكنه يُرسل ويُدلس. وهذان سببان يصلحان للنظر في الحديث.

#3 أحاديث انشقاق القمر في مكة:

قال تعالى: "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ" (القمر 54:3). وجاء في تفسير الآية عدة أحاديث مروية في كتب المحققين عن أن القمر قد انشق في مكة وأن هذه الآية تتعلق بهذا الحدث. ويقول البعض إن هذه الأحاديث متواترة ولا تقبل الشك. ومنها حديث عبد الله بن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال النبي ﷺ اشهدوا" (رواه البخاري). وفي رواية أخرى لعبد الله بن مسعود: انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فقال اشهدوا ..." (رواه البخاري).

ولكن هذا الحديث يتعارض مع المألوف وهو أن انشقاق القمر يجب أن يراه أهل مكة وأهل المدن الأخرى، ولكن الظاهر أن لا أحد غير أهل مكة قد شهد هذا الانشقاق. وكذلك فإن الآية تقول: "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ"، ولكننا لا نرى القمر مشقوقا، ويوجد احتمالان في تفسير الآية:

- إما أن القمر قد انشق في عهد الرسول ثم رجع لحاله وكأنه لم ينشق.
- أو أن الآية تتحدث عن المستقبل. وقد استخدم القرآن الأفعال الماضية للتحدث عن المستقبل ومثال ذلك قوله تعالى: "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ" (النحل 16:1).

ولا أميل للاحتمال الأول لأن القمر إن انشق (حسب الآية) فيجب أن يبقى منشقا لا أن يرجع لحاله (وكأن الانشقاق لم يحدث)، فلو كان في الآية تعقيب "أن القمر قد رجع لحاله كأن لم ينشق" لما كان هناك اعتراض، ولكن أن يقول الله "وانشق القمر" دون تعقيب، فإنه يحق لنا القول إن القمر قد انشق وإنه سيبقى منشقا. ومثال ذلك قوله تعالى عن انشقاق السماء: فإنه إذا انشقت السماء فإنها يجب أن تبقى منشقة. ولكنَّ هذا الرأي ليس صريحا، ولهذا السبب فإن الاختلاف بين التفسير والأحاديث هو تعارض وليس تناقضا.

ولننظر في الأحاديث؛ فقد تمت رواية حديث اشقاق القمر في كتب المحققين عن التالي: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وجبير بن مطعم. وهناك رواية ليست في كتب المحققين السبعة وإنما يُصححها الكثير من علماء الحديث وهي عن الحذيفة بن اليمان.

وبالنسبة للروايات عن الجبير بن مطعم فإن فيها "محمد بن كثير" وقد اختلف علماء الحديث في أمره فمنهم من وثقه (مثل ابن حجر) ومنهم من تركه وضعفه (مثل يحيى بن المعين). ويوجد كذلك في الرواة "سليمان بن كثير" وقد اختلف في أمره كذلك؛ فمنهم من ضعفه (مثل يحيى بن معين) ومنهم من اعتبره كثير الخطأ (مثل ابن حبان) ومنهم من اعتبره: لا بأس به (أي حسن الحديث، مثل ابن الجنيد).

وبالنسبة لعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك والحذيفة بن اليمان فهؤلاء لم يكونوا شهداء على الحادثة، وبالتالي فإن هناك شخصا مجهولا قد أخذوا منه هذا الخبر، وبالتالي فإن أحاديثهم في هذا الأمر فيه إرسال، وبالتالي فإن أحاديثهم في هذا الأمر أقل من مستوى الصحيح (حيث إن الصحيح يتطلب أن لا يكون هناك إرسال في الحديث).

وبالتالي فإن صحة حديث انشقاق القمر تأتي من عبد الله بن مسعود وحده، ونستطيع أن نقول عن حديثه إنه وحيد الطرف حيث من الممكن القول (على التخمين) أن مصدر الرواية لـ عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك والحذيفة بن اليمان هو عبد الله بن مسعود (أو شخص مجهول آخر).

يوجد هنا سؤال ليس لدي له جواب وإنما سأضعه هنا كنقطة انتباه: هناك عدة روايات في كتب المحققين عن عبد الله بن مسعود:

- رواية مختصرة وتقول إن القمر قد انشق في عهد الرسول.
- ورواية أخرى أنه شهد هذه الحادثة في منى.

- ورواية أخرى أن القمر قد انشق فرقتين واحدة فوق الجبل وأخرى دونه.

وفي رواية أنس بن مالك (في البخاري) فإن المشركين سألوا الرسول أن يُريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. وغار حراء يقع في جبل النور. والسؤال ... أين هو الجبل الذي يُمكن أن يُرى في منى ويُمكن أن يُرى القمر (إذا انشق) فرقة منه أعلاه وفرقة منه أدناه؟ وهل يُمكن يُرى جبل النور من منى في عتمة الليل؟

وما سبق إنما هو سؤال ليس إلا، ولعدم وجود الجواب عندي فلا أستطيع استخدامه في التحليل، ولكني وضعت هذا السؤال بعد اطلاعي على مقالة لمحمد رشيد رضا (راجع صفحة المراجع) تتعلق بانشقاق القمر وله رأي في هذا الموضوع.

ولكننا نستطيع القول هنا إن هناك حديث صحيح وحيد الطرف يتعلق بانشاق القمر في مكة، وذلك لأن الأحاديث الأخرى أقل من درجة الصحيح لوجود الإرسال فيها.

وبالتالي تكون هناك نقطة تعارض في المتن مع حديث صحيح واحد "وحيد الطرف".

ونستطيع هنا أن نضع توفيقا بينهما:
فمن الممكن أن القمر لم ينشق وإنما الضوء هو الذي انشق: فالضوء الذي يصل من الشيء إلى العين فإنه يأتي في حزمة واحدة، ولكن إن انشق الضوء حزمتين وجاءت أولاها من جهة والثانية من الجهة الأخرى، فعندها سنرى الشيء مشقوقا. ويُمكن شق حزمة الضوء إلى اثنتين بالتكنولوجيا الحديثة وذلك باستخدام الانعكاس والانكسار.

وهنا تأتي مجموعة أسئلة:

- إذا كان يُمكن عمل هذا الأمر حديثا، فهل هذا معناه أن الأمر ليس معجزة؟
  والجواب: الرسول لم يكن عنده القدرة التكنولوجية ولم تكن هذه القدرة معروفة وقت الجاهلية، وبالتالي فإن كسر الضوء إلى حزمتين قد جاء بطريقة خارجة عن قوانين الكون، وبالتالي فهو معجزة.
- ألا يُمكن اعتبار كسر الضوء إلى حزمتين أنه خدعة بصرية أو سحرا للعيون كما وصفها المشركين؟
  الجواب: كسر حزمة الضوء قد حدث بطريقة خارجة عن قوانين الكون، وبالتالي فلا يوجد في الأمر خدعة. وأمَّا سحر العيون فإن المقصود به هو التخيل والتوهم، ولكن ليس في الأمر خيال ولا وهم وإنما شاهدوا شيئا وكان السبب فيه هو الكسر في حزمة الضوء.

وهذا المقترح في التوفيق يجمع بين التعارض والحديث: فهناك رواية واحدة صحيحة عن انشقاق القمر وفيه يقول عبد الله إنه شاهد انشقاق القمر، ولكن هذه النقطة لها اعتراضان رئيسيان والأول هو أنه لا أحد في المدن والممالك الأخرى قد شهد انشقاق القمر، والثاني يتعلق في تفسير الآية نفسها: وهو أن الله عندما يقول إن القمر قد انشق (دون تعقيب في السرد) فإنه يحق لنا القول إن القمر قد انشق وأنه سيبقى منشقا، وبالتالي يكون تفسير الآية أن الانشقاق سيكون في المستقبل.

وبالتالي فإن نقطة التوفيق هنا أن القمر لم ينشق وإنما الضوء نفسه قد انشق، وبالتالي فإن هذه الحادثة هي خاصة لأهل مكة فقط دون سواهم، وهذا يتوافق كذلك مع رواية عبد الله بن مسعود حيث إنه قد شاهد القمر منشقا، وهذا لا يعني بالضرورة أن القمر نفسه قد انشق.

#4 أحاديث المعراج:

الإسراء قد حدث ودليله في سورة الإسراء. والمعراج قد حدث ودليله الآيات 1 إلى 18 في سورة النجم. وأما أحاديث المعراج التي سنتحدث عنها هنا فهي التي تتعلق بـ ذهاب الرسول إلى السموات السبع ولقائه الأنبياء فيها. وهذه الأحاديث في مجموعها هي وحيدة الطرف مروية في البخاري ومسلم (وغيرهما) عن أنس بن مالك.

وهناك ثلاثة أسانيد لهذه الأحاديث في كتب المحققين:

- عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن الرسول عليه السلام.
- عن شريك بن عبد الله عن أنس بن مالك مرسلا عن الرسول.
- عن ثابت البناني عن أنس بن مالك مرسلا عن الرسول.

ونستطيع القول إن رواية أنس بن مالك المرسلة قد جاءت من الصحابي "مالك بن صعصعة".

وهناك رواية في الترمذي عن الحذيفة بن اليمان أن الرسول لم يُصلي في الأقصى ولم يربط البراق. وفي رواية قتادة أن الرسول قد ركب البراق وانطلق حتى وصل السماء الدنيا (أي أن الرسول لم يُصلي في الأقصى). وأما في رواية ثابت البناني: فإن الرسول قد ربط البراق ودخل الأقصى وصلى فيه ركعتين. وأما في رواية شريك فإن الرسول قد انطلق إلى السماء الدنيا (أي أن الرسول لم يُصلي في الأقصى).

ويوجد هنا اعتراض كبير على حديث أنس بن مالك وهو (وضمن غلبة ظن عالية) أن السماوات السبع المذكورة في القرآن هي الغلاف الجوي، والسبعة عند العرب لها معنيان، فهي إما تعني العدد نفسه (وهذا هو المعنى المجرد)، وإما التعدد (وهذا هو المعنى الأدبي). وغلبة الظن أن السبعة هنا بمعناها الأدبي، وقد ثبت أن الغلاف الجوي يتكون من طبقات عدَّدها العلماء بين الستة إلى التسعة طبقات. وأما الدليل الأقوى على ما سبق فهو قوله تعالى عن القمر: "وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا" (نوح 71:16). ويظهر القمر خارج الغلاف الجوي كصخرة رمادية داكنة باهتة اللون، وإنما نراها داخل الغلاف الجوي نورا لأن الغلاف الجوي يقوم بتشتيت الأشعة الداكنة (كالأشعة الزرقاء والبنفسجية) وتبقى الأشعة الساطعة في حزمة الضوء للقمر (راجع الباب 5.8).

ومن الصعب جدا أن نقول إن الأنبياء يعيشون بين طبقات الغلاف الجوي. ومع ذلك فإن هذا التفسير للآيات ليس صريحا وإنما هو غلبة الظن، وبالتالي فإن هذا التفسير لا يتناقض مع أحاديث المعراج السابقة، ولكنه يتعارض معها.

ولهذا يجب التحقق وبعمق في هذه الأحاديث:

- وأما قتادة فهو ثقة ثبت ولكنه موصوف بالإرسال والإدلاس.
- وأما شريك بن عبد الله فهو صدوق يُخطئ.

- وأما ثابت البناني فهو ثقة ولكن روايته تتعارض مع رواية الحذيفة في موضوع الصلاة في الأقصى.

والنقطة التي تثير الاستغراب الشديد هنا أن حديثا مهما يتعلق بالمعراج وملاقاة الرسول مع الانبياء لم يُعرفه المسلمون إلا من خلال أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

وهناك قاعدة عند أبي حنيفة تقول "إن خبر الآحاد فيما يَعُمُّ فيه البلوى ليس حجة"؛ لأن المفروض أن يكون هذا الحديث مشهورا. والمثال الكلاسيكي عند الأحناف لهذه القاعدة هو حديث "مَنْ مَسَّ ذَكَرَهُ فَلَا يُصَلِّ حَتَّى يَتَوَضَّأَ" (رواه الترمذي وغيره)، ورواة هذا الحديث ثقات إلا أن المشكلة فيه أنه غير مروي إلا عن بسرة بنت صفوان عن الرسول عليه السلام، ووجهة نظر الأحناف أن هذا الأمر مما تَعُم به البلوي (أي يَكثر حُدوثه)، فليس من منطق الأمور أن لا يرويه إلا واحد من الصحابة.

ومع أن هذه القاعدة تتعلق بالأحكام الشرعية إلا أننا نستطيع استخدامها في موضوعنا هنا، وهو أن أمرا مهما كالمعراج ولا يعرفه المسلمون إلا من خلال حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة، فإنه أمر يتطلب النظر.

#5 حديث ألا تتوضأ:

توجد هنا أحاديث صحيحة ويستخدمها المشككين ومن المفيد التعمق فيها. ففي رواية في مسند الإمام أحمد "أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى الخلاء، فأتي بطعام فقيل له ألا تتوضأ، فقال أمرت بالوضوء إذا قمت للصلاة". وهذا الحديث مروي بأكثر من صيغة في كتب الحديث وهو صحيح. ولكن المشككين يستخدمونه للدلالة أن الرسول لم يغسل يده بعد رجوعه من الخلاء.

ولكن دعونا نبدأ من الأصل: هناك الكثير والكثير من النصوص في القرآن والحديث التي تتعلق بالنظافة والطهارة والطريقة فيهما، ونحن نعترف ونقر أن عسيى عليه السلام كان نبيا ونعترف ونقر أن موسى عليه السلام كان نبيا، ولكن إذا جاءنا فريق وأخذوا ينتقدوننا فيما سبق فيحق لنا عندها أن نقول لهم: أحضروا لنا كتبكم المقدسة وأرونا النصوص فيها التي تتحدث عن الطهارة والنظافة والطريقة في القيام بهما. وإذا لم يستطيعوا أن يرونا أي نص فيها فلا يحق لهم نقدُنا في أمور النظافة والطهارة.

الآن ... الجزيرة العربية كانت صحراء وكان الناس يسافرون عبرها بالأسابيع، وكان الماء قليلا في السفر، وظهرت عادات بينهم قد أكدَّها الإسلام، ومنها التنزه من البول: فعلى الشخص عند التبول أن يتنزه تماما من البول؛ وذلك لأنه إن لم يفعل فإن قطرات من البول ستخرج لاحقا إلى الملابس، وبعد ثلاثة أيام فقط من هذا الأمر فإن رائحة الشخص ستكون سيئة جدا لأن للبول رائحة نافذة. وهناك نص في الإسلام يتوعد فيه غير المتنزهين من البول.

وقد استطاع الغرب حل هذه المشكلة عندهم باستخدام الملابس الداخلية وتغييرها كل يوم، ومع ذلك فإنه لا يحق للمسلم إلا التنزه من البول بغض النظر عن وجود الملابس الداخلية أو عدم وجودها لأن هذا الأمر فيه تشريع حازم بلا علة.

وكذلك الموضوع المتعلق باليد اليمنى واليسرى، فعند الذهاب إلى الخلاء فإن اليد اليمنى لا تتدخل في الأمر وإنما تتم النظافة باستخدام اليد اليسرى. وحيث إنَّ الماء قليل في السفر فقد تعوَّد العرب على طريقة في التنظيف قد أقرَّها الإسلام، وفيها تتم النظافة باستخدام ثلاثة حجارة، ويتم بهذه الحجارة تنظيف المكان تماما وباليد اليسرى فقط، وبعد ذلك يتم تنظيف اليد اليسرى بالصخر والرَّمل. وأما اليد اليمنى فإنها تبقى بعيدة ونظيفة وذلك لأنها هي المستخدمة في المصافحة وأكل الطعام.

وهذه العادة التي تَعَوَّدها العرب وأكدها الإسلام: اليد اليمنى للمصافحة وأكل الطعام، واليد اليسرى للتنظيف؛ فتنظيف الأنف يكون باليد اليسرى، وسد الفم أثناء العطس يكون باليد اليسرى، إلخ.

وهنا نرجع للحديث السابق، فاليد اليمنى للرسول كانت نظيفة (وكذلك يده اليسرى)، والرسول لا يأكل بيده اليسري وإنما باليمنى، وهذا هو مقصد التشريع.

وهذه نصوصنا وهذه تشريعاتنا وهذه طريقتنا منذ القدم في مواضيع الطهارة والنظافة، ويوجد في نصوصنا ما هو أكثر مما هنا. وأما من ينتقد في هذه الأمور فاحضروا نصوصكم وأخبرونا عن الأحكام والتفصيلات التي فيها والتي تحضكم على النظافة والطهارة والتي يَتَّبعُها المؤمنون منكم، الأغنياء والفقراء منكم، والذين يهتمون بمظهرهم والذين لا يهتمون. فإن يكن هناك نصوص ولا تفصيلات فعندها لا يحق لكم انتقادنا في مثل هذه الأمور.

الملحق السادس – شبهات المشككين في القرآن والقواعد اللغوية

لم يكن للعرب الجاهليين مرجعية واحدة في أمورهم ولكنهم كانوا يتأثرون ببعضهم البعض. وضمن هذا التأثر فقد انتشرت اللغة العربية (والتي هي أساسا لغة غرب الجزيرة العربية) مع وجود اللغات الأخرى كلغة حمير في جنوب شرق الجزيرة. وقد كان هناك اجماع على الخطوط العريضة العامة لقواعد اللغة العربية وطريقة رسمها، وجاء هذا الاجماع جراء تواصل العرب مع بعضهم البعض في التجارة والمنافسة الشعرية. ولكن كان هناك كذلك اختلافات واضحة في القواعد وطريقة الرسم في كل منطقة. فمثلا كلمة "تابوت" هي رسم قريش لها، وأما الأوس والخزرج فكانوا يرسمونها "تابوة" (بالتاء المربوطة). وكذلك في موضوع الأسماء الممنوعة من الصرف: فهناك مجموعة من العرب كانوا يمنعون صرف بعض الأسماء، وكان هناك عرب آخرون يصرفون الممنوع، وقد ذكر القرطبي (في تفسير آية 76:4 في الإنسان): "أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أفعل منك ، وكذا قال الكسائي والفراء هو على لغة من يجر الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يجرونه".

والنقطة هنا أنه لم تكن هناك مرجعية واحدة في قواعد اللغة وقواعد الرسم والإملاء وإنما كانت هناك خطوط عريضة تم التوافق عليها بناء على التواصل المستمر بين العرب في التجارة والشعر.

وقد جاء القرآن مبنيا بشكل عام على قواعد قريش ولكن مع التلميح للقواعد الأخرى. فمثلا، يوجد ثلاث أنواع لـ لا النافية وكلها تحمل نفس المعنى: لا النافية للجنس وهي تنصب الأسم وترفع الخبر ومثال ذلك: لا مجتهد مهمل،، ولا ليس (أي التي تعمل عمل ليس) وهي ترفع الاسم وتنصب الخبر: لا مجتهد مهملا،، ولا الحجازية وهي ترفع الاسم والخبر: لا مجتهد مهمل. وجميع هذه اللالات قد تم استخدامها في القرآن.

وعندما قامت الدولة الاسلامية وتم الانتباه لكثرة اللحن (أي كثرة الأخطاء في القواعد والإملاء) عند الأجيال الجديدة فقد بدأت الجهود في وضع مرجعية واحدة (أو على الأقل مرجعيات معتمدة) في القواعد، وللتسهيل فقد تم اهمال الكثير من القواعد التي ربما تكون مربكة، والتركيز على مجموعة محددة واضحة من القواعد. والقواعد التي ندرسها في المدارس هي جزء من هذه المجموعة.

وهنا تأتي المشكلة الطريفة؛ وهي أنَّ المشككين والمستشرقين يقومون بانتقاد القرآن بناء على القواعد التي يتم تدرسيها في المدارس الثانوية والتي (هذه القواعد) هي جزء بسيط من القواعد العربية التي كانت مستخدمة وقت نزول القرآن.

على أية حال ... لا يُمكن منطقيا أن يكون في القرآن أخطاء قواعدية أو ركاكة في البناء وإلا لسقطت المصداقية للرسول من اليوم الأول. بمعنى آخر فإن الرسول قد بدأ وحيدا بلا سند ولا قوة، وكان يتحدى المشركين بالقرآن ولا يُواجهونه، ولو كان في القرآن ركاكة أو خطأ في القواعد لأمسكوا بالرسول في مقتل ولضاعت مصداقيته، ولكن أن يصمد الرسول في المواجهة وينتصر فإننا نستطيع القول وبكل ثقة إنه لا يُمكن أن يكون في القرآن ركاكة أو أخطاء قواعدية خارجة عن اجماع العرب وقتها.

وللمقارنة فإنه من المستغرب جدا أن يأتي أحد بمهارات من القواعد والبلاغة التي درسها في المدرسة الثانوية، ثم يأخذ قصيدة لطرفة بن العبد ويُحلِّلها ويقول: توجد ركاكة في هذا البيت، وها هنا خطأ قواعدي. وأظن حقا أن هذا كثير؛ فطرفة بن العبد هو أحد الفطاحل في العصر الجاهلي وهو أحد المراجع اللغوية التي تم بناء القواعد عليها. وكذلك الحال في القرآن: فأن يأتي أحد بمهارات لغوية تَعَلَّمَها من المدرسة الثانوية ثم يأتي ويقول: توجد هنا ركاكة ويوجد هنا خطأ قواعدي فإن هذا كذلك كثير؛ فالقرآن هو كتاب قد ظهر في آخر العصر الجاهلي، وهو المرجع الأساس الذي استخدمه النحاة في وضع القواعد اللغوية. وإنَّ هذا لأمر غريب: المرجع الأساس للقواعد اللغوية هو القرآن، ومن ثم تم تبسيطها لتُناسب الطلاب في المدارس الثانوية، ثم يأتي أحدهم ليستدل بهذه القواعد في المدارس الثانوية ليقول إن في القرآن أخطاء قواعدية!

ومع ذلك فمن المناسب والمفيد أن نتعرض لبعض الشبهات التي يطرحها المشككون في هذا الأمر. وقد نظرت في الانترنت ووجدت الكثير ممن يضع هذه الشبهات، والطريف أن الكثير منها قد تمت الإجابة عليها في أمهات الكتب القديمة (كتفسير الطبري والقرطبي والشوكاني والألوسي).

#1 تغيير علامة المعطوف:

فمثلا: رفع المعطوف على المنصوب كما في الآية "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (المائدة 5:69).

ونصب المعطوف على المرفوع كما في الآية: "لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمً (النساء 4:162).

وكذلك في الآية: "لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة 2:177).

وحسب القواعد المألوفة فالصابئون يجب أن تكون "الصابئين"، و"المقيمين" يجب أن تكون "المقيمون"، و"الصابرين" يجب أن تكون "الصابرون".

الجواب: هذا التغيير في البناء هو للمدح (أو الذم) وهو أمر كانت تفعله العرب في مجموعة من الأسماء المعطوفة على بعضها، وقد شرحه سيبويه في كتابه بتفصيل، وكذلك فعل القرطبي في تفسير 4:162. وهناك عدة أسماء معطوفة على بعضها في الآية الأولى وتم تغيير البناء لواحدة منها (الصابئين) مدحا. وكذلك الحال في الآية الثانية والثالثة.

وقد قالت خرنق بنت هفان: لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر، النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأزر. وقال مالك بن خياط: وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نميرا أطاعت أمر غاويها، الظاعنين ولما يظعنوا أحدا والقائلون لمن دار نخليها.

وتم نصب "النازلين" للمدح ونصب "الظاعنين" للذم (راجع: الإبانة للصُّحاري).

#2 نصب الفاعل في قوله تعالى: "وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" (البقرة 2:124). وحسب ظنهم فإن الظالمين هي فاعل ويجب أن تكون مرفوعة.

الجواب: "الظالمين" هنا هي مفعول به، والفاعل هو "عهدي". وقد قال الطبري في تفسيره: "وأما نصب الظالمين فلأن العهد هو الذي لا ينال الظالمين". ولتوضيح ذلك فإننا نستطيع أن نقول: إن الظالمين لا ينالهم عهد الله، وعهد الله هنا هو الفاعل.

#3 تذكير خبر الاسم المؤنث في قوله تعالى: "إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ" (الأعراف 7:56). ويقول المشككون إن الصحيح هو قريبة من المحسنين.

الجواب: للتذكير والتأنيث قواعد متعددة في اللغة العربية وقد قامت المرجعيات الحديثة بتبسيطها، فالأصل في اللغة القول: امرأة صبور وقامت المرجعيات الحديثة بتبسيط الأمر وإجازة القول: امرأة صبورة.

وبالنسبة لكلمة "قريب" فقد ذكر القرطبي في تفسيره أنها تستخدم للمذكر والمؤنث، وأورد بيتا لامرئ القيس:
له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا.

وكذلك توجد آية أخرى في القرآن على مثل ذلك في قوله تعالى: "يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا" (الأحزاب 33:63).

#4 الرسم الخاطئ لـ رحمت في الآية السابقة (الاعراف 7:56)، إذ يقول المشككون إن "رحمت" خطأ وأن الكلمة الصحيحة: "رحمة".

الجواب: لقد جاء الرسم "رحمة" 72 مرة في القرآن، وجاءت 7 مرات بالرسم "رحمت". وضمن الاستقراء فقد تبين أن هذه السبع مرات كانت تتعلق بالرحمة الخاصة للبعض وليس للجميع، ففي الآية السابقة فإن الرحمة جاءت خاصة للمحسنين.

وهذا الوصف ليس خاصا بـ "رحمة" وإنما تكرر كذلك في: نعمة ونعمت، سنة وسنت، امرأة وامرأت، لعنة ولعنت، شجرة وشجرت، جنة وجنت، قرة وقرت، كلمة وكلمت، بقية وبقيت. وكذلك في "ابنت وفطرت ومعصيت" ولم تأتي في القرآن الكلمات: ابنة وفطرة ومعصية (المرجع: ابراهيم عبد المعطي).

وبالتالي فإن هناك مقصدا في هذا الرسم.

#5 تأنيث العدد وجمع المعدود في قوله تعالى: "وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا" (الأعراف 7:160). ويقول المشككون إن الصحيح هو: وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْني عشر سبطا.

الجواب: هذا الموضوع مشروح بشكل جميل في القرطبي والطبري، وإنه لأمر غريب أن يأتي أحد بالشبهات ارتجالا دون دراسة ولا مراجعة. وهناك عدة آراء لشرح هذه التباين في الآية، وغالب المعنى هو: وقطعناهم اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قطعةً أَسْبَاطًا أُمَمًا. والقطعة هنا جاءت من الفعل "قطَّعناهم"، ثم أخفى "قطعة" لوضوحها ولأنه أبلغ في المقال.

والفكرة هنا أن أصل المعنى هو: قطعناهم اثني عشر سبطا. ولتوضيح الكثرة في العدد فقد تم جمع "سبطا" إلى أسباط، ولكن كيف يُمكن تعديل العبارة بحيث يكون "السبط" جمعا؟

والجواب هو أن نقول: قطعناهم اثني عشر فريقا أسباطا، أو قطعناهم اثنتي عشرة قطعة أسباطا. وتم اختيار العبارة الثانية لأنها ربما متوافقة أكثر مع الفعل "قطعناهم" ولأنها أكثر موسيقية. ومن الممكن اخفاء "قطعة" لوضوحها، وكذلك لمنع وجود المفرد (قطعة) مع الجمع (أسباطا)، فتصبح: قطعناهم اثنتي عشرة أسباطا. وربما جاءت كلمة "أمما" لتأكيد المعنى المقصود وهو اظهار العدد والكثرة.

#6 جمع الضمير العائد على المثنى في قوله تعالى: "هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (الحج 22:19).

ويقول المشككون إن الصحيح هو: هذان خصمان اختصما وليس اختصموا.

الجواب: الآية تتحدث عن فريقين (مجموعتين جماعتين حزبين) وليس عن شخصين. ويجوز أن نقول "هذان فريقان" مع أن كل فريق هو جماعة. وجاءت التثنية لتمييز فريقين محددين، ثم جاء الجمع (اختصموا) للحديث عن كل الأفراد في هذين الفريقين.

#7 أتى باسم الموصول العائد على الجمع مفرداً وذلك في قوله تعالى: "كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (التوبة 9:69).

ويقول المشككون إن الصحيح هو: وخضتم كالذين خاضوا.

الجواب: المعنى في الآية واضح: وخضتم في ذات الشيء الذي خاضوا فيه. وكذلك: وخضتم كالخوض الذي خاضوا فيه. وكذلك فقد ذكر القرطبي أن "الذي" اسم ناقص مثل "من" ، يُعبر به عن الواحد والجمع. وأحضر القرطبي بيتا شعريا في ذلك (في تفسيره للآية 2:17): وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد. وكذلك قال تعالي في مثل ذلك: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (39:33).

#8 جزم الفعل المعطوف على المنصوب في قوله تعالى: "وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ" (المنافقون 63:10).

ويقول المشككون إن الصحيح هو: وأكونَ من الصالحين (بالنصب) وليس "أكن" (بالجزم).

الجواب: قال القرطبي: "وأكن بالجزم عطفا على موضع الفاء; لأن قوله: فأصدق لو لم تكن الفاء لكان مجزوما".

ولنشرح ما سبق، قال تعالى: "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا" (مريم 19:25). وفي الآية طلب: هُزي، وفيه جواب الطلب: تساقط. وجواب الطلب يكون مجزوما.

وفي الآية 63:10 هناك طلب "لولا أخرتني" وجاء في جواب الطلب كلمة فأصدق. والفاء ناصبة للمضارع فتكون منصوبة ولكن الكلمة نفسها تكون في محل جزم (لأنها جواب الطلب). وجاءت "أكن" معطوفة على محل الكلمة "فأصدق" ولهذا فهي مجزومة لأنها في الأساس جواب الطلب.

والعطف على محل الكلمة ليست مما يتم تدريسه في المدارس، ولكنه ضمن القواعد اللغوية، وقد قال ابن الزَبير الأسدي: معاويَ أَنَّنا بَشَرٌ فَأَسجِح فَلَسنا بالجِبالِ وَلا الحَديدَ. والحديد منصوبة عطفا على محل الكلمة "بالجبال"، وأصل المعنى في البيت: فلسنا الجبال ولا الحديد، والباء هنا زائدة في المعنى.

#9 جعل الضمير العائد على المفرد جمعاً وذلك في قوله تعالى: "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (البقرة 2:17).

ويقول المشككون إن الصحيح هو: فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنوره وليس نورهم.

الجواب: هناك تشبيه للجماعة بفرد ثم رجوع من الفرد إلى الجماعة. ففي البداية جاء تشبيه المنافقين بفرد واحد "مثلهم كمثل" ويجوز القول: ومثلهم كمثل الذين استوقدوا نارا، ويجوز كذلك القول: مثلهم كمثل الذي استوقد نارا. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك ومنها قوله تعالى: "تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ" (الأحزاب 33:19).

ومن ثم انتقلت الآية من الفرد إلى الجماعة (ذهب الله بنورهم). وهناك تفسير لهذا الانتقال موجود في أمهات الكتب، ونشرحه هنا باختصار وهو أن المنافقين لهم قياداتهم، وهذه القيادات هي التي استوقدت النار ولكن سوء العاقبة تعم جميعهم وليس القيادات فقط.

وشرح الآية هو أن قيام المنافقين بادعائهم الإسلام وصلواتهم وصيامهم أمام المسلمين والمعونة التي يُقدمونها للمسلمين في الحياة اليومية فإن هذا كله لن يكون له قيمة لهم لا في دنياهم ولا آخرتهم،، فهذه المعونة والصلاة والصيام هي كمن استوقد نارا فلما أضاءت لم يستفيدوا منها.

#10 جمع الكثرة للقلة وجمع القلة للكثرة، وذلك في قوله تعالى: "وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (البقرة 2:80).

وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة 2:184).

ويقول المشككون إن "معدودة" هو جمع كثرة واستخدم للقلة في الآية الأولى، وإن "معدودات" هو جمع للكثرة واستخدم للقلة في الآية الثانية.

الجواب: هناك خلاف بين النحاة فيما يتعلق بجموع القلة والكثرة، وهناك رأي أن هذا التفريق حديث وليس من أيام العرب الجاهليين (المرجع: فاروق مواسي–1). وقد قال فخر الدين الرازي في تفسيره للآية 2:80: "وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، وفي آل عمران: إلا أياما معدودات (آل عمران: 24) ولقائل أن يقول: لم كانت الأولى معدودة والثانية معدودات والموصوف في المكانين موصوف واحد وهو "أياما"؟ والجواب: أن الاسم إن كان مذكرا فالأصل في صفة جمعه التاء. يقال: كوز وكيزان مكسورة وثياب مقطوعة وإن كان مؤنثا كان الأصل في صفة جمعه الألف والتاء، يقال: جرة وجرار مكسورات وخابية وخوابي مكسورات. إلا أنه قد يوجد الجمع بالألف والتاء فيما واحده مذكر في بعض الصور نادرا نحو حمام وحمامات وجمل سبطر وسبطرات وعلى هذا ورد قوله تعالى: (في أيام معدودات) و(في أيام معلومات) فالله تعالى تكلم في سورة البقرة بما هو الأصل وهو قوله: (أياما معدودة) وفي آل عمران بما هو الفرع".

ونميل لهذا الرأي ونقول إن استخدام الفرع في آية آل عمران جاءت للتنبيه أن عدد الأيام قليل. بمعنى آخر أن كلمة "معدودات" ليست مخصوصة للكثرة أو القلة، ولكن حيث إن الآية قد استخدمت الفرع (أي الوصف غير المألوف) في آية آل عمران فهذا ربما يكون للتنبيه أن عدد الأيام هنا قليل، أي أن استخدام "غير المألوف" في الوصف يؤدي إلى لفت الانتباه لهذا الوصف.

#11 جمع اسم علم حيث يجب إفراده وذلك في قوله تعالى: وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (الصافات37:123) وقوله تعالى: سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (الصافات 37:130).

وكذلك في قوله تعالى: "وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (المؤمنون 23:20)، وقوله كذلك: وَطُورِ سِينِينَ (التين 95:2)

وانتقاد المشككين هنا أن هذا الأمر هو سجع متكلف.

الجواب: إلياسين ليس جمعا لإلياس، وإنما إلياس هو اسم غير عربي ويمكن تعريبه بأكثر من طريقة، فإلياس هو تعريب وإلياسين هو تعريب آخر، وفي الأدب يحق استخدام التعريب المناسب حسب موسيقية العبارات. ومثال ذلك: ميكال وميكائيل (راجع تفسير الطبري).

وأما سينين فهي ليست جمعا لسيناء، وإنما سيناء هو الاسم اليهودي للجبل، وأما سينين فهو الاسم السَّامري للجبل (راجع التوراة السامرية)، ولهذا يوجد لهذا المكان اسمان قديمان وهما سيناء وسينين، وقام القرآن باستخدامهما. وهنا يجب التنبيه أن التوراة السامرية لم تكن معروفة عند المفسرين المسلمين، وأن ربط الاسم الموجود في القرآن بالاسم الموجود في التوراة السامرية قد تم الانتباه له حديثا.

#12 استبدال المصدر باسم الفاعل في قوله تعالى: "لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ... " (البقرة 2:177).

ويقول المشككون إن الصحيح هو: ولكن البر أن تؤمنوا بالله واليوم الآخر ...

الجواب: الآية فيها حذف، والحذف هو أسلوب بلاغي مشهور عند العرب وما زال الأدباء العرب يستخدمونه. ومثال ذلك قوله تعالى "واسأل القرية" (يوسف 82) وأصل معناها: واسأل أهل القرية، وقوله تعالى: "لا تكلف إلا نفسك" (النساء 84) وأصل معناها: لا تكلف إلا طاقة نفسك، وقوله تعالى: "الحج أشهر معلومات" (البقرة 197) وأصل معناها: ووقت الحج أشهر معلومات.

والحذف في الآية السابقة يمكن تقديره: ولكنَّ أهل البر، ولكنَّ صاحب البر، ولكنَّ ذوي البر.

وهنا يأتي سؤال ... ما هو إعراب البر في قوله تعالى "ليس البرَّ"؟

في الواقع هناك قراءتان متواترتان: فقراءة حفص هي بالنصب (كما الآية) وقراءة آخرين بالرفع. وفي النصب يكون البر هو خبر مقدم لـ ليس، ويكون أصل المعنى: ليس توليتكم وجوهكم البرَّ، حيث إن المصدر المؤول لـ "أَن تُوَلُّوا" هو "توليتكم". وأما في الرفع فيكون البر هو اسم ليس.

#13 لم يأت بجواب لمّا في قوله تعالى: "فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" (يوسف 12:15).

ويقول المشككون إنه لا يوجد جواب لـ لمَّا الظرفية (لمَّا حدث أ حدث ب).

الجواب: أحد الأقوال التي وضعها الطبري في تفسيره أن جواب لمَّا هو "أوحينا" وأن الواو فيها هي واو المقحمة، وهذه الواو تزداد مع لمَّا وحتى، وقد قال امرؤ القيس: فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بها بطن خبث ذي حقاف عنقنق. وأصل المعنى: فلما أجزنا ساحة الحي انتحى بها بطن. وكذلك قوله تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا" (الزمر 73).

#14 نصب المضاف إليه في قوله تعالى: "وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ" (هود 11:10).

ويقول المشككون إن الصحيح هو كسر ضراء لأنها مضاف إليه.

الجواب: عجيب أن تكون هذه النقطة جزءا مما يشكك فيه البعض ولكني وجدتها في أكثر من موقع كنقطة تشكيك. و"ضراء" هي ممنوعة من الصرف وذلك لألف التأنيث فيها فهي على وزن حمراء وخضراء، فأحمر للمذكر وحمراء للمؤنث، وضرر للمذكر وضراء للمؤنث،، ولذا كانت ضراء ممنوعة من لصرف، وجاء كسرها بالفتحة.

وبالنسبة للآية: "الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (آل عمران 2:134)، فإن الكلمة الممنوعة من الصرف إذا تم تعريفها فإنها تصبح مصروفة.

#15 التنوين للممنوع من الصرف في قوله تعالى: "إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا" (الإنسان 76:4)، وقوله تعالى: "وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (الإنسان 76:15).

ويقول المشككون إن الآيات السابقة فيها خطأ لأن قواريرا ممنوعة من الصرف ولأن هناك قراءة متواترة للآية 76:4: "سلاسلًا وأغلالًا وسعيرًا".

الجواب: ذكرنا جواب هذه النقطة في مقدمة هذا الفصل، ونعيده هنا: فكثير من قبائل العرب كانت تعتمد المنع في الصرف، وبعض القبائل كانت لا تعتمده، والظاهر أن أهل الحجاز كانوا يعتمدونه فجاء القرآن في معظمه على هذه القاعدة (المنع من الصرف) ولكن هذه الكلمات الموجودة في الآيات السابقة تضع الدلالة أن بعض العرب لا يعتمدون هذه القاعدة.

وهناك كذلك رأي آخر: إذ تسمح العرب في الشعر بصرف الممنوع ومنع المصروف وذلك من أجل الموسيقية في الشعر، وهذا يسمونه في البلاغة "المشاكلة". وضمن هذا الرأي فإن "سلاسلًا" جاءت مشاكلة (أي شكلها وطريقة نطق الحرف الأخير فيها) مع المفردات المحيطة بها وذلك من أجل موسيقية العبارة، وهناك شاهد في ذلك وهو قول عمرو بن كلثوم: كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريقٌ بأيدي لاعبينا.

وضمن علمي فإنه يوجد في القرآن كلمة واحدة تم منع الصرف عنها وذلك في الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ (المائدة 5:102)، وأشياء هي جمع على وزن أعداء وهي مصروفة ولكن في هذه الآية جاءت ممنوعة، وهناك رأي يقول إن المنع جاء لتسهيل النطق وموسيقية العبارة: فـ "أشياء" إذا تم نطقها بالكسر والتنوين فإنك تنطقها كالتالي: "أشيا–إن" ويوجد بعدها "إن" أخرى، وهذا سيفرض على القارئ التوقف هنيهة. ولكن إذا مُنع الصرف لـ "أشياء" فإن التلاوة تكون أسلس (المرجع: فاروق مواسي–2).

#16 التوضيح للواضح في قوله تعالى: "فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" (البقرة 2:196).

ويتساءل المشككون فلماذا لم يقل "تلك عشرة" مع حذف كلمة "كاملة" تلافيا لإيضاح الواضح، لأنه من يظن العشرة تسعة!

الجواب: هذا التساءل قد وجدته حقا في بعض صفحات المشككين. وليس في العبارة السابقة أي خطأ قواعدي وإنما هم يعتبرون أن توضيح الواضح هو ركاكة. ولكن هذا ذوق وقيمة شخصية لهم، والقيم الشخصية ليس لها قيمة مرجعية ولا وزن جدلي، لأن هذه القيم قد تكون مزاجية واعتباطية.

على أية حال، لا توجد مشكلة قواعدية في الآية السابقة، وأمَّا التساؤل عن السبب في توضيح الواضح في الآية فهذا يدخل في التفاسير والآراء المختلفة فيها. ولكنِّي قد أستطيع تقديم تفسير ممكن للآية: فالسبعة عند العرب لها معنيان: إما العدد سبعة وإنما التعدد. فقول الله تعالى: "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا" (الملك 3) فهي إما تعني سبع سماوات عددا أو تعني "سماوات متعددة". فجاءت "عشرة" للتوضيح أن سبعة هنا هي للعدد وليس التعدد. وربما جاءت الكلمة "كاملة" لتسهيل الانتقال إلى العبارة التالية.

وهناك مثال شبيه لما سبق وهو قوله تعالى: "سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ" (الحاقة 69:7)، ومن الممكن أن نقول إن إضافة العدد ثمانية قد ساعد في التوضيح أن سبعة هنا هي للعدد وليس التعدد.

17# الإتيان بتركيب يؤدي إلى اضطراب المعنى وذلك في قوله تعالى: "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" (الفتح 48:9).

ويقول المشككون: "وهنا ترى اضطراباً في المعنى بسبب الالتفات من خطاب محمد إلى خطاب غيره. ولأن الضمير المنصوب في قوله تعزّروه وتوقروه عائد على الرسول المذكور آخراً وفي قوله تسبحوه عائد على اسم الجلالة المذكور أولاً".

الجواب: المعنى في الآية واضح تماما ونستطيع القول إنه لا يمكن من واقع الحال أن يعود التسبيح إلى الرسول وإنما يعود إلى الله، وبالتالي لا يوجد في النص خطأ قواعدي. ونحن نرى هذا الأسلوب التفاتا، وهو أسلوب معروف عند العرب (راجع الملحق السابع). وأما المشككون فيرونه ركاكة، وهذا قيمة شخصية لهم، ولا يوجد للقيم الشخصية وزن جدلي؛ فهذه القيم قد تكون مزاجية. وبالتالي لا يوجد في النص خطأ قواعدي وإنما الأمر هو قيمة شخصية ومزاج للمشككين وهذا يعود إليهم، ولسنا هنا في نقاش مع أمزجتهم.

18# الإتيان بضمير الفاعل مع وجود فاعل وذلك في قوله تعالى: "مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ" (الأنبياء 21:3).

ويقول المشككون: أن القرآن قد حذف ضمير الفاعل في أسرّوا مع وجود الفاعل ظاهراً وهو "الذين".

الجواب: ليس في هذه الآية كذلك خطأ قواعدي، وإنما انتقاد المشككين جاء من طريقة تذوقهم للأمور، وهذا المزاج والذوق ليس له وزن جدلي، وإنما هو أمر يخصهم.

ولكن ربما نستطيع هنا توضيح المعنى الذي تُقدمه الإضافة "الذين ظلموا"، فالآية تتحدث عن مجموعتين: العامة وهي التي تستسخف بآيات الله (وهؤلاء الذين تم وصفهم في الآية باللعب)، ومجموعة خاصة منهم أكثر ظلما وإثما وهُم الذين أسرُّوا النجوى الذين يُحرضون على عدم الإيمان.

19# الإتيان بالضمير المفرد العائد إلى المثنى في قوله تعالى: "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ" (التوبة 9:69).

ويقول المشككون: فلماذا لم يثنّ الضمير العائد على الاثنين اسم الجلالة ورسوله فيقول: أن يرضوهما.

الجواب: لقد تم شرح هذا الأمر بوضوح في أمهات الكتب، فالرسول هو معطوف مقدم وأصل المعنى هو: والله أحق أن يرضوه ورسوله. وهناك شاهد شعري شبيه لما سبق: "نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي

مختلف" (راجع القرطبي). ونحن نستخدم هذا الأسلوب حاليا في كتاباتنا ولكن مع أدوات الترقيم، فنستطيع أن نكتب شبيها كالتالي: الله (ورسوله) أحق أن يرضوه.

#20 الالتفات من المخاطب إلى الغائب قبل إتمام المعنى وذلك في قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" (يونس 10:22).

ويقول المشككون: فلماذا التفت عن المخاطب إلى الغائب قبل تمام المعنى؟ والأصحّ أن يستمر على خطاب المخاطب.

الجواب: لا يوجد فيما سبق أي خطأ قواعدي، وإنما ما سبق هو التفات وهو أسلوب معروف في بلاغة العرب. وكون المشككين لم يفهموا المعنى الذي يأتي مع هذا الالتفات فإن هذا أمر يخصهم وحدهم. ومن شواهد العرب في هذا الأسلوب (وهو الانتقال من المخاطب إلى الغائب أو العكس) يقول النابغة: يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد.

وربما نستطيع هنا تقديم المعنى الذي جاء في هذا الالتفات: فالقرآن كان يتحدث مع الناس الذين يركبون البحر، وتم تذكيرهم بما يحدث "لبعض الناس" في البحر. أي ليس كل المخاطبين سيتعرضون للموقف العصيب الذي ذكرته الآية.

#21 أتى باسم جمع بدل المثنى وذلك في قوله تعالى: "إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (التحريم 66:4).

ويقول المشككون: فلماذا لم يقل القرآن صغا قلباكما بدل صغت قلوبكما إذ إنه ليس للاثنيين أكثر من قلبين.

الجواب: لا يوجد في النص أي خطأ قواعدي، وإنما يوجد التفات معتمد عند العرب هو جمع الفرد أو تفريد الجمع أو استخدام التثنية للفرد والجمع. وقد قال امرؤ القيس: قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ، ولم يكن يتحدث إلا مع شخص واحد،، ثم انتقل بعدها إلى الجمع فقال: وُقُوْفًا بِهَا صَحْبِيْ عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ. ثم انتقل بعدها إلى الفرد في قوله: أَصَاحِ تَرَى بَرْقاً أُرِيْكَ وَمِيْضَهُ كَلَمْعِ اليَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ. وهناك مقصد لامرئ القيس في جميع هذه الالتفافات.

وكذلك قال سويد بن كراع: فان تزجراني يا ابن عفان أنزجر وإن تتركاني أحم عرضا ممنعا، وهو هنا استخدم التثنية في مخاطبة الفرد الواحد.

وما زال الكثيرون يستخدمون الجمع بدلا المفرد في مخاطبة علية القوم، فيقال للمدير: شكرا لسيادتكم، والهدف هنا هو التقدير والتبجيل. فلا يوجد في الآية السابقة خطأ قواعدي، وإنما هو التفات لم يُعجب بعض المشكيين، وهذا شأنهم.

وربما نستطيع أن نضع المعنى المقصود في هذا الالتفات: فيوجد في الآية انتقاد لشخصين ثم توجيه، وفي هذا التوجيه كان يمكن القول: فقد صغا قلباكما، فقد صغت قلوبكم، فقد صغت قلوبكما. والعبارة الأولى هي الأصل بلا التفات، والثانية فيها تبجيل كبير، والأخيرة فيها شيء من التبجيل وكأنها توازن قليلا موقف الانتقاد.

وكذلك توجد ملاحظة موسيقية هنا: الآية تتحدث عن امرأتين، وإذا أخذنا الأصل: فقد صغا قلباكما، فإن صغا كلمة مذكرة، وإذا أريد تأنيثها فلا بد من جمع القلب إلى قلوب، فجاءت الآية: فقد صغت قلوبكما.

وبالطبع لا يوجد يقين للسبب الحقيقي للالتفات ولكن توجد معان ممكنة له.

#22 طفل أم أطفال في قوله تعالى: "وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ... (النور 24:31).

ويقول المشككون أن كلمة الطفل هنا خاطئة والصحيح هو الأطفال.

الجواب: العرب تستخدم المفرد المعرف للدلالة على الجمع، فتقول العرب مثلا: كثير الدرهم والدينار، والمقصود: كثير الدراهم والدنانير (راجع الإبانة للصُّحاري). وبالتالي لا يوجد هنا خطأ قواعدي ولكن يوجد التفات من الجمع إلى المفرد.

وربما نستطيع هنا تقديم معنًى ممكنا لهذا الالتفات: ففي العبارة "أو أبناء بعولتهن" فإننا نستطيع القول (من منطق الحال) إنَّ ابن الزوج إذا كان سيئا فإنه يحق للمرأة أن تتحجب منه، ولكن الأطفال لم يصلوا بعد إلى مواقف الحسن والسوء، وربما يكون هذا هو السبب في وصف الأطفال على العموم بالكلمة المفردة.

وعلى أية حال فإنه لا يوجد في النص خطأ قواعدي وإنما هو التفات لم يُعجب بعض المشككين، وهذا شأنهم.

#23 الفعل المضارع عوضا عن الماضي في قوله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (آل عمران 3:59).

ويقول المشككون:إن كلمة "فيكون" في الآية خاطئة وأن الصحيح هو "فكان".

الجواب: يوجد في شواهد العرب الكثير من الالتفاتات التي تصف الحاضر بلفظ الماضي وتصف الماضي بلفظ الحاضر، وذلك لمعان مقصودة. وقد قال تأبط شرا: أَلا مَن مُبلِغٌ فِتيانَ فَهمٍ بِما لاقَيتُ عِندَ رَحى بِطانِ، بِأَنّي قَد لَقيتُ الغولَ تَهوي بِسَهبٍ كَالصَحيفَةِ صَحصَحانِ، ...، فَأَضرِبُها بِلا دَهَشٍ فَخَرَّت صَريعاً لِليَدَينِ وَلِلجِرانِ. والحادثة التي يرويها الشاعر كانت في الماضي (قتال الغول) ولكنه استخدم الفعل المضارع في وصفها (فأضربها).

وقد استخدم القرآن الفعل المضارع في وصف الماضي في الكثير من الآيات: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (البقرة 2:127)، وكذلك: "وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ" (يوسف: 12:16).

ولهذا لا يوجد في الآية خطأ قواعدي وإنما يوجد التفات (من الماضي إلى الحاضر)، وهو التفات لم يُعجب بعض المشككين.

وربما نستطيع هنا تقديم معنى ممكنا لهذا الالتفات: فعندما مدح جرير عبد الملك في قوله: أَلَستُم خَيرَ مَن رَكِبَ المَطايا وَأَندى للعالَمينَ بُطونَ راحِ، فأجابه عبد الملك: بلى كنا وما زلنا. فالبيت يتحدث عن الماضي، وأراد عبد الملك التبيان أنه ليس فقط في الماضي. وكذلك الآية؛ فإن استخدام "يكون" عوضا عن "كان" يُعطي الدلالة أن القدرة كانت وما زالت. وكذلك يوجد مقصد آخر ممكن وهو المشاكلة: إذ يوجد في القرآن 7 آيات (غير آية يوسف) وفيها "كن فيكون"، فجاءت هذه العبارة (كن فيكون) في سورة يوسف على شاكلة أخواتها في الآيات الأخرى.

الملحق السابع – البلاغة عند العرب

معظم الموجود في هذا الملحق هو نقل واختصار (مع بعض الشرح والتصرف) من "كتاب الإبانة في اللغة العربية" لـ سلَمَة بن مسلم الصُّحاري (القرن الخامس الهجري). وأخذنا كذلك بعض المواضيع من كتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة (القرن الثالث الهجري)، وأخذنا شواهد وأمثلة من تفسير الطبري والقرطبي. وما وضعناه هنا هو نقل واختصار، وهناك الكثير والكثير من المواضيع ذات العلاقة والتي لم ننقلها، ومن أراد الاستزادة فعليه بهذه الكتب وأمثالها.

وسنستعرض في هذا الملحق التالي: #1 الالتفات، #2 ذكر الجزء والمراد به الكل، #3 ذكر الكل والمراد به الجزء، #4 ذكر الشيء باسمين تأكيدا، #5 ذكر الفعل الواحد للجميع، #6 ذكر فعل الجميع للواحد، #7 الجزاء عن الفعل بلفظه، #8 التكرار، #9 المجاز، #10 الكناية، #11 الإضمار، #12 الاتساع، #13 الاستعارة، #14 الحذف، #15 الاختصار، #16 الإشباع،#17 الترخيم، #18 التوكيد، #19 الأضداد، #20 الزيادة في الحروف، #21 الزيادة في الكلمات، #22 التقديم والتأخير، #23 المقلوب، #24 استخدام الحروف عوضا عن أخرى.

#1 الالتفات:

وهو أسلوب مميز في البلاغة وهو القيام بتغيير الأسلوب في الحديث وبشكل مفاجئ وربما على عدة مرات. والالتفات الجميل هو الذي يتضمن معنى لهذا الالتفات بالإضافة للقيمة الفنية فيه. والتأثير الذي يحدث في الالتفات يمكن شرحه عن طريق شرح التأثير الذي يحدث عند سماع النكت والطرائف:

وهنا نسأل ... ما الذي يجعل الناس تضحك عند سماع النكتة؟ والجواب: تتضمن النكتة الجيدة التفاتا سريعا مفاجئا في الأسلوب والمعطيات، والمستمع للنكتة يكون عنده توقع ما وليتفاجئ بنهاية لم يكن يتوقعها. وفي لحظة الالتفات فإن الشخص يتوقف هنيهة عن التفكير وكأنه متجمد، ولينتبه بعدها للمقصد في هذا الالتفات. وهذا التجمد ثم الانتباه هو الذي يدفعه للضحك. وكذلك يحدث الابتسام عندما تبحث عن حل لمشكلة معقدة، ويأتيك الحل فجأة وكأنه لمعة في الدماغ، وهذه الفجاءة في الحل تُثير في الصدر شعورا بالانتعاش.

والالتفات في الشعر والأدب يختلف عنه في النكت والطرائف، حيث الأمور في الأدب أكثر وضوحا وأكثر جدية. ولكن الانتباه للالتفات (والمعاني التي تأتي منه) تُسبب شعورا بالانتعاش، ولهذا فإن للالتفات قيمة بلاغية عالية.

وعندما يقوم المبتدئ بمحاولة تطبيق الالتفات في أدبه فإننا سنظن ابتداء أنه ربما قد أخطأ في نقش العبارات، وهذا ظن طبيعي لأن الشخص مبتدئ وبالتالي فإن احتمالية الخطأ منه أعلى من احتمالية البلاغة. ولكن إذا وصل هذا الشخص إلى درجة الاحتراف ووجدنا التفاتا منه غير مألوف فإننا سننظر بعين الفضول لنعرف ما الذي يقصده.

وما سبق نستطيع توضيحه من خلال فلسفة الجَمال؛ فأي شخص يريد أن يتقن أي فن (وليكن رسم الخطوط العربية) فإن عليه أن يتجاوز مرحلتين:

- الأولى وهي الانتقال من الفوضى إلى الاتساق (From Chaos to Symmetry). والشخص قبل أن يبدأ التدرب على المهارات المتعلقة برسم الخطوط فإن رسمه يكون فوضاويا بلا اتساق، وفي هذه المرحلة فإن الشخص يحاول الالتزام وبشكل كامل بالمنهج المألوف المتبع في رسم الخطوط.
- والثانية هي الانتقال من الاتساق إلى التَّباين (From Symmetry to Asymmetry). والشخص عندما يتقن الاتساق فإنه يكون قد تجاوز المرحلة الأولى ودخل في عالم الاحتراف، وهنا فإن عليه أن يبدأ في المرحلة التالية وهي الانتقال إلى التباين (الفوضى الخلاقة)؛ حيث إن الاتساق هو جمال مُمِل، والهدف هنا هو محاولة تغيير بعض الاتساق بشكل يجعل الفن حيويًّا ديناميكيًّا مُحببًا. وإذا نظرتَ إلى اللوحات الفنية التي لها التأثير الأكبر على النفس فربما تجد أن كثيرا منها ليس متسقا تماما، ومن المؤكد أن لها درجة عالية من الاتساق، ولكن يظهر عليها بعض الحركات المتباينة الخارجة عن الاتساق (Asymmetry) والتي تُثير الإعجاب. واتقان هذا الأمر يتطلب إبداعا. ولكن لا يُمكن للشخص أن يبدأ المرحلة الثانية قبل أن يكون قد أتقن تماما المرحلة الأولى.

وما سبق ينطبق على الالتفات؛ فاتقانها يتطلب أولا اتقان البلاغة المألوفة عند العرب، وبعدها يستطيع الشخص أن يُبحر فيها.

وللالتفات عدة أنواع ومنها:

& الالتفات في السرد من الماضي إلى الحاضر والعكس:

قال قَيْسُ بنُ الخَطِيمِ: تَنَامُ عَنْ كُبْرِ شَأْنِهَا فإذَا قامَتْ رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْغَرِف، حَوْراءُ جَيْدَاءُ يُسْتَضَاءُ بهَا كأَنَّهَا خُوطُ بَانَةٍ قَصِفُ. والشاهد: تنام، قامت، تكاد، تنغرف.

وقال تأبط شرا: أَلا مَن مُبلِغٌ فِتيانَ فَهمٍ بِما لاقَيتُ عِندَ رَحى بِطانِ، بِأَنّي قَد لَقيتُ الغولَ تَهوي بِسَهبٍ كَالصَحيفَةِ صَحصَحانِ، ...، فَأَضرِبُها بِلا دَهَشٍ فَخَرَّت صَريعاً لِليَدَينِ وَلِلجِرانِ. والشاهد: لاقيت، فأضربها.

وقال الله تعالى: "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ" (آل عمران 3:110)، أي أنتم خير أمة أخرجت للناس.

وقوله تعالى: "مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا" (النساء 4:134).

وقوله تعالى: "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ" (فاطر 35:9).

& الالتفات من المخاطب إلى الغائب والعكس:

قال النابغة: يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد.

وقال عنترة: شطّت مزار العاشقين وأصبحت عسرا عليّ طلابك ابنة مخرم. فتحدث أولا عن ابنة مخرم، ثم تحدث معها.

وقال الهذلي: يا ويح نفسي كان جدة خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر، والشاعر هنا تحدث عن خالد، ثم تحدث معه.

وقال الله تعالى: "ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (33) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ" (القيامة 75:34).

& الالتفات من الفرد إلى التثنية والجمع والعكس:

تقول العرب: كثير الدرهم والدينار، والمقصود كثير الدراهم.

وقال الشاعر: هم المَوْلى وإن جنفوا علينا وإنا من لقائهم لزور. والمقصود هنا الموالي وهم العصبة وبنو العمومة.

وقال الشاعر: فقلنا أسلموا إنا أخوكم وقد برئت من الإحن الصدور، والمقصود أنا أخوكم.

وقال الشاعر: فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر وإن تتركاني أحم عرضا ممنعا. والمقصود إن تزجرني.

قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" (المؤمنون 23:51)، والمقصود هنا هو الرسول.

وقوله تعالى: "وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ " (المنافقون 63:4)، والمقصود هم الأعداء.

#2 ذكر الجزء والمراد به الكل:

قال تعالى: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ" (البلد 90:14)، وتم ذكر الجزء (الرقبة) والمقصود الكل (تحرير العبد).

وكذلك قال تعالى: "أو لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ" (الأنعام 6:145)، فإن اللحم هنا جزء وقُصِدَ به الكل.

#3 ذكر الكل والمراد به الجزء:

قال تعالى: "الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا" (التوبة 9:97)، وليس المقصود كل الأعراب، وإنما بعضهم.

وقال كذلك: "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" (الشعراء 26:224)، وليس المقصود كل الشعراء، وإنما بعضهم.

#4 ذكر الشيء باسمين:

قال عدي بن زيد: وقدمت الأديم لراهشيه وألفى قولها كذبا ومينا.

وقال الحطيئة: ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد.

وقال عنترة: حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم.

وقال الله تعالى: وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (البقرة 2:53). ونستطيع هنا القول إن التوراة قد تم ذكرها بصفتين: كتاب وفرقان.

#5 ذكر الفعل الواحد للجميع:

قال تعالى: "فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا" (الكهف 18:61)، والذي نسي هو غلام موسى.

#6 ذكر فعل الجميع للواحد:

قال حسان بن ثابت: إن شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يُعاص كان جنونا. والمقصود: ما لم يُعاصا.

وقال الشاعر: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف. والمقصود: والرأيان مختلفان.

قال تعالى: "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا" (الجمعة 62:11)، والمقصود: انفضوا إليهما.

وقال تعالى: "إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ" (ق 50:17)، والمقصود: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد.

#7 الجزاء عن الفعل بلفظه:

وهذا نوع من المشاكلة، إي جعل الكلمة شبيه بشكل الجوار.

قال تعالى: "الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (التوبة 9:79)، وهنا جاء الفعل من المشركين "فيسخرون" وجاء الجزاء عليه مشاكلة "سخر الله منهم".

وقال تعالى: "وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (آل عمران 3:54).

وقال تعالى: "الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (التوبة 9:67)، والمقصود في الآية: تركوا أمر الله فتركهم من رحمته.

#8 التكرار:

وهو عكس الاختصار.

قال الفراء: فأصبحن لا يسألنه عن بما به أصعَّد في غاوي الثرى أم تصوَّبا. والشاهد: عن بما به.

وقال عمرو بن مِلقط: ألفيَتا عيناك عندي اللقاء أولى فأولى لك ذا واقية. والشاهد: أولى فأولى.

وقال عدي بن زيد: وجعل الشمس مصرا لا خفاء به بين النهار وبين الليل قد فصلا. والشاهد: تكرار "بين".

وقال الشاعر: كم نعمة كانت لكم كم كم وكم. والشاهد تكرار كم لتبيان الكثرة في النعمة.

وقال عبيد بن الأبرص: هلا سألت جموع كندة يوم ولوا أين أينا. والشاهد: تكرار أين.

قال تعالى: "كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (التكاثر 102:4).

وقوله: "أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (34) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ" (القيامة 75:35).

وقوله تعالى: "فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" (الرحمن 55:68) ،، والنخل والرمان من الفاكهة.

وقوله تعالى: "يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (النبأ 78:38)، والروح من الملائكة.

وقول أحدهم آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر، والنهي عن الغدر هو بالضبط كالأمر بالوفاء، وهنا جاء التكرار بلفظين مختلفين.

وقوله تعالى: "وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ" (الروم 30:49)، فتكرر المعنى: من قبل.

وقوله تعالى: "وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (البقرة 2:60) ، والعيث هو الفساد.

وقول أحدهم: لا تجر عليه ولا تظلمه،، والجور هو الظلم وإنما تكرر الكلام بلفظين مختلفين .

وقول الشاعر: ألا حبذا هند وأرض بها هند، وهند أتى من دونها النأي والبعد.

#9 المجاز:

وهو تركيب غير مألوف له مقصد واضح.

قال الملبد بن حملة: يشكو إلي جملي طول السرى، يا جملي ليس إلي المشتكى، صبر جميل فكلانا مبتلى. والجَمَلُ لم يشك حقيقة وإنما هو مجاز يعبر عن كثرة الأسفار .

وقوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا" (سبأ 34:33)، والليل والنهار لا يمكران ولكن المكر يكون فيهما .

وقوله تعالى: "وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ" (يوسف 12:18)، والدم لم يكن كاذبا وإنما تم استخدامه للكذب.

#10 الكناية:

وهو وصف الشيء بشيء آخر، ووصف الاسم باسم آخر. وذكر الشيء والمراد غيره، ولكن المعنى يكون واضحا وليس خفيا .

ومنه الكنية إذ يتم استخدامها في مناداة وتسمية الشخص: "أبو فلان".

ومنه قول بشار بن برد: يا قرة العين إني لا أسميك، أكني بسلمى أسميها وأعنيك.

وقوله تعالى: "هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ" (البقرة 2:187)، فكنَّى عن المعنى بهذا الوصف.

وقوله تعالى: "أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ" (النساء 4:43)، وهذه كناية عن المعنى.

وقوله تعالى: "أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ" (النساء 4:43)، وهذه كناية عن المعنى.

#11 الإضمار:

وهو نوع من الحذف والاختصار.

ومنه قوله تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ" (النساء 4:23)، والمقصود التزوج وأضمرها.

وقوله تعالى: "فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ" (النساء 4:15)، والمقصود استشهدوا على زنائهن وأضمرها.

وقوله تعالى: "وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا" (الأعراف 7:155)، والمقصود اختار موسى من قومه سبعين رجلا.

وقوله تعالى: "فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (ص 38:32)، والمقصود الشمس.

وقوله تعالى: "فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (الشعراء 26:63) ، وأصل المعنى: أن اضرب بعصاك البحر، فضرب موسى البحر، فانفلق البحر،، فأضمر أن موسى قد ضرب البحر.

وقوله تعالى: "وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ" (البقرة 2:93)، أي أشربوا في قلوبهم حب العجل، فأضمر "الحب".

وقوله تعالى: "جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (الرعد 13:24)، والمقصود: الملائكة يقولون سلام عليكم.

#12 الاتساع:

وهو نوع من الاستعارة، ويكون بإقامة الكلمة موقف الأخرى اتساعا.

ومنه قوله تعالى: "يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ" (القلم 68:42)، أي عن شدة الأمر، وأصله إذا وقع الإنسان في أمر عظيم شمر عن ساقه واستعيرت الساق في موضع الشدة اتساعا. ومنه قول دريد بن الصمة: ميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على العزاء طلاع أنجد .

وقوله تعالى: "أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ" (الأنعام 6:122)، أي كافرا فهديناه، فاستعار الموت مكان الكفر والحياة مكان الهداية اتساعا.

ومنه قول الشاعر (معاوية بن مالك): إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا. والمقصود بالسماء هو المطر لأنه من السماء ينزل.

ويُقال: ضحكت الأرض إذا أنبتت، وبكت السماء إذا أمطرت.

ويُقال: ضرب الوالي اللص، وإنما الذي ضرب هو رجال الوالي بأمره.

ويُقال: بنى الرجل الدار، وإنما الذي بناها غيره بأمره.

وقوله تعالى: "وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ" (الأنفال 8:17)، والمقصود أن الرمي قد جاء بتأييد من الله.

قوله تعالى على لسان ابراهيم: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (إبراهيم 14:36)، والأصنام خشب وحجر لا تضل ولا تهدي ولكن الضلال جاء من خلالها فجاز ذكر ذلك اتساعا.

وقوله: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ" (البقرة 2:257)، وهم كفار لم يكونوا في نور.

وقوله تعالى: "فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ" (الدخان 44:29)، أي أهل السماء وأهل الأرض.

#13 الاستعارة:

العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاورا لها أو مشاكلا.

يقال للمطر سماء لأنه من السماء ينزل.

وقد يقول أحدهم: لقيت من فلان عرق الجبين، أي لقيت منه الشدة.

وقوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (النساء 4:49)، وقوله تعالى : "وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا" (النساء 4:124)،، والفتيل ما يكون في شق النواة، والنقير لنقرة التي في ظهرها، والمراد بالآيتين: أنهم لا يظلمون شيئا على الإطلاق.

وقوله تعالى عن سليمان: "فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ" (ص 38:32)، والمقصود بالخير هنا الخيل، وسماها خيرا لما فيها من منافع.

وقوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا" (الفرقان 25:47)، أي سترا حجابا لأبصاركم.

وقوله تعالى: "وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ" (الشعراء 26:84)، أي ذكرا حسنا.

قوله تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (النحل 16:112)، أي أبلاهم بها، لأن الخوف والجوع لا مذاق لهما وإنما هذا على الاستعارة.

#14 الحذف:

وهو نوعان: حذف لكلمات أو حذف لحروف وذلك من باب البلاغة أو الموسيقية في العبارات.

قال تعالى: "لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ" (الكافرون 109:2)، وتقديره: ما تعبدونه وحذفَ الهاء.

وقال تعالى: "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ" (الضحة 93:6) ، وتقديره: آواك، وحذفَ الكاف.

وقال تعالى: "فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ" (النساء 4:16)، والمقصود: ملك الموت. وتم الانتباه للحذف من قوله تعالى: "قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ" (السجدة 32:11). وانتبه أن النص لا يتطلب أن يكون للموت ملك واحد فقط.

وقوله تعالى: "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (يوسف 12:82)، والمقصود: واسأل أهل القرية وأصحاب العير.

والعرب قد تحذف الياء في النداء، ومنه قوله تعالى: "قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ" (هود 11:84)، والمقصود: يا قومي.

وقال تعالى "وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" (المطففين 83:3)، أي كالوا لهم ووزنوا لهم، وحذفَ اللام.

وقوله: "كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ" (النساء 4:56)، أي بدلنا لهم.

وقوله: "عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (القلم 68:32)، أي يبدل لنا.

وقوله تعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ" (البقرة 2:197)، والمقصود: وقت الحج.

وقوله تعالى: "وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ" (النحل 16:81)، والمعنى هو الحر والبرد وإنما اكتفى بذكر الحر وحذفَ البرد.

#15 الاختصار:

وهو الحذف في الكلام لعلم المخاطب به .

ومنه قوله تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ" (آل عمران 3:106)، والمقصود: يقال لهم أكفرتم، وإنما تم اختصارها.

وقوله تعالى: "وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا" (هود 11:61)، أي أرسلنا أخاهم صالحا.

وقوله: "إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ" (ق 50:17)، أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، واكتفى بذكر الثاني من الأول.

وقوله: "فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ" (يونس 10:71)، والمقصود أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

وقوله: "وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى" (النحل 16:61)، والمقصود ما ترك على الأرض من دابة.

وقوله: "فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا" (العاديات 100:4): أي بالوادي.

#16 الإشباع:

وهو إشباع الحرف بالمد.

ومنه قول عنترة: ينباع من ذِفْرى غضوب جسرة زيافة مثل الفنيق المُكْدم. والمقصود يَنبعُ، ولكن الباء قد تم إشباعها.

ومنه قول امرئ القيس: يا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل. والمقصود انجلْ" لأنها أمر مجزوم، وتم كسر اللام للضرورة الموسيقية ومن ثم تم اشباع اللام بالياء.

وقال الشاعر: قلت وقد خرت على الكَلْكالِ يا ناقتي ما جُلت من مَجالِ. والمقصود الكَلْكَل وتم إشباع الكاف.

وقال الله تعالى: "إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا" (الأحزاب 33:10). والمقصود الظنون وتم إشباع النون.

وقال الله تعالى: "يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا" (الأحزاب 33:66). والمقصود الرسول وتم إشباع اللام.

#17 الترخيم:

وهو حذف آخر حرف في الاسم.

ومنه قول جميل بثينة: قالت يا جميل أربتني فقلت كلانا يا بثين مريب، ويريد يا بثينة.

وقول كثير عزة: يا عَزَّ إن واش وشى بي عندكم فلا تَرهبيه أن تقولى له مهلا، كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا تزحزح لا قريبا ولا سهلا. وعز هي ترخيم لعزة، وفي البيت التالي ذَكَرَ الاسم دون ترخيم.

وقال امرؤ القيس: أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ. والمقصود أصاحب ورخَّمها.

وقال الشاعر: يا حارِ لا أُرْمَيَنْ مِنكُمْ بداهِيَةٍ لم يلقها سوقةٌ قبلي ولا ملكُ. والمقصود: يا حارث.

وفي قوله تعالى: "وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (الزخرف 43:77)، وهناك قراءة عن ابن مسعود: ونادوا يا مالِ.

#18 التوكيد:

والتوكيد والتأكيد كلمتان مترافدتان.

ومنه قوله تعالى: "أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء" (النحل 16:21).

وقوله تعالى: "فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ" (البقرة 2:196).

وقوله تعالى: وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (النحل 16:51).

وقوله: "وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم" (الأنعام 6:38)، والطيران لا يكون إلا بالجناح.

مثله قول القائل: جئتك بنفسي، ومشيت إليك برجلي، وكلمتك بلساني.

#19 الأضداد:

وهي كلمات يكون لها معان أضداد ومنها:

الحميم وتقال عن الماء الحار والبارد.

طلعت على القوم: إذا أقبلت عليهم وإذا غبت عنهم.

لمقت الشيء: إذا كتبته في لغة هذيل، وإذا محوته في لغة قيس.

وبعت الشيء: إذا بعته وإذا اشتريته.

الجون: هو الأسود وهو كذلك الأبيض.

#20 الزيادة في الحروف:

في قوله تعالى: وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (المؤمنون 23:20)، والباء هنا زائدة.

وقوله تعالى: "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا" (مريم 19:25)، والباء هنا زائدة.

والتاء زائدة في: ثمَّتَ والأصل: ثَمَّ. ورُبَّتَ: والأصل: رُبَّ.

والكاف زائدة في قول الشاعر: تنفي الغياديق عن الطريق قلص عن كبيضة في نيق. والمقصود: عن بيضة.

والكاف زائدة في قوله تعالى: " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " (الشورى 42:11).

#21 الزيادة في الكلمات:

بسم الله، فإن اسم هنا زائدة، والاصل: بالله

ومثله قوله تعالى: "تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" (الرحمن 55:78)، والاسم هنا زائدة.، أي أن أصل المعنى: تبارك ربك.

وقوله تعالى: "إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا" (الإنسان 76:9)، والوجه هنا زائدة.

وقوله: "فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ" (النور 24:63)، وعن هنا زائدة.

#22 التقديم والتأخير:

ومنها قول الشاعر: فأوردتها ماء كأن جمامه من الأجن حناء معا وصبيب، والمقصود: كأن جمامه حناء وصبيب معا.

ومنه قوله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (الكهف 18:2)، والمقصود: أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا.

وقوله: "وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى" (طه 20:129)، أي لولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان العذاب لزاما.

وقوله تعالى: "وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ" (هود 11:71)، والمقصود: بشرناها باسحق فضحكت .

23# المقلوب:

هو قلب الألفاظ وخصوصا عندما يتساوى الأصل مع المقلوب، فيكون القلب للتنبيه لهذا التساوي، أو يكون القلب للمبالغة في الوصف. والمقلوب هو نوع من التقديم والتأخير، إلا أن التقليب يكون في كلمات متجاورة.

قال الشاعر: وترى الثور فيها مدخل الظل رأسه وسائره باد إلى الشمس أهيع. والأصل : مدخل رأسه الظل. ولكن المنظر قد يوحي أن الظل قد دخل في الرأس وأن الرأس قد دخل في الظل، فكان قلب الأصل لتأكيد هذه الصورة.

والعرب تقول: أعرض الناقة على الحوض، وتريد: أعرض الحوض على الناقة.

ومنه قوله تعالى: "فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ" (إبراهيم 14:47)، أي: مخلف رسله وعده.

وقوله تعالى: "ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ" (النجم 53:8) ، أي: تدنى فدنا .

وقوله تعالى: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ" (القصص 28:76) ، والعصبة هي التي تنوء بالمفاتيح. وهذه كانت مبالغة في وصف الثراء عند قارون.

وقوله تعالى: "فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ" (الأعلى 87:5)، أي أحوى (شديد الخضرة) ثم يصير غثاء بعدما ييبس.

وقوله: "فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ" (فصلت 41:39)، أي: ربت واهتزت.

وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" (الاحزاب 33:49)، والمقصود: سرحوهن ومتعوهن.

ومثله قول الشاعر: حتى إذا احتدمت وصار جمرها مثل ترابها، والمقصود: وصار ترابها مثل الجمر.

ومثله قول الشاعر: وكأن لون أرضه سماؤه، والمقصود: كأن لون سمائه من غبرتها لون أرضه.

#24 استخدام الحروف عوضا عن أخرى:

وهو قيام العرب باستخدام أحرف عوضا عن الأخرى وذلك للتنبيه أو للمجاز أو الاستعارة (إلخ).

ويجب هنا التنبيه أن التفسيرات والتحليلات هنا هي اجتهادية من النحاة، ولكن وجود الشواهد اللغوية من العرب القدماء يرفع في مصداقية هذه التحليلات.

تُستخدم "عن" مكان الباء:

يُقال: رَمَيت عن القوس، والمقصود: رميت بالقوس.

قال امرؤ القيس: تَصُدُّ وتُبْدِي عَنْ أسِيْلٍ وَتَتَّقِي بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ. والمقصود: بِأسيل.

وقال تعالى: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ" (النجم 53:3). والمقصود: بالهوى.

تُستخدم "عن" مكان "على":

قال ذو الأصبع العدواني: لاهِ ابن عمك لا أفضلت في حَسَبٍ عني ولا أنت ديَّاني فتُخزيني. والمقصود: لا أفضلت في حسب عَليَّ.

وقال قيس بن خطيم: لَو أَنَّك تلقي حنظلا فَوق بيضنا تدحرج عَن ذِي سامه المتقارب. والمقصود: على ذي سامه.

تُستخدم "عن" مكان "بعد":

قال النابغة الجعدي: وَاِسأَل بِهِم أَسَداً إذا جُعَلَت حَربُ العَدُوِّ تَشُولُ عَن عُقمِ. والمقصود: بعد عقم.

وقال الشاعر: ومنهل وردته عن منهل قفر به الأعطان لم تسهّل. والمقصود: بعد منهل.

تُستخدم "عن" مكان "من أجل":

قال لبيد: لورد تقلص الغيطان عنه يبد مفازة الخمس الكلال. والمقصود: تقلص الغيطان من أجله.

وقال النمر: ولقد شهدت إذا القداح توحدت وشهدت عند الليل موقد نارها، عن ذات أولية أساود ريَّها وكأن لون الملح فوق إشارها. والمقصود: من أجل ذات أولية.

تُستخدم "في" مكان "على":

يُقال: لا يدخل الخاتم في إصبعي. والمقصود: على إصبعي.

وقال سويد بن أبي كاهل: هُمْ صَلَبُوا العَبْدِيّ فِي جِذعِ نَخْلَةٍ فَلا عَطَسَتْ شَيْبان إلا بأجْدَعا. والمقصود: على جذع نخلة.

وقال تعالى: "وَلَأُصَلِّبَنَّكُم فِى جُذُوعِ ٱلنَّخلِ" (طه 20:71). والمقصود: على جذوع النخل.

تُستخدم "في" مكان "إلى":

قال تعالى: "فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ" (إبراهيم 14:9). والمقصود: إلى أفواههم.

وقال تعالى: "قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا" (4:97). والمقصود: فتهاجروا إليها.

تُستخدم "في" مكان الباء:

قال الشاعر: وخضخضن فينا البحر حتى قطعته على كل حال من غمار ومن وحل. والمقصود: خضخضن بنا البحر.

وقال زيد الخيل: ويركب يوم الروع منا فوارس بصيرون في طعن الأباهر والكلى. والمقصود: بصيرون بطعن الأباهر.

تُستخدم "في" مكان "مع":

قال تعالى: "وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" (النمل 27:19). والمقصود: مع عبادك الصالحين.

وقال تعالى: "لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ" (العنكبوت 29:9). والمقصود: مع الصالحين.

تُستخدم "في" مكان "عند":

قال تعالى: "قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا" (هود 11:62). والمقصود: كنت عندنا مرجوا.

وقال تعالى: "قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا" (هود 11:91). والمقصود: عندنا.

تُستخدم "إلى" مكان "في":

قال النابغة: فلا تَتْرُكَنِّي بالوعيدِ كأَنَّني إلى الناسِ مَطْلِيٌّ به القارُ أَجْرَبُ. والمقصود: في الناس.

وقال طرفة: وانْ يلتقِ الحيُّ الجميع تلاقيني إلى ذِروةِ البَيتِ الرّفيع المُصَمَّدِ. والمقصود: في ذروة البيت.

تُستخدم "على" مكان "في":

يُقال: حصل كذا على ملك النعمان. والمقصود: في ملك النعمان.

قال تعالى: "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ" (البقرة 2:102). والمقصود: في ملك سليمان، وهذا هو اجتهاد الصُّحاري في كتاب الإبانة، ولكننا نظن أن "على" هنا مقصودة بمعناها الأصلي وتفسيره أن شياطين الإنس كانوا يَتَقَوَّلون الأكاذيب على سليمان ومُلْكِه.

وقال تعالى: "أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ" (البقرة 2:184). والمقصود: في سفر.

تُستخدم "على" مكان "عن":

يقال: رضيت عليك. والمقصود: رضيت عنك.

وقال الشاعر: إذا رَضِيَت عليَّ بنو قُشَيرٍ لعَمرُ اللهِ أَعجَبَني رضاها. والمقصود: رضيت عني.

وقال الأعشى: فمرَّ نضيُّ السهم تحت لبانه وجال على وحشيِّه لم يثمثم. والمقصود: جال عن وحشيه.

وكما ذكرنا سابقا فإن هذا الملحق هو نقل واختصار وبهدف العرض السريع لمواضيع البلاغة عند العرب، وللاستزادة فارجع إلى كتب البلاغة السابق ذكرها.

الملحق الثامن – النَّبي في التوراة والإنجيل

ضمن غلبة الظن عند المؤلف فإنه من غير المناسب محاولة اثبات الرسالة المحمدية بالتحاجج بالتوراة والإنجيل؛ وذلك لأننا (نحن المسلمين) على اقتناع بوجود التحريف في كل منهما، وبالتالي ليس من المناسب أن نتحاجج بجزء ونقوم بإهمال الجزء آخر.

والإنجيل هنا هو الإنجيل المسيحي وهي المؤلفات التي اعتمدتها الكنائس المسيحية أنها كتب مقدسة وقامت بتسميتها "العهد الجديد" (راجع 2.33). ويجب التنبيه هنا أن النصوص العربية من الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية قد أخذناها من "الأنبا تكلا هيمانوت" (راجع صفحة المراجع).

ولكن من المناسب أن ننظر في سطور التوراة والإنجيل لتفسير الآية: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ" (157 الأعراف)، ولكن هذا من أجلنا (نحن المسلمين) لتفسير الآية السابقة (والتي سنسميها للتسهيل بآية "يجدونه مكتوبا")، وليس بالضرورة من أجل الآخرين. وأما إذا أردنا أن نناقش المسيحية بالرسالة المحمدية فالأولى استخدام الطريقة الطبيعية التي ذكرناها في الفصل الثاني؛ وهي إثبات وجود الخالق ثم إثبات الرسالة المحمدية. وبالطبع من الممكن (وربما المناسب) لفت النظر إلى السطور الموجودة في التوراة والإنجيل ولكن ليس من المناسب التحاجج والتجادل فيها.

ويمكن وضع تفسيرين للتوراة في الآية السابقة:

- التفسير الحرفي: وهو أن التوراة هنا هي الكتب الخمسة الأولى من الكتب اليهودية (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية).
- التفسير المجازي: وهو أن التوراة هنا تعبير عن الجزء ويراد به الكل، أي أن التوراة هنا تعني كامل الكتب اليهودية المقدسة.

وأميل هنا للرأي الثاني حيث إنه من الواضح أن الإنجيل في الآية يُقصد بها الكتب المسيحية المقدسة، وبالقياس فإن التوراة هنا تعني الكتب اليهودية المقدسة. ويجب هنا التنبيه أنه من الضروري أن يتخصص بعض المؤرخين المسلمين في دراسة التوراة والإنجيل بشكل مستفيض وذلك لأهداف تاريخية وليست دينية؛ فالكتب اليهودية والمسيحية هما في النهاية موروث إنساني ومن المناسب دراستها على هذا الأساس، ولكنه من غير المناسب التحاجج باستخدام التوراة والإنجيل، ولا توجد الحاجة لذلك. وأما الطريقة الأكثر فعالية في الحُجَّة (ضمن وجهة نظر المؤلف) فهي الطريقة الطبيعية التي ذكرناها.

وبالتالي فإنه من المناسب النظر في الكتب اليهودية والمسيحية لتحديد " أين يُمكن أن يكون الرسول مذكورا فيها. ولكن يجب هنا التنبيه أنه ليس من الصدق والأمانة القيام بفبركة وهندسة النصوص كي تتوافق مع ما نريده، والذي معه الحق لا يكون بحاجة لفبركة النصوص وهندستها.

وبالتالي نسأل ... أين يمكن أن يكون الرسول مذكورا في التوراة والإنجيل؟

وهناك عدة نصوص غير صريحة ولكنَّها ذات درجة ظن جيدة:

#1 سفر التثنية (Deuteronomy 18.18): "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ". وهناك نص شبيه به في التثنية (18.15)، وفيه يتحدث موسى لقومه عن هذا النبي.

وهذا النص غير صريح:

- فكلمة "من وسط إخوتهم" قد تعني بني إسرائيل أو بني إبراهيم، وكلا المعنيين صحيح. وقد وردت هذه العبارة (من وسط إخوتهم among their brethren) عدة مرات في الأسفار الإسرائيلية وكانت تعني بني إسرائيل، ولكن ضمن حدود اللغة فإن النص السابق يسمح أن يكون المقصود كذلك بني إسماعيل.
- كلمة "مثلك" يمكن تفسيرها بأكثر من وجه: فمن الممكن القول إن الرسول عليه السلام يشبه موسى فيما يتعلق بالإنجازات: فكلاهما قد أنشأ ديانة وقوانين وأمَّة، ولكن موسى لا يُشبه الرسول تماما فموسى لم يُنشئ دولة، ومات مفارقا قومه. وفي المقابل يستطيع الطرف الآخر أن يقول إن الرسول لا يُشبه موسى: فموسى كانت معجزته العصا والثعبان، ومات عدوه غرقا إلخ.
- ونستطيع أن نعتبر العبارة "أجعل كلامي في فمه" أنها تعني القرآن، ولكن هل هذه العبارة صريحة في ذلك!

والذي نريد قوله هنا إن النص السابق ليس صريحا، ولكن يحق لنا أن نعتبر أن هذا النص يتعلق بالرسول عليه السلام: فهو نبي من بني إبراهيم وقد جاءنا كلام الله (القرآن) من فم الرسول عليه السلام، وكذلك هناك أوجه شبه واضحة بين إنجازات موسى والرسول عليهما السلام. وهذا الرأي ليس فيه كسر للغة أو هندسة للمعاني، فالنص يتسع لهذا الرأي.

#2 إنجيل يوحنا (John 1:19):

19 وَهذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا، حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟«
20 فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ، وَأَقَرَّ: «إِنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ.«
21 فَسَأَلُوهُ: «إِذًا مَاذَا؟ إِيلِيَّا أَنْتَ؟» فَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا». «أَلنَّبِيُّ أَنْتَ؟» فَأَجَابَ: «لاَ.«
22 فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ، لِنُعْطِيَ جَوَابًا لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا؟ مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ؟«
23 قَالَ: «أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، كَمَا قَالَ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ.«
24 وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ،
25 فَسَأَلُوهُ وَقَالُوا لَهُ: «فَمَا بَالُكَ تُعَمِّدُ إِنْ كُنْتَ لَسْتَ الْمَسِيحَ، وَلاَ إِيلِيَّا، وَلاَ النَّبِيَّ؟»

وهذا يدل أن اليهود كانوا ينتظرون ثلاثة أشخاص: المسيح وإيليا والنبي. وأما "إيليا" فهو نبي الله إلياس، والسبب في انتظار اليهود له أنهم يعتقدون أن إلياس قد صعد إلى السماء وأنه سيرجع.

وهذا النص يدل أن المسيح والنبي هما شخصان مختلفان، وأن النبي هنا يعود للنص في سفر التثنية الذي ذكرناه في النقطة السابقة. وهذا النص (في إنجيل يوحنا) هو كذلك ليس صريحا، ولكن يحق لنا أن نعتبر أن النبي في هذا النص يعود للرسول عليه السلام. وهذا الرأي ليس فيه كسر للغة ولا هندسة للألفاظ.

وهذه هي النقطة هنا ... نحن لا نبحث عن النصوص في التوراة والإنجيل كي نُحاجج الآخرين بها، ولكننا نبحث عن النصوص التي يُمكن أن تتعلق بالرسول والإسلام؛ وذلك من أجل تفسير آية "يجدونه مكتوبا".

#3 في سفر التثنية (Deuteronomy 33:2): فَقَالَ: "جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ".

ولكن "ربوات القدس" ليست في النصوص الإنجليزية. بل إن هناك خلافا في النصوص الإنجليزية لهذا النص:

- And he said, The Lord came from Sinai, and rose up from Seir unto them; he shined forth from mount Paran, and he came with ten thousands of saints: from his right hand went a fiery law for them (KJV).
- He said: “The LORD came from Sinai and dawned over them from Seir; he shone forth from Mount Paran. He came with myriads of holy ones from the south, from his mountain slopes (NIV).

وتفسير myriads أنها 10 آلاف أو عدد كبير جدا (dictionary.com).

وقد ذكرت التوراة "فاران" عدة مرات:

- فهو المكان الذي استقر فيه اسماعيل (سفر التكوين 21.12).
- وهو المكان الذي لجأ إليه اليهود بعد خروجهم من صحراء سيناء (سفر العدد 10.12).
- وهو كذلك في أول سفر التثنية (1.1) كما التالي: "هذَا هُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي كَلَّمَ بِهِ مُوسَى جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ، فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ، فِي الْبَرِّيَّةِ فِي الْعَرَبَةِ، قُبَالَةَ سُوفَ، بَيْنَ فَارَانَ وَتُوفَلَ وَلاَبَانَ وَحَضَيْرُوتَ وَذِي ذَهَبٍ".
- وقد أمضى داود بعض الوقت في فاران (سفر صومائيل 25.1).
- وقد ذهب الملك "هَدَد" الأدومي (عدو سليمان) إلى مصر عن طريق فاران (سفر الملوك الأول 11.18).

وبالتالي نستطيع القول إن فاران هي صحراء الجزيرة العربية على العموم وأنها مكة على الخصوص (والتي هي مكان إقامة إسماعيل). والنظرة عند بعض المتخصصين المسلمين أن هذا النص يتعلق بالإسلام، وأن العشرة آلاف هم الصحابة الذي قاموا بفتح مكة مع الرسول، وأن نار الشريعة هي القرآن. ومع أن هذا التحليل ليس صريحا إلا أنه ممكن ومقبول من حيث اللغة والتاريخ.

#4 سفر أشعياء (Isaiah 42:1):

1 هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ. 2 لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ. 3 قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِئُ. إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ. 4 لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ.

ويحق لنا (نحن المسلمين) أن نقول إن الرسول هو المقصود في هذا النص، فهو الوحيد الذي تم إرساله للأمم، وقد تأسست الدولة الإسلامية في عهده. وبالطبع يوجد هنا وصف لا نستطيع تحديد المعنى المقصود منه: "الجزائر".

ومن المفيد القيام بوضع الاحتمالات التالية لهذا النص:

- هذا النص ليس نبويا وإنما قد تم تأليفه من أحدهم، والعلاقة بين هذا النص والرسول هي صدفة محضة.
- هذا النص نبوي ويتعلق بالرسول.
- هذا النص نبوي ولا يتعلق بالرسول.

ولكننا هنا لا نستطيع القول إن هذا النص نبوي، فنحن حقيقة لا نعلم إن كان أشعياء نبي أم لا، ولا نعلم حقيقة إن كان أشعياء قد قال هذه النصوص أم لا. ولهذا فإنّ هذه النصوص ليست حجة عندنا وإنما هي حجة لمن يُؤمن بها. ولكننا نبحث هنا عن النصوص في الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية والتي يُمكن أن يكون الرسول قد ذُكر فيها وذلك تفسيرا للآية "يجدونه مكتوبا". ولهذا فنحن لا نبحث عن كون النصوص نبوية أو لا، وإنما نبحث: هل يُمكن لهذه النصوص أن تتعلق بالرسول. ونص أشعياء ليس صريحا ولكنه يحمل درجة ظن جيدة أنه يتعلق بالرسول عليه السلام.

#5 سفر حجي (Haggai 2:6):

6 لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: هِيَ مَرَّةٌ، بَعْدَ قَلِيلٍ، فَأُزَلْزِلُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَالْيَابِسَةَ، 7 وَأُزَلْزِلُ كُلَّ الأُمَمِ. وَيَأْتِي مُشْتَهَى كُلِّ الأُمَمِ، فَأَمْلأُ هذَا الْبَيْتَ مَجْدًا، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ.

وكلمة "مشتهى" في العبرية هي "חֶמְדַּת" وتقرأ "خمدات" وأحد معانيها "المحمود"، وبالتالي يُمكننا ترجمة النص: ويأتي محمود كل الأمم.

#6 هناك رؤيتان لـ دانيال (Daniel) تثيران الانتباه. وللتنبيه فنحن (المسلمين) لا نعلم إن كان دانيال نبيا أم لا، ولا نعلم إذا كانت تفاصيل الرؤيا من دانيال أم من غيره، وفي الحقيقة فإن هناك الكثير من أهل الاختصاص الذين يُدَلِّلون أن كتاب دانيال قد تم تأليفه في القرن الثاني قبل الميلاد (المرجع: Martin)؛ وذلك لأن الإصحاح 11 يكاد ينطبق على أنطيوخوس الرابع (Antiochus IV) الملك السلوقي باستثناء الفقرات الثلاثة الأخيرة، مما وضع الافتراضية التي تقول إن كاتب هذه الرؤيا قد وضعها في حياة أنطيوخوس وقبل موته عام 164 ق.م.

ويغلب على التخمين أن نصوص دانيال ليست نبوية، ومن الممكن أن يكون أصل هذه النصوص رؤيا لأحدهم، والرؤيا الصحيحة قد تأتي للصَّالح وقد تأتي لغير الصالح، وإذا كان أصل هذه الرُّؤى صحيحة فلربما جاءت إليها بعض الإضافات لاحقا؛ إذ إنَّ فيها تفاصيل تُثير التَّعجب، وفيها كذلك تفاصيل خاطئة. وحيث إنَّ اليهود والمسيحيين يعتبرون دانيال أحد أنبيائهم، وكتابه هو أحد الكتب المقدسة لديهم فإنه يحق لنا أن ننظر في هذا الكتاب وذلك في تفسير آية "يجدونه مكتوبا". وتوجد في هذا الكتاب رؤيتان تُثيران الاهتمام:

 # رؤيا الصنم (سفر دانيال الاصحاح 2) وفيه يحلم بختنصر (ملك الكلدانيين الذي سبى اليهود إلى بابل) حلما مزعجا، ويطلب الملك من مساعديه أن يخبروه عن الحلم الذي رآه وتفسيره، وقد قام دانيال بذكر الرُّؤيا وتفسيرها وكان اختصارا: أن الملك قد شاهد تمثالا رأسه من ذهب، وصدره وذِراعاه من فضة، وبطنه وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه بعضهما من حديد والآخر من خزف،، ثم شاهد الملك (في الحلم) حجرا يضرب التمثال فينهار التمثال ويتحول إلى غبار، ثم يتحول الحجر إلى جبل كبير يملأ الأرض.

وكان تفسير دانيال للحلم أنها تُعَبِّر عن خمس ممالك ستأتي متلاحقة، والمملكة الأولى هي مملكة بختنصر وهي الرأس من ذهب، ثم تأتي مملكة أخرى بعدها أصغر من الأولى، ثم تأتي بعدها مملكة أخرى تتسلط على الأرض، ثم تأتي بعدها مملكة تكون قوية كقوة الحديد ولكن هذه المملكة فيها نقاط ضعف وذلك بسبب اختلاط الخزف مع الحديد. ثم ستأتي المملكة الأخيرة والتي ستبقى إلى الأبد.

الآن ... الرُّؤيا كانت في مدينة بابل، وإذا نظرنا إلى الممالك التي حكمت بابل منذ عهد بختنصر فإننا سنجد التالي:

1. وقعت بابل في حكم المملكة البابلية الحديثة منذ عام 627 إلى 539 ق.م،، وقد كان بختنصر أحد ملوكها (الرأس من الذهب).
2. ثم حكمها الفرس الأخمينيون وهي الدولة التي أسسها كورش الكبير (الصدر من فضة).
3. ثم أخذها الاسكندر الأكبر، وكان هذا بداية الحكم اليوناني لها (البطن من نحاس).
4. ثم حكمها الفرس البارثيون – الإمبراطورية الفرثية (الساقان من حديد)
5. ثم حكمها الفرس الساسانيون.
6. ثم حكمها المسلمون.

وهنا تأتي مشكلة بين الرُّؤيا والواقع، فالواقع يدل على وجود ست مملكات تعاقبت على بابل من بختنصر إلى الآن، وأما الرؤيا فهي توحي بوجود خمس مملكات. وهناك تفسير لذلك: وهو أن المملكة الساسانية هي امتداد للمملكة البارثية؛ حيث إن مؤسس المملكة الساسانية كان واليا تابعا للمملكة البارثية. وبالتالي يكون الفرس البارثيون هم الساقين من حديد، والساسانيون هم القدمين من حديد وخزف.

وعلى أية حال فإن آخر مملكة حكمت وما زالت تحكم بابل هي دولة الإسلام.

وإما إذا قالوا إنَّ التمثال في الرؤية يجب أن يقع في القدس فإن ترتيب الممالك يكون كالتالي:

1. وقعت القدس في حكم المملكة البابلية الحديثة في عهد بختنصر (الرأس من ذهب).
2. ثم حكمها الفرس الأخمينيون (الصدر من فضة).
3. ثم حكمها الاسكندر واليونان (البطن من نحاس).
4. ثم حكمها الرومان (الساقان والقدمان من حديد).
5. ثم حكمها المسلمون.

وبالنسبة للرومان فإن الساقين الحديدين يُمثِّلان الجمهورية الرومانية، والقدمين من حديد وخزف يُمثِّلان الإمبراطورية الرومانية.

وقد قامت بعض المراجع المسيحية بشرح الرؤيا من خلال الترتيب التالي: 1- المملكة البابلية هي الرأس من ذهب 2- الفرس الأخمينيون هم الصدر من فضة 3- اليونان هم البطن من نحاس 4-الرومان هم الساقان من حديد والأقدام من حديد وخزف،، وأما المملكة التي ستبقى إلى الأبد فهي المملكة الروحية للسيد المسيح. وهذا الترتيب ليس مقبولا من حيث الواقع التاريخي: إذ إن مملكة المسيح المقترحة لم تُنهي وجود الرومان، وجاء المسلمون بعد الرومان.

ومع أن هذه الرؤيا تثير التعجب إلا أن هناك مشكلة فيها؛ فالمملكة الثانية (الفرس الأخمينيون) كانت أكبر وأقوى من المملكة البابلية، وليس العكس كما في تفسير الرؤية.

الآن ... إذا أردنا أن نقول إن هذه الرؤيا كانت تأليفا من أحدهم في عهد الحُكم اليوناني لفلسطين، فإننا نستطيع ترتيب الممالك حسب ما أراده ذلك المؤلف كما التالي:

1. وقعت القدس في حكم المملكة البابلية الحديثة في عهد بختنصر (الرأس من ذهب).
2. ثم حكمها الفرس الأخمينيون (الصدر من فضة).
3. ثم حكمها الاسكندر (البطن من نحاس).
4. ثم حَكَمتها الدولة السلوقية اليونانية (الساقان والقدمان من حديد).

وبالتالي فإن "مؤلف هذه الرؤيا" قد اعتبر المَمَالك بالعائلات وليس الثقافة، وبالتالي فإن مملكة الاسكندر مختلفة عن المملكة السُّلوقية. وهذا ممكن؛ حيث إن كثيرا من المؤرخين يُمَيِّزون الممالك بالعائلات. ولكنَّ الظاهر أنَّ الرؤيا الموجودة في الإصحاح السابع (والتي سنشرحها في الباب التالي) تتحدث عن الرومان، وهنا يجب التنبيه لوجود درجة ظن جيدة أن هذه الرُّؤى قد تم وضعها في الكُتب قبل دخول الرومان إلى فلسطين. وهذا ما يُثير التَّعَجُّب فيها.

 # رؤيا الوحوش الأربعة (سفر دانيال الاصحاح 7)، وهي رؤيا رآها دانيال وجاءه تفسيرها، وهذه الرؤيا باختصار: أنه شاهد أربعة وحوش تظهر من البحر الكبير، أولها كان أسدا والثاني دبا في فمه ثلاثة أضلاع، والثالث نمرا بأربعة رؤوس، والأخير كان وحشا ضخما داس على الجميع. وكان للوحش عشرة قرون وإذا بقرن صغير يخرج ويقلع الثلاثة قرون الأولى ويتكلم بأمور عظيمة (سيئة شديدة كافرة)، ثم جاء "مثل ابن الإنسان" وأخذ مُلكا أبديا لا ينقرض.

وكان تفسير الرؤيا هو ظهور أربعة ممالك ثم يأخذ القديسون المملكة إلى الأبد. وأما القرون العشرة فهم عشرة ملوك، ويخرج منهم قرن صغير "وَهُوَ مُخَالِفٌ الأَوَّلِينَ، وَيُذِلُّ ثَلاَثَةَ مُلُوكٍ. وَيَتَكَلَّمُ بِكَلاَمٍ ضِدَّ الْعَلِيِّ وَيُبْلِي قِدِّيسِي الْعَلِيِّ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ يُغَيِّرُ الأَوْقَاتَ وَالسُّنَّةَ".

ويوجد في النص عبارة نراها غير مقبولة من حيث المفاهيم الإسلامية وهي عبارة تصف الله بالشكل التالي:

"9 كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ وُضِعَتْ عُرُوشٌ، وَجَلَسَ الْقَدِيمُ الأَيَّامِ. لِبَاسُهُ أَبْيَضُ كَالثَّلْجِ، وَشَعْرُ رَأْسِهِ كَالصُّوفِ النَّقِيِّ، وَعَرْشُهُ لَهِيبُ نَارٍ، وَبَكَرَاتُهُ نَارٌ مُتَّقِدَةٌ". وفي هذا النص تجسيم لله ولا نظن أن هذا النص يُمكن أن يقوله نبي.

والبحر الكبير هو البحر الأبيض المتوسط، والمنطقة المعنية هي شرق هذا البحر (لأن دانيال رآى الوحوش تخرج من البحر الكبير، وهو في هذه الحالة في شرق هذا البحر) وهناك عدة ممالك ضخمة قد حكمت هذه المنطقة منذ وقت دانيال وهي:

1. المملكة البابلية الحديثة (والتي كان بختنصر أحد ملوكها)، وهي تمثل في الرؤيا الأسد.
2. الفرس الأخمينيون (والتي أسسها كورش الكبير) وهي تمثل في الرؤيا الدب. والثلاثة أضلاع لها تفسيران وهي أن المملكة قد استولت على أكبر ثلاث ممالك في الأرض وقتها وهي الدولة البابلية والمصرية والأناضولية (Lydia)، والتفسير الثاني أن الفرس وقتها كان لهم وجود في القارات الثلاثة المعروفة وهي آسيا وليبيا وأوروبا (وقد كانت قارة أفريقيا تُسمى سابقا ليبيا).
3. الممالك اليونانية وهي تمثل في الرؤيا النمر ذا الأربعة رؤوس. وقد أسس الاسكندر المقدوني هذه المملكة، وبعد وفاته اتفق الجنرالات الكبار الأربعة على تقسيم البلاد بينهم: فأخذ بطليموس (Ptolemy) مصر، وأخذ كاساندر (Cassander) اليونان، وأخذ ليسيماخوس (Lysimachus) الأناضول وبلاد الشام، وأخذ سيلوقوس (Seleucus) إيران والعراق,
4. ثم جاء الرومان وحكموا المنطقة.
5. ثم جاء المسلمون.

وهناك عدة ممالك صغيرة قد حكمت جزءا من المنطقة ومنها المملكة الحسمونية اليهودية (164 إلى 63 ق.م) ومملكة تدمر (260 إلى 273 ميلادية) ومملكة الأنباط (169 ق.م – 106 ميلادية) ولكن لم يكونوا بالضخامة كما السابقين وكانت مناطقهم محددة، وأما الممالك الضخمة فكانت كما سبق.

وهنا نرجع إلى نفس النهاية، وهي أن المسلمين هم الذين جاءوا بعد المملكة الرابعة، كما كانوا هم الذين جاءوا بعد المملكة الرابعة في رؤيا الصنم. وهناك من يُهمل هذا التاريخ ويعتبر أن المملكة الخامسة (بعد الرومان) هي مملكة المسيح الروحية، وبعضهم من يعتبر أن المملكة الخامسة هي مملكة المسيح بعد رجوعه إلى الأرض، وفي الحالتين فَهُم يُهملون الوجود الإسلامي في التاريخ والمنطقة.

وبالنسبة لتفسير القرون العشرة والقرن الصغير فإن أفضل تفسير ممكن له (وإن كان غير مطابق تماما) أن القرن الصغير هو الامبراطور "قسطنطين الأول" (Constantine I) الذي تَبَنَّى الديانة المسيحية وأسس مدينة القسطنطينية وجعلها العاصمة للإمبراطورية الرومانية. وقد تعارك قسطنطين مع عدة أباطرة (حيث كانت الامبراطورية الرومانية مقسومة إلى عدة أجزاء وكل جزء يحكمه إمبراطور) وكان والد قسطنطين هو أحد أولئك الأباطرة وكان يحكم وقتها انجلترا، وعندما مات الأب فإن الجنود قد رفعوا ابنه (قسطنطين) إمبراطورا، وهنا بدأ قسطنطين الصراع ضد الأباطرة الآخرين من أجل أخذ حُكم الإمبراطورية كاملة، وقد نجح في ذلك. ونستطيع القول إنه الوحيد الذي تصارع مع عدة أباطرة في التاريخ الروماني.

وقسطنطين قد تَبَنَّى الديانة المسيحية وتَبَنَّى كذلك مبدأ الثلاثة (Trinitarianism) والذي يعتبر أن الإله والابن والروح القدس هم ثلاثة وهم واحد في الوقت نفسه، وهذا معناه أن المسيح قد أصبح إلهًا أزليا في الوجود، وتم هذا في مؤتمر نيقية (Nicaea). وكذلك تم في هذا المؤتمر نفي المسيحيين الذين لم يقبلوا ذلك القرار ومنهم جماعة آريوس (Arius) الذي كان يقول إنَّ المسيح مخلوق. وكان من قرارات قسطنطين جعل يوم الأحد يوم الراحة الأسبوعي في الإمبراطورية، وجعل العيد الرسمي لولادة المسيح في 25 من ديسمبر (وهو يوم عيد وثني معروف).

وما سبق يُقدم حلا ممكنا لموضوع القرن الصغير الذي يتكلم بالأمور العظيمة. ويبقى تحديد ماهية العشرة قرون السابقة للقرن الصغير وماهية القرون الثلاثة الأولى:

لقد ظهرت أزمة في التاريخ الروماني تم تسميتها بـ "أزمة القرن الثالث"، وكان فيه صراع شديد على السلطة. واستطاع دقليانوس (Diocletian) أن يتولى الحكم ويسيطر على الوضع عام 284 ميلادية. وقد ابتدع نظاما في الحكم تم تسميته بالنظام الرباعي (Tetrarchy) وفيه تم تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين كل منهما يحكمه إمبراطورا (وبالتالي فإن الإمبراطورية كان يحكمها إمبراطوران)، وكذلك تم تعيين قيصرين ويكونان مساعدين للإمبراطورين، ويكونان كذلك خليفتين لهما. وقد أخذ دقليانوس حكم الشرق وقام بتعيين مكسيميانوس (Maximian) إمبراطورا مشاركا له في حُكم الغرب وذلك في عام 286 ميلادية. وقام بتعيين كل من غاليريوس (Galerius) وقسطنطيوس (Constantius) قيصرين مساعدين في الحكم وذلك في عام 293 ميلادية.

وفي عام 305 ميلادية قرر دقليانوس أن يقوم هو ومكسيميانوس بالاستقالة من الحكم وتسليمه للقيصرين، وهنا تولى حُكم الإمبراطورية غاليريوس وقسطنطيوس وتم تعيين سيفيروس (Valerius Severus) ودايا (Maximinus Daia) قيصرين مساعدين في الحكم.

وتوفى فجأة قسطنطيوس عام 306 ميلادية، وهنا أعلن الجيش الموالي لقسطنطيوس تعيين ابنه "قسطنطين" إمبراطورا، ولكن غاليريوس وافق على تعيين قسطنطين قيصرا (لا إمبراطورا) وقام بتعيين سيفيروس إمبراطورا مشاركا عوضا عن قسطنطيوس. واستطاع مكسنتيوس (Maxentius) بن مكسيميانوس أن يحوز من القوة ما يكفي للقضاء على سيفيروس وإعلان نفسه إمبراطورا في إيطاليا عام 307 ميلادية.

وقام غاليريوس بتعيين ليسينيوس (Licinius) إمبراطورا مشاركا، واعترض دايا على ذلك (وقد كان وقتها حاكما لمصر وبلاد الشام) وقام بإعلان نفسه إمبراطورا . وكذلك فعل قسطنطين، وفي النهاية ووافق غاليريوس على تعيين كل منهما إمبراطورا عام 310. وفي ذلك العام حاول مكسيميانوس الانقلاب على قسطنطين لكنه فشل، وقد أجبره قسطنطين على الانتحار. وفي عام 311 توفى غاليريوس. وقامت الحرب بين قسطنطين ومكسنتيوس وانتصر فيها قسطنطين عام 312 وتم القضاء على مكسنتيوس، واستطاع قسطنطين أخذ إيطاليا. وفي عام 313 استطاع ليسينيوس القضاء على دايا. وقام ليسينيوس بتعيين فالين (Valerius Valens) إمبراطورا مشاركا ولكن تم إعدام فالين في السنة التالية. وقام ليسينيوس بتعيين مارتينيان (Martinian) إمبراطورا مشاركا عام 324 ميلادية، واستطاع قسطنطين في السنة نفسها الانتصار عليهما، وتم إعدامهما. وهنا أصبح قسطنطين إمبراطورا أوحدا عام 325 ميلادية.

وأما دقليانوس (الإمبراطور الذي صنع النظام الرباعي) فقد مات عام 311، وذلك بعد أن وجد أن نظامه الرباعي قد فشل، ويُظَنُّ أنه قد مات انتحارا.

وفي هذه القصة يوجد 10 أباطرة غير قسطنطين: دقليانوس Diocletian، مكسيميانوس Maximian، غاليريوس Galerius، قسطنطيوس Constantius، سيفيروس Severus، دايا Daia، مكسنتيوس Maxentius، ليسينيوس Licinius، فالين Valens، مارتينيان Martinian.

وأما الثلاث أباطرة الأوائل فدقليانوس مات لا حولا له ولا قوة ويُظن أنه انتحر، وتم اجبار مكسيميانوس على الانتحار. ونقطة الضعف في التفسير السابق أن غاليريوس قد مات عزيزا في قومه (وبالتالي فإن أحد القرون الثلاثة الأوائل لم يمت ذليلا حسب الرؤيا لدانيال) ولكننا نستطيع أن نضع تفسيرا ممكنا وهو أن الوفاة المفاجئة لقسطنطيوس (والد قسطنطين) لم تكن طبيعية وأنَّ لقسطنطين يدًا في ذلك، وفي هذه الحالة يكون قسطنطين قد خلع الأباطرة الثلاثة الأوائل.

والأمور التي تثير التعجب في هذه الرؤيا هي:

- التنبأ بظهور الرومان في فلسطين.
- قصة قسطنطين والقرون العشرة، وكون قسطنطين "يَتَكَلَّمُ بِكَلاَمٍ ضِدَّ الْعَلِيِّ وَيُبْلِي قِدِّيسِي الْعَلِيِّ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ يُغَيِّرُ الأَوْقَاتَ وَالسُّنَّةَ".

والأمور التي نراها خاطئة:

- تجسيد الرَّب في الرؤيا.
- من الممكن اعتبار اليونان والرومان أنهما وحشان قد دخلا إلى فلسطين من البحر وذلك لأن اليونان والرومان هم في الغرب، ولكنَّ البابليين والفرس لم يدخلوا فلسطين من البحر لأنهم من الشرق. ولكننا نستطيع تجاوز هذه النقطة على أنها مجاز.
- قسطنطين قد أذل ستة أباطرة (أول ثلاثة وآخر ثلاثة)، ولكنه في الرؤيا قد أذل ثلاثة أباطرة.

ويوجد كذلك نص غامض في الرؤيا وهو: "وَيُسَلَّمُونَ لِيَدِهِ إِلَى زَمَانٍ وَأَزْمِنَةٍ وَنِصْفِ زَمَانٍ". وهناك من اعتبر أن الزمان هو عقد (10 سنوات) وبالتالي فإن المجموع يكون: زمان وزمانان ونصف زمان وتساوي 35 سنة وهي مدة حكم قسطنطين ولكن هذه التحليل غير صحيح لأن قسطنطين قد حكم 31 سنة (306 إلى 337 ميلادية). وربما نقول إن الزمن هو القرن، وبالتالي يكون المجموع 350 سنة، هو حُكم قسطنطين ومذهبه في فلسطين، وقد جاء المسلمون إلى فلسطين عام 636 ميلادية، أي بعد أكثر من 300 سنة من ظهور قسطنطين. ولكن يُمكننا القول إنَّ هذا التشابه هو صدفة محضة؛ إذ لا يوجد أي نص أو إثبات يُفيد أن الزمان في هذه الرؤيا يعني القرن. وكذلك كيف سنبدأ حساب المُدَّة: هل هي من يوم استلام قسطنطين الحكم (306 ميلادية)، أو من يوم ايمانه بالمسيحية (312)، أو من اليوم الذي فرض فيه الأحكام المتعلقة بالمسيحية (325) أم من يوم وفاته (337). ولهذا فالموضوع غامض ولا يُمكن اعتماده في التحليل.

على أية حال ... يوجد في هذه الرؤيا تفاصيل تُثير التعجب وقريبة من الواقع، وفيها كذلك بعض التفاصيل الخاطئة. ويغلب على التخمين أنها ليست رؤيا نبوية، ولكنها ربما تكون رؤيا صحيحة لأحدهم وتم وضع

الإضافات فيها لاحقا. ولكننا في تحليل هذه الرؤيا (والموجودة في الكتب اليهودية المقدسة) نقول إن المملكة الخامسة فيها هم المسلمون.

#7 سفر التكوين (Genesis 17.20): وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً.

ولكن في النص الإنجليزي وترجمة الجوجل للنص العِبري فإن النص هو: وأجعله أمة عظيمة. وهذه النبوءة قد تحققت بظهور الرسول: فالإسماعليون (وعموم العرب) لم تكن لهم أمة عظيمة قط قبل ظهور الرسول.

#8 إنجيل مرقس (Mark 1.7): وَكَانَ يَكْرِزُ قَائِلًا: «يَأْتِي بَعْدِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَنْحَنِيَ وَأَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ.

وهذا النص عن النبي يحيى، وفيه يقول عن شخص سيأتي من بعده، والمسيح لم يأت بعد يحيى وإنما جاء أثناء وجود يحيى، وبالتالي فإن هذه البشارة لا تتعلق بالمسيح وإنما تتعلق بنبي آخر.

#9 إنجيل متَّي (Matthew 7.16): مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبًا، أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا؟ 17 هكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، 18 لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، وَلاَ شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً. 19 كُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. 20 فَإِذًا مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ.

ونستطيع استخدام هذا النص للدلالة على صدق الرسول؛ فالرسول قد جاء إلى العرب وهم في الجاهلية يعبدون الأصنام ويظلمون بعضهم بعضا. وإذا بالرسول ينقلهم من الضلالة إلى الهدى، ومن أعمال الباطل إلى أعمال الخير، ومن قوانين الجاهلية إلى قوانين العدالة. وهذا بالضبط ما جاء في النص الإنجيلي: مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ.

#10 إنجيل يوحنا (John 4.19): قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: يَا سَيِّدُ، أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ! 20 آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هذَا الْجَبَلِ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيهِ 21 قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ، لاَ فِي هذَا الْجَبَلِ، وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ.

وهذه المرأة من السامريين، وقد كانوا يتجهون في صلاتهم إلى جبل جرزيم في السامرة (نابلس في فلسطين)، وأخبرها المسيح أنه ستأتي ساعة لا يُصَلُّون باتجاه الجبل ولا إلى القدس. وهذا تحقق تماما: فتعداد السامريين قبل الإسلام كان حوالي المليون، وأما تعدادهم الآن فحوالي الألف. والسبب هو أن السامرين قد اعتنقوا الإسلام أفواجا أفواجا بعد دخول الإسلام إلى فلسطين، وهذا مصداق لبشارة المسيح في هذا النص.

#11 سفر أعمال الرسل (Acts 3.21): الَّذِي يَنْبَغِي أَنَّ السَّمَاءَ تَقْبَلُهُ، إِلَى أَزْمِنَةِ رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ، الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا اللهُ بِفَمِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ. 22 فَإِنَّ مُوسَى قَالَ لِلآبَاءِ: إِنَّ نَبِيًّا مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ. لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ.

وهذا النص هو بلسان بطرس (Peter)، أحد الحواريين، وهو يتحدث عن المسيح. وأحد التفاسير لهذا النص هو أن على المسيح أن يبقى في السماء إلى "أزمنة رد كل شيء"، والتي شرحها بطرس ببشارة موسى التي تتعلق بالنبي الموعود. وبالتالي يحق لنا القول إن المسيح سيبقى في السماء إلى أن يأتي هذا النبي الموعود.

#12 موضوع البارقليط (المُعَزِّي):

قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ" (الصف 6).

وعند النظر في الأناجيل المسيحية فإن أقرب النصوص للآية هو ما يتعلق بـ البارقليط (المُعَزِّي):

يوحنا (14.16): وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، 17 رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ.

يوحنا (14.26): 26 وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ.

يوحنا (15.26): «وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي.

يوحنا (16.7): لكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ: إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ، لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي، وَلكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ.

يوحنا (16.12): «إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. 13 وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. 14 ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ.

ويقول المسيحيون عن البارقليط إنَّه الروح القدس، ولكن هذا مستبعد؛ فحسب النصوص المسيحية واليهودية فإنَّ الروح القدس كان موجودا قبل ظهور المسيح وأثناء وجوده (مثلا سفر القضاة 3.10، أشعياء 11.2، مرقس 12.36، لوقا 3.22، إلخ).

وكذلك فإن "الروح" في النصوص المسيحية قد تعني أشخاصا، فمثلا في رسالة يوحنا الأولى (4.1): أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لاَ تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ، بَلِ امْتَحِنُوا الأَرْوَاحَ: هَلْ هِيَ مِنَ اللهِ؟ لأَنَّ أَنْبِيَاءَ كَذَبَةً كَثِيرِينَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى الْعَالَمِ.

ويحق لنا الاستنتاج أنَّ البارقليط هو شخص يأتي بعد المسيح، والدليل على ذلك هو قول المسيح عنه إنَّه سيتحدث معهم ويُخبرهم ويُعلمهم ويُرشدهم، وهذه في العموم تتعلق بإنسان يتحدث وليس روحًا تُوحي (راجع أحمد ديدات، المرجع: Deedat-2, 00:30:00).

وكذلك فإن البارقليط (Parakletos – παράκλητος) له عدة معاني: المُعَزِّي (Comforter)، المُحامي (Advocate)، المُشير (Counsellor)، المُعين (Helper)، الشَّفيع (Intercessor)، إلخ. ولكن لا يوجد معلومات تحدد المعنى المقصود في هذه الكلمة. وهناك بعض العلماء المسلمين الذين اقترحوا أن هذا الاسم ربما قد تم تحريفه من "البيرقليط" (Periklytos – περικλυτός) والتي ربما تعني "كثير الحمد". ولكن لا يوجد أي دليل على ذلك.

وكذلك يوجد تعارض واضح بين "آية أحمد" ونصوص الإنجيل: فإن اسم هذا الشخص هو البارقليط، وسيرسله الله باسم المسيح، بل إنَّ المسيح هو الذي سيُرسل البارقليط. وهذه الأمور كلها لا تتفق مع الآية.

وبالتالي فإنَّ الأمانة تتطلب أن لا نستخدم نصوص البارقليط في تفسير آية "يجدونه مكتوبا" وذلك لأن هذه النصوص ليست واضحة أنها تتعلق بالرسول. ولكنه يَحِقُّ لنا القول إن "آية أحمد" قد تتعلق بنصوص البارقليط لأنه من الواضح أن هذه النصوص تتعلق بنبي يأتي بعد المسيح، وربما تَحَرَّفَت كلمات المسيح (والتي كانت بالآرامية) وذلك بسبب الخطأ الناتج عن انتقال القصة من شخص إلى آخر (Oral Tradition) حتى تم تسجيلها في إنجيل يوحنا. ولكنَّا لا نستطيع قول ذلك يقينا لأن هذه النصوص ليست واضحة تماما.

وهذا ما نقوله هنا ... كلمة البارقليط لا تتعلق بـ "الحمد والتَّحميد". ولكنه يحق لنا القول إنَّ نصوص البارقليط "قد" تتوافق مع "آية أحمد" فيما يتعلق ببشارة المسيح لنبي يأتي من بعده. وفي هذه الحالة فإنَّ هذه النصوص ربما قد جاءها التحريف بسبب انتقالها من لسان إلى آخر. والأمل أن نجد يوما نسخا قديمة للإنجيل تشرح بوضوح هذا الأمر. وإلى أن يأتي ذلك اليوم فإننا لا نستطيع الاعتراض على الترجمة الحالية للبارقليط أنها "المُعَزِّي". ولهذا نقول إنَّ نصوص البارقليط لا تكون ضمن تفسير آية "تجدونه مكتوبا" وإنما ضمن التفسير الممكن لـ "آية أحمد".

#13 من المناسب هنا وضع بعض النصوص التي يعتبرها البعض أنها تَذْكُر الرسول والإسلام ولكنها ليست كذلك، وكما قلنا سابقا فإنه من الضروري للباحثين الالتزام بالصدق والأمانة في تحليل الأمور:

#13.1 في نشيد الأنشاد (5.16): حَلْقُهُ حَلاَوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ. هذَا حَبِيبِي، وَهذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ.

وكلمة مشتهيات في اللغة العبرية تقرأ "مُحَمَّديم"، ولكنه واضح من النص أن الكلمة ليست اسم علم (ولو كانت كذلك لتسمى بها الكثير من اليهود)، وكذلك فإن الإصحاح الخامس في نشيد الأنشاد هو قصة غزل لا يليق ربطها بالرسول عليه السلام.

#13.2 في سفر أشعياء الإصحاح 29: 10 لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَكَبَ عَلَيْكُمْ رُوحَ سُبَاتٍ وَأَغْمَضَ عُيُونَكُمُ. الأَنْبِيَاءُ وَرُؤَسَاؤُكُمُ النَّاظِرُونَ غَطَّاهُمْ. 11 وَصَارَتْ لَكُمْ رُؤْيَا الْكُلِّ مِثْلَ كَلاَمِ السِّفْرِ الْمَخْتُومِ الَّذِي يَدْفَعُونَهُ لِعَارِفِ الْكِتَابَةِ قَائِلِينَ: «اقْرَأْ هذَا». فَيَقُولُ: «لاَ أَسْتَطِيعُ لأَنَّهُ مَخْتُومٌ.« 12 أَوْ يُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لاَ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَيُقَالُ لَهُ: «اقْرَأْ هذَا». فَيَقُولُ: « لاَ أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ.« 13 فَقَالَ السَّيِّدُ: «لأَنَّ هذَا الشَّعْبَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ بِفَمِهِ وَأَكْرَمَنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَأَبْعَدَهُ عَنِّي، وَصَارَتْ مَخَافَتُهُمْ مِنِّي وَصِيَّةَ النَّاسِ مُعَلَّمَةً.

وقد يظن البعض أن الفقرة 12 في النص السابق تعود للرسول عليه السلام وأنها تتعلق بسورة القلم، ولكنه من الواضح في هذه النصوص أنها لا تتعلق بالرسول على الإطلاق، وإنما جاء النص انتقادا لليهود الذين يقرأون ولا يلتزمون.

#13.3 في سفر المزامير الإصحاح 84:
5 طُوبَى لأُنَاسٍ عِزُّهُمْ بِكَ. طُرُقُ بَيْتِكَ فِي قُلُوبِهِمْ. 6 عَابِرِينَ فِي وَادِي الْبُكَاءِ، يُصَيِّرُونَهُ يَنْبُوعًا. أَيْضًا بِبَرَكَاتٍ يُغَطُّونَ مُورَةَ.

وهذه النصوص ليست مطابقة للنصوص الإنجليزية:

5 Blessed are those whose strength is in you, whose hearts are set on pilgrimage.
6 As they pass through the Valley of Baka, they make it a place of springs; the autumn rains also cover it with pools.

و Baka تقرأ بالإنجليزية: بَكا، وترجمة "وادي بَكا" في النص الإنجليزي إلى وادي البكاء هو ترجمة صحيحة، فالمراجع تقول إن المعنى هنا هو وادي البكاء (Weeping Valley)، وهم يقولون إنَّ Baca العبرية قد جاءت من الكلمة Bacah وتعني "بَكا"، ويقولون إن Baca هي نوع من الأشجار والتي تفرز مادة صمغية ولهذا تم تشبيهها بالبكاء.

وقد قال تعالى: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ" (آل عمران 96). وهناك نقطتان تثيران الاهتمام في الآية القرآنية ونص المزامير: بكة والحُجَّاج. وقد ظن البعض أن هذا النص في المزامير يتعلق بمكة. ولكن لا يظهر على النص أنه يتعلق بمكة؛ فالذي يظهر في النص أنه واد فيه ينابيع وأحواض تملؤه أمطار الخريف، ولا يوجد في مكة ينابيع وإنما هو بئر واحد. ولهذا فإن ربط هذا النص بالآية القرآنية ليس قويا بما يكفي.

الملحق التاسع ـ تشابه الألفاظ واختلاف المعاني بين القرآن وبين التوراة والإنجيل

قال تعالى: "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" (الأنبياء 83).
وكذلك قال تعالى: "وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ" (ص 41).

والسؤال هنا: هل يوجد تناقض في النصين السابقين؟

والجواب: من حيث النظرة السائدة فإن الضُّر في آية الأنبياء ربما يكون سببه الشيطان في آية ص. وبالتالي لا يوجد أي تناقض، ولم يقم أحد باعتبارها نقطة تناقض.

ولكننا نستطيع وضع تفسير آخر للآيتين:

فالمعنى العام للشيطان في لسان العرب هو "كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب".

وبالتالي فليس من الضروري لكلمة "الشيطان" في القرآن أن تعني إبليس؛ فقد قال تعالى: "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (الأنعام 112). وهذا معناه أن الشيطان يمكن أن يكون جِنِيًّا ويمكن أن يكون إنسيا.

وكذلك قال تعالى: "وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (الأنعام 68)، ومستبعد هنا أن يأتي إبليس إلى صدر الرسول ويُنسيه. وغلبة الظن أن الشيطان هنا مجاز ويحمل معاني الانشغال والغفلة (إلخ). وكذلك في قوله تعالى: "إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ" (ص 33). وانتباه سليمان على الجياد قد جعله ينسى الصلاة قبل غروب الشمس، وهنا جاءت تضحيته بهذه الجياد. ولم يكن إبليس أو أي من شياطين الجن مسؤولا عن هذا النسيان.

وبالتالي نستطيع القول إن "الشيطان" في آية الأنبياء ليست إبليس، وإنما هي كلمة مجازية وتعني هنا "الضرر"، وهي نفسها "الضر" الموجود في آية ص. ولتأكيد هذا التفسير فإنَّ كيد الشيطان ضعيف كما قال تعالى: "إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا" (النساء 76)، وبالتالي فمن المستبعد جدًّا أن يكون إبليس هو المُسَبِّب للضَّرر الذي جاء إلى أيوب.

ولكن كلمة "شيطان" متشابه لفظيا مع كلمة "ساتان" في العبرية، ولكنَّ الكلمتين لهما معنيان مختلفان تماما. فالشيطان كما ذكرنا هو "كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب"، وأما "الساتان" فهو المعترض، فالشخص الذي يعترض طريقك للتحدث معك ينطبق عليه كلمة "ساتان"، والذي لا يوافقك في نقاشك ينطبق عليه كلمة "ساتان". فكلمة "ساتان" ليست سلبية، وإنما هو وصف على الاعتراض والذي قد يحدث من الشخص الصالح والفاسد.

ولهذا السبب فإن "الساتان" في الكتب اليهودية مختلف تماما عن الشيطان في اللغة العربية.

وفي القصة اليهودية فإن الساتان (أحد الملائكة المطيعين لله) هو الذي تسبب بالضرر لأيوب لامتحانه، والقرآن استخدم كلمة الشيطان (والتي لا تدل على الطاعة والإيمان وإنما على ظاهرة التمرد والفساد) لسرد هذه القصة.

وهذه هي الملاحظة، وهو أن القرآن في بعض الحالات يستخدم ألفاظا مشابهة لما في كتب اليهود والمسيحيين، وإنما بمعاني مختلفة.

ومثال آخر في موضوع المسيح: فالمسيحيون يعتبرون المسيح أنه كلمة الله، ويُقصد هنا بالكلمة هي الحكمة، وبالتالي فإن المسيح هو حكمة الله. وجاء أصلها من فيلو الاسكندراني (Philo of Alexandria) وهو يهودي الديانة وإغريقي الفلسفة. وقد حاول فيلو التوفيق بين اليهودية والفلسفة الإغريقية، ومن أعماله نموذجا يقول فيه إن أول خلق الله كان اللوجوز (الكلمة–Logos)، والتي يُقصد فيها الحكمة والمعرفة، وأن هذه الكلمة (اللوجوز) هي التي خلقت الكون، وقد اعتبر فيلو أن هذه الكلمة هي أول ابن لله، وكان هذا حوالي الـ 30 ميلادية. وبعدها أخذ النصارى نموذجه مع التعديل: فالمسيح هو هذه "الكلمة" التي كانت أول خلق الله. ثم جاء "جاستن الشهيد" (Justin Martyr) في حوالي 150 ميلادية ووضع مفهوم الثلاثة الذي يقول إن هناك ثلاثة أشخاص رئيسيين في الديانة المسيحية وهم الله (والذي يُسميه المسيحيون الأب) والمسيح (الإبن والكلمة) والروح. وفي 325 ميلادية، اتفقت عموم الكنائس على مفهوم الثالوث (في قانون الإيمان) وهو أن الله والمسيح والروح هم ثلاثة أشخاص (وباللغة العربية أقانيم) مختلفين ولكنهم في الوقت نفسه هم الرَّب الواحد، وأن هؤلاء الثلاثة متكافئين في القدرة والألوهية، وأن المسيح مولود غير مخلوق من الأب منذ الأزل. وهنا فإن "الكلمة" تعني حكمة الله وهو المسيح، وهو أحد عناصر الثالوث، وأما الروح فهو روح الله وهو كذلك أحد عناصر هذا الثالوث.

وأما القرآن فقد ذكر الروح والكلمة في موضوع المسيح ولكن بمعاني مختلفة تماما: فقد قال تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (النساء 171).

و"الكلمة" هنا هي "كن" كما في قوله تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" (يس 82). وهي كذلك "أمر" قضاه الله كما في قوله تعالى: "قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا" (مريم 21). وأما الروح فهي الرحمة كما في قوله تعالى: "وَرَحْمَةً مِّنَّا" في آية مريم السابقة.

وهذا الذي نذكره هنا .... وهو أن القرآن قد يستخدم ألفاظًا لها مفاهيم موجودة في التوراة والإنجيل وإنما بمعاني مختلفة تماما. وغلبة التخمين أن هذا الأمر هو لتنبيه اليهود والنصارى إلى خطأ استخدام هذه الألفاظ للمعاني التي وضعوها:

هناك ظاهرة سلبية في المجتمعات وهي ظاهرة "تثبيت المجاز"، وفيها يقوم الأجداد بوضع الأسماء المجازية (مثل الروح والكلمة والإبن إلخ) في وصف الأمور وإذا بالأحفاد يقومون بـ "تثبيت المجاز" وذلك باعتبار هذه الأسماء

حقيقية: فمثلا كلمة "روح الله" و"وجه الله" هي كلمات مجازية، وفي كثير من الاحيان تكون كلمات زائدة. فمثلا: عندما يقول زيد للملك: سأترك هذا الأمر لرحمة الملك. فإن الرحمة هنا هي كلمة زائدة، وقد وضعها زيد للاستعطاف، ولكن المعنى الحقيقي لزيد هو: سأترك هذا الموضوع للملك. فالرحمة هنا هي كلمة زائدة جاءت للاستعطاف. وكذلك إذا قلنا: كل شيء زائل إلا وجه الله، فإن الوجه هنا هي كلمة زائدة، والمقصود: كل شيء هالك إلا الله. وقد استخدمت العرب هذه الكلمات الزائدة في أشعارها وبلاغتها. وتحدث المشكلة الحقيقية عندما يأتي الأحفاد ويأخذون هذه الكلمات الزائدة والكلمات المجازية ويعتبرونها حقيقة. وربما يكون هذا هو أحد الأسباب لاستخدام القرآن لألفاظ أهل الكتاب وإنما بمعاني مختلفة تماما وذلك لتنبيهنا وتنبيههم.

وقد قال تعالى: "مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ" (الأحزاب 4). وموضوع التظاهر نعرفه تماما، وموضوع الأبناء غير الصلب نعرفه تماما، ولكن لا يوجد شرح واضح لموضوع القلبين في الجوف، ويوجد عند المفسرين قصص كثيرة في هذا الموضوع ولكنها كلها تخمينية.

والمثير للانتباه هو قوله تعالى: "إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا" (التحريم 4)، وهنا فإن القرآن قد وصف القلب بالجمع وليس المفرد ونحن نعرف أنه قلب واحد.

الآن ... في آية التحريم فإن تثنية أو جمع القلب (أي قلبان وقلوب) في الوصف هو مجاز تسمح به لغة العرب. وهذا ربما يشرح لنا موضوع القلبين في آية الاحزاب:

عندما نَصِفُ شخصا مجازا وبلاغة أنَّ فيه قلبين (كناية عن شدة الذكاء) فهذا مفهوم، ولكن الآية تنتقد محاولة تحويل المجاز إلى حقيقة. وهذه هي النقطة التي نراها في الآية، وهو انتقاد التَّعود على تحويل المجاز إلى حقيقة، وبالتالي يكون معنى الآية: كما أنه لا يوجد حقيقةً قلبين في جوف الرَّجل، فإن التظاهر لا يوجد حقيقةً، وأبناء التربية هم أبناء مجازًا وليس حقيقةً.

وهنا نقطة الانتباه لظاهرة "تثبيت المجاز" والتي حدثت مع اليهود والمسيحيين، وهو أن كثيرا من الألفاظ التي استخدمها آباؤهم مجازا قد قاموا باعتبارها حقيقة. وربما يكون استخدام القرآن لألفاظ مشابهة لألفاظهم وبمعاني مختلفة تماما عن معانيهم أن يكون تنبيها لنا ولهم لهذه الظاهرة.

وقد وضعنا نبذة عن قانون الإيمان للمسيحيين، ومن المناسب التعرض له. والقانون اختصارا هو أن الله والمسيح والروح هم ثلاثة أشخاص (وباللغة العربية أقانيم) مختلفين ولكنهم في الوقت نفسه هم الرَّب الواحد، وأن هؤلاء الثلاثة متكافئين في القدرة والألوهية، وأن المسيح مولود غير مخلوق من الأب منذ الأزل.

وتوجد هنا الملاحظات التالية:

- القول إنَّ الله والمسيح والروح هم أشخاص مختلفون ومتكافئون في الألوهية، فإن هذا معناه وجود ثلاثة أشخاص في العبادة (أي أن هناك من يعبد الله، وهناك من يعبد المسيح، وهناك من يعبد الروح)، ومع أن القانون يقول إن الثلاثة هم واحد، إلا أنَّ الأمر الواضح هو وجود ثلاثة أشخاص (حسب قانون

الإيمان) يتم عبادتهم، وهذا يُخالف أهم مبدأ موجود في قوانين موسى؛ وهو أنَّ العبادة يجب أن تكون لواحد.

- القول إنَّ المسيح مولود غير مخلوق من الأب منذ الأزل، هو جمع للألفاظ بلا معنًى. وهو أشبه بالقول: هذه الدائرةٌ مربعةٌ جميلةٌ، أو القول: سنذهب البارحة إلى السوق. فكلا القولين هما جمع للألفاظ بلا معنًى. فالقول إن عيسى مولود من الله فهذا وصف يتعلق بنقطة زمنية في الماضي، وأما الأزل فليس له أي نقطة زمنية تحدده في الماضي. وكذلك فإنه من مفهوم اللغة أن كل مولود مخلوق وليس كل مخلوق مولود، وبالتالي توجد هنا نقطة تناقض واضحة في النص.

والقول إن العبارة السابقة معقدة جدا لأفهامنا هو منطق مردود، لأن المنطق الذي يستطيع الجميع استخدامه لمعالجة جميع التناقضات هو منطق غير مقبول. فمثلا: يستطيع شخص أن يقول إنه لا يوجد تناقض في العبارة: يوجد عدد أكبر من 9 وأقل 3. وأن التناقض الظاهر في العبارة هو بسبب محدودية العقل عندنا. وهذا بالطبع منطق مردود.

- القول إن الثلاثة هم واحد هو كذلك جمع للألفاظ بلا معنًى، كما شرحنا في النقطة السابقة.

المراجع

ابراهيم عبد المعطي (2022) لماذا كتبت رحمت ونعمت بالتاء المفتوحة في القرآن،
https://www.drabdelmoaty.com/2021/04/Mercy-in-the-Quran.html

أحمد (Kaiwansi)، "الجبرية" (2103)،
https://ahmadkaiwansi.wordpress.com/2013/09/22/ الجبرية /

أحمد سبيع، قناة البينة لمقارنة الأديان والرد على الشبهات، هل قالت اليهود أن عزير إبن الله؟ وهل وقع القرآن في خطأ تاريخي؟
https://www.facebook.com/albyyinah/posts/771667769672132/

الأنبا تكلا، موقع الأنبا تكلا هيمانوت القبطي الأرثوذكسي،
https://st-takla.org/P-1_.html

الأنبا-تكلا-2، شرح كلمة وادي البكاء،
https://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/02_B/B_190.html

أنبا-عزرا: الأنبا تكلا، عَزْرا الْكَاهِن، ابْن سرايا،
https://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/18_EN/EN_113.html

الصوري: أبو الحسن إسحاق الصوري(2008) ، التوراة السامرية (مترجم)، دار نون.

منتدى شبكة الفصيح، دلالة الفعل المضارع على الماضي في القرآ ن الكريم،
http://www.alfaseeh.com/vb/showthread.php?t=14447

عزالدين كزابر، الفرق بين لفظ (الدخان) اللغوي ولفظ (الغاز) الاصطلاحي (2016)،
http://kazaaber.blogspot.com/2016/09/blog-post.html

عصام البيطار، ظاهرة "الإعجاز العددي" في القرآن: حقيقة معجزة أم شعوذيات حسابية؟
https://dkhlak.com/numerical-miracles-of-the-quran/

فاروق مواسي-1 (2017) هل يصح أن نقول: ثلاثة شهور، ديوان العرب
https://www.diwanalarab.com/هل-يصح-أن-نقول-ثلاثة-شهور

فاروق مواسي-2 (2016) هل هي ممنوعة من الصرف، ديوان العرب
http://www.diwanalarab.com/spip.php?article45064

كَنَّاب (حسين أحمد كَنَّاب)، موقع فصلت لـ الاعجاز العلمي في القرآن الكريم،
https://fussilat.org/

محمد رشيد رضا، مسئلة انشقاق القمر، المكتبة الشاملة:
https://al-maktaba.org/book/6947/3989

مشروع المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود، تفاسير: القرطبي والطبري وابن كثير،
http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/

ويكي، الإعجاز العددي في القرآن،

https://ar.wikipedia.org/wiki/الإعجاز_العددي_في_القرآن

وديع كيتان، موقع الباحث في القرآن،

http://www.kitane.net/AR/corane/corane.php?ch=2&m=0

Abramowitz: Jack Abramowitz (Rabbi), 78. Majority Rules: The obligation to follow the majority opinion, https://outorah.org/p/6045/

Carlson: Paul Carlson, New Testament Contradictions (1995), https://infidels.org/library/modern/paul_carlson/nt_contradictions.html

Daniel Wallace, Aren't there 400,000 Variants or Errors in the New Testament? (I), Ehrman Project, https://ehrmanproject.com/arent-there-400000-variants-or-errors-in-the-new-testament-i

Debate (Youtube-2013): Brown-Schochet, Is Jesus the Jewish Messiah? Michael Brown vs Rabbi Immanuel Schochet, https://www.youtube.com/watch?v=xG26JPXZVx0

Deedat-1, Ahmad Deedat (Debate 2014) Is Jesus God? Debate between Sheikh Ahmed Deedat and Dr Anis Shorrosh, Youtube: https://www.youtube.com/watch?v=QCsKW8AAy1U

Deedat-2, Ahmad Deedat (Youtube) Muhammad in the Bible in response to Swaggart - Deedat (English - Full), https://www.youtube.com/watch?v=s_Cw0HKJKYs

Designing life, Rock Gibraltar Picture, https://designinglife.biz/rock-gibraltar/

Discover Pakistan, Princess Of Hope Picture, https://www.discover-pakistan.com/princess-of-hope.html

Ehrman-1, Bart Ehrman, Author Interviews: Jesus And The Hidden Contradictions Of The Gospels, https://www.npr.org/templates/story/story.php?storyId=124572693

Ehrman-2, Ehrman vs Wallace - Can We Trust the Text of the NT?, https://www.youtube.com/watch?v=WRHjZCKRIu4

Free World Maps, Caucasus Mountains Map, http://www.freeworldmaps.net/asia/caucasus/map.html

GoToQuestions, What is the Valley of Baca in the Bible? https://www.gotquestions.org/valley-of-Baca.html

Interesting Engineering, This New Technology Generates Electricity When Fresh Water Meets Saltwater, https://interestingengineering.com/technology-generates-electricity-fresh-water-meets-saltwater

Jay Smith, The Classical Debates - Jay Smith vs. Dr. Shabir Ally, https://www.youtube.com/watch?v=fWHV9VnOJtc

Kalam, Al-Ghazali, The Argument Against Eternity, https://wmpeople.wm.edu/asset/index/cvance/kalam

M.Disdero, Lot's wife as a pillar of salt Picture, https://en.wikipedia.org/wiki/Lot%27s_wife#/media/File:SaltPillarDeadSea.jpg

Manc, Jodrell Bank Centre for Astrophysics, The University of Manchester, The Sounds of Pulsars (2014), http://www.jb.man.ac.uk/research/pulsar/Education/Sounds/

Martin, Dale B. Youtube: Judaism in the First Century (2009) https://www.youtube.com/watch?v=7QIBB7gXHKc&list=PL279CFA55C51E75E0&index=4

Nehemia Gordon (2011) The Hebrew Yeshua vs. the Greek Jesus, https://www.youtube.com/watch?v=tddCNY6U77Y
Nasa, Crab Nebula JPG, https://en.wikipedia.org/wiki/Crab_Nebula#/media/File:Crab_Nebula.jpg
Nasa-Moon, "From a Million Miles Away, NASA Camera Shows Moon Crossing Face of Earth", https://www.nasa.gov/feature/goddard/from-a-million-miles-away-nasa-camera-shows-moon-crossing-face-of-earth
Nasa-Planet, What is a Planet?, https://solarsystem.nasa.gov/planets/in-depth/
Nasa-Solar, Our Solar System, https://solarsystem.nasa.gov/solar-system/our-solar-system/in-depth/
Pxhere.com-A, bright blue sky with white clouds, https://pxhere.com/en/photo/1533053
Pxhere.com-B, bright blue sky with white clouds, https://pxhere.com/en/photo/1289942
Rosenfeld: Dovid Rosenfeld (Rabbi), Chapter 3, Law 8(d) – The Torah of the Rabbis, Part II, https://torah.org/learning/mlife-lorch3-8d/?printversion=1
Sadeghi: Behnam Sadeghi and Mohsen Goudarzi, San'ā' 1 and the Origins of the Qur'ān (2012) Der Islam Bd. 87, S. 1–129.
Sefaria: Bava Metzia 59a-b, https://www.sefaria.org/Bava_Metzia.59b.1?lang=bi&with=all&lang2=en
Stephengg, Salt and fresh water meet in the Strait of Georgia [Picture], https://www.flickr.com/photos/stephengg/542466964
USGS, The Mid-Ocean Ridge, https://pubs.usgs.gov/gip/dynamic/baseball.html
Watson: Rebecca Watson (2015) No, Atheists, the Oldest Koran isn't Necessarily Older Than Muhammad, https://www.youtube.com/watch?v=7TFTj-7JHDo
Wiki- Birmingham, Birmingham Quran manuscript, https://en.wikipedia.org/wiki/File:Birmingham_Quran_manuscript.jpg
Wiki-Gospel, https://en.wikipedia.org/wiki/Gospel
Wiki- LowerText, Sana'a1 Stanford '07 recto lower text, https://en.wikipedia.org/wiki/Sanaa_manuscript#/media/File:Sana'a1_Stanford_'07_recto_lowertext_image.jpg
Wiki-Rome, Council of Rome, https://en.wikipedia.org/wiki/Council_of_Rome
Wiki-SanaaM, Sanaa manuscript, https://en.wikipedia.org/wiki/Sanaa_manuscript

مؤلفات سابقة للمؤلف

النهضة والذكاء الجماعي: أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة تتعلق بالصفات الأساسية لنهضة الأمم (2012) مصر: مكتبة الآداب.

الأسرار في الإبداع: الإبداع والعبقرية ليستا بحاجة إلى ذكاء خارق، وإنَّما بحاجة فقط إلى صبرٍ في التَّفكير (2012)، مصر: عالم الكتب للنشر والتوزيع.

الجن ... ما نتوهمه لهم وما يمكن استنتاجه عنهم: نظرة منهجية تهدف لوضع موضوع الجن على قاطرة البحث العلمي (2012)، مصر: عالم الكتب للنشر والتوزيع.

العبرة الكبرى: النقمة التي تحل على أي شعب (أو أُمَّةٍ بِمَنْ فيهم العرب والمسلمين) يَرَوْنَ أنفسهم أنهم أفضل الشعوب وأذكى الشعوب وأشرف الشعوب وأَنَّ الكون كله يدور حولهم وأنه يحق لهم ما لا يحق لغيرهم (2012)، مصر: عالم الكتب للنشر والتوزيع.

السلسلة الإدارية:

إدارة الابتكار (2016) السلسلة الإدارية – الجزء الأول .

حسن الاستماع وإدارة الحوار (2016) السلسلة الإدارية – الجزء الثاني.

منهج الإبداع (2016) السلسلة الإدارية – الجزء الثالث.

مهارة الربط والتحليل المنطقي (2016) السلسلة الإدارية – الجزء الرابع.

تقييم الفعالية والكلفة والمخاطر (2016) السلسلة الإدارية – الجزء الخامس.

منهج التطوير (2016) السلسلة الإدارية – الجزء السادس.

إدارة المعرفة (2016) السلسلة الإدارية – الجزء السابع.

إدارة التميز (2016) السلسلة الإدارية – الجزء الثامن.

السلسلة الفكرية:

أصل الإنسان (2016) السلسلة الفكرية – الجزء الأول.

ذو القرنين وأهل الكهف (2016) السلسلة الفكرية – الجزء الثاني.

الهلال بين الرؤية والحساب (2017) السلسلة الفكرية – الجزء الثالث.

الفلسفة الألفية ومنهج المقاربة (2018) السلسلة الفكرية – الجزء الرابع.

تحليل الأدلة والقرائن (2019) السلسلة الفكرية – الجزء الخامس

ملاحظة: بعض الكتب السابقة يمكن تنزيلها بصيغة الـ pdf من العنوان التالي:
omr-mhmd.yolasite.com